

سَيِّدُ مُحَبُّو الْقَمْنَى

حَبِيبُ دَوْلَتِ

الْمَسْرُورِ
وَسَلَامٌ عَلَى اللَّهِ
وَسَلَامٌ

الجزء الثانى



الناشر : مديولى الصغير

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى

الناشر : مكتبة مدبولي الصغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز

تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠

ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع : ٩٥ / ٩٣٤٨

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

المدير الفني : محمد الصباغ

خطوط الغلاف : لمى فهد

المراجعة اللغوية : سيد عبد المعظم

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى

سيد محمود القمنى

الناشر: مديولى الصغير

إهداء

إلى الأصدقاء الذين وقفوا إلى جوارى فى محتى الصحىة:

الأستاذ فاروق حسنى والدكتور جابر عصفور والدكتور فوزى فهمى، والأستاذة فوزية رشيد، والأستاذة عبدالعال الباقورى وصحيفة الأهالى، وجمال الغيطانى، ومصطفى بكرى، وسليمان فياض، وفتحى عامر، وعبد الغنى داود، وعبدالله الشرهان، والأصدقاء الذين أحاطونى بالحب والرعاية، كوكبة أطباء الزقازيق: الدكتور أيمن عبدالحارس والدكتور نصر السيد والدكتور أحمد والى، فكانوا إلى جوارى طوال الوقت، ومنحونى من الحب ما هو جدير بهم.

والى (عمال) جناح القلب بمستشفى الهرم، والى كل من شارك دون أن يعلمنى بدوره، وكل من كتب فى الصحف، أو وقع على بيان، أو شارك بالتمنى الطيب عن بعد.

لهم جميعا كل الحب وكل العرفان.

مسار التاريخ

«أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»

[١٣ الشورى/ قرآن كريم]

فى الجزء الأول من هذا العمل، قدمنا تأسيساً تمهيدياً يساعد على تفهم المراحل التى اجتازتها دولة العرب وهى فى طور النشأة، والتى أقام نواتها الأولى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فى عاصمته (يثرب)، عبر حروب طويلة خاضها بصحبة رجاله، من أجل تأمين دولته الوليدة، وتوحيد قبائل العربان تحت راية دولة واحدة، وقائد واحد، وعبادة واحدة.

وإعمالاً لذلك؛ قمنا بقراءة واقع جزيرة العرب، الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فى الفترة الواقعة قبل الدعوة، فكان حديثنا عن حكومة المألا الابتدائية فى مكة، التى كانت شبه جمهورية، والتى قامت بهدف إحكام سيطرة الأرستقراطية التجارية المكية، على مختلف الشئون، فى خطوات بدأت بتقريش قبائل مكة زمن (قصي بن كلاب)، أى جمعهم بعد تفرق، ثم كانت الخطوة الثانية: الإيلاف، للتأليف بين قبائل مكة التجارية، وبين القبائل الضاربة على الخط التجارى الواصل بين مكة وبين الامبراطوريتين: الفارسية والرومانية، وبينها وبين القبائل المتناثرة فى باطن الجزيرة فى خطوط فرعية، ثم بين مكة وبين الامبراطوريتين.

وقد هيا مكة للقيام بهذا الدور التاريخى، مجموعة متسارعة من الأحداث، حيث كان مركز اليمن الزراعى قد تهاوى وكذلك التجارى، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية:

الغساسنة والمناذرة، وذلك في العصر الجاهلي الأخير، وهو ما أحدث فراغا سياسيا واضحا، كما انهارت مجموعة طرق تجارية أخرى لم يبق آمنها سوى الطريق المار بمكة، نتيجة للحرب الضروس التي دارت بين الفرس والروم.

وكان لمنعة الطريق المار بمكة، دور حول مكة من قابضة للعشور على بضاعة الترانزيت المارة بها، إلى مركز للأرستقراطية التجارية التي نهضت بأمر تجارة العالم المعروف آنذاك، وهو الأمر الذي أدى إلى تراكم ثروى عظيم، بخزائن الأرستقراطية المكية، التي أخذت تتاجر لحسابها بثروات العالم.

ومع ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومع تحول هؤلاء النفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابهم، ومع حجم تلك التجارة الهائل، كان محتماً أن تبدأ الانقسامات الطبقية الحادة فى الظهور داخل القبيلة الواحدة، مما أدى إلى تهشيم الأسس الأولية القديمة لروابط العشيرة، وما صاحبه من اختلاف أوضاع الناس فى العملية التجارية التى تقودها مكة، مما ساعد على تحول تدريجى ابتدائى عن الولاء للقبيلة إلى الولاء للطبقة، وظهرت قيم الفردية، التى اتضحت فى إمكان تحديد قيمة الفرد دون جماعة، بتحول قيمة الشرف عن النسب القبلى وعدد النفر، إلى ما يملكه الفرد من مال، وهكذا جمعت المصالح المادية لأول مرة، بين أفراد من قبائل مختلفة، كما جمع الشقاء بين المسنضعين على تفرقهم بين مختلف القبائل.

وقد لاحظنا بما قدمناه من أمثلة، أن كل تلك التطورات لم تصل فوراً إلى نتائجها الواضحة، فلم يتم تفجير القيم القديمة تفجيراً كاملاً، إنما تخفى المحتوى الطبقي الجديد برداء قبلى قديم، عندما سعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتها بهم وبمصالحهم، بالعطاء والمنح، وإشراك صغار التجار فى قوافلهم التجارية، وهو ما تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين قبليين كبيرين بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين لكن بلامح قبلية، يمثلهما البيت الأموى الثرى، والبيت الهاشمى الذى غلب عليه الفقر.

وكان مفترضاً أن يؤدى التفاوت الطبقي، وتناقضه مع الشكل القبلى، إلى مرحلة تفجر الشكل لمصالح المحتوى، لولا أن الشكل القبلى كان يؤدى للقيادة المكية - ولمصالح الأرستقراطية التجارية تحديداً - مكسباً ثروياً أكبر من التحول النهائى نحو الشكل الطبقي، لأن بقاء القبيلة وإطالة أمدّها كان يعنى مزيداً من التراكم الثروى لأرستقراطية مكة، وهو الأمر الذى يفسره مستوى المرحلة الفكرية.

وعلى المستوى الفكرى، كان الرب القبلى سيد القبيلة وسلفها البعيد، ومعبودها ورمز عزنها وكبرياتها، وكان تجمع تلك الأرياب فى ضيافة الكعبة المكية يعنى مزيداً من الحضور التجارى لأنباع الأرياب، ومزيداً من المكاسب، وبينما كان المحتوى الطبقي يسير نحو تفجير الشكل القبلى

لصالح توحيد القبائل جميعاً، بتقارب مصالح الأثرياء من قبائل مختلفة، بحيث صار ممكناً رفض القبيلة وسيدها وسلفها المعبود لدى الفرد عن الشريحتين الاجتماعيتين، الأرستقراطية والمعدمة، فكان الأرستقراطيون ينحدون نحو التوحيد المصلحي الذى احتاج أدلته أفرزت اعتقاداً فى إله واحد يرفع تلك المصالح، ويكون فى مرتبة تلبق بمكانتهم السيادية والإدارية، فوق آلهة الكعبة جميعاً، وراعياً غائباً لمصالحهم، كذلك كان المضطهدون والمعدمون والرفيق، فى حالة رفض نفسى وعقلى لأرباب باتت لا تعدل فى فسمه الأرزاق.

ومن ثم ظل التشرذم القبلى قائماً، وجنين الوحدة المفيلة لعرب الجزيرة فى حالة إرهاب ومخاض، دون ميلاد حقيقى، بينما انتشر اعتقاد فى مهمة باقية لأرباب القبيلة، وهى النشفع لأصحابها لدى الإله الواحد الأعلى، فاتخذوها إليه زلفى، وهو ما كان إخضاعاً نفسياً داخلياً وذاتياً للقبائل، لملاً مكة وسيادتهم، باعتراف القبائل العربية بسيادة إله الملاً الأعلى على أرباب القبائل.

وبينما صراع النقيضين يفعل فعله التراكمى، لصالح توحيد كامل، يقضى على التمثيل القبلى، لصالح نظام حكم مركزى جامع، يقوم على سلطة واحدة موحدة، لا تضع بحساباتها مصالح الملاً الأنانية الضيقة، بل نتجاوزها بضرب التعدد السلطوى والربوبى لصالح دولة كبرى ومصالح أعظم وأعم نفعاً لكل عربان الجزيرة، حكم يمكنه أن يوحد تلك الشراذم المتأرجحة بين القبلية والنوحد نحو أمة واحدة، بدأت تسرى فى الآفاق نبوءات الحكماء والكهان عن قدوم موحد فرد ينفق فى مواصفاته مع حالة الجزيرة الاجتماعية، فهو لن يأتى ملكاً، لأن أى قبيلة سرفض فوراً أن يحكمها ملك من خارج نسبها، لذلك سبأتى الملك بصيغة أخرى، صيغة جامعة مانعة يقبلها الجميع، ومن ثم سرى الإرهاب الذى يلهب الأحاسيس القومية، بمقدم نبي منتظر^(١).

وكان تراكم الثروات العظيمة لدى الأرستقراطية المكية بحاجة إلى وسائل تنموية متعددة، بينما الواقع المتشظى بضآلة وسائل الإنتاج فيه قد جعل تلك التنمية شبه معدومة، فظلت الثروات فى حالة كنز وكمون لا تتحرك إلا مع موسم التجارة، دورة واحدة دون حراك حقيقى يعود بفوائده على المستوى القاعدى الأوسع لأفراد مختلف القبائل.

وللحفاظ على الثروات الكامنة تم كنزها فى شكل معادن ثمينة، وهو ما أدى دوراً معطلا لدورتها الإنتاجية المفترضة، كما أدى بالتجار الوسطيين وبعض أفراد الأرستقراطية الواعية إلى

(١) ارجع فى تفاصيل ذلك إلى موضوعنا: دور الحرب الهاشمى والعقيدة الحنفية فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع/أكتوبر ١٩٨٦، ص ٢٧: ٦، والموضوع نفسه موسعاً فى كتاب بعدوان: الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة، ١، ١٩٩٠، انظر أيضاً التأسيس الذى مهدنا به للجزء الأول من كتابنا: حروب دولة الرسول، دار سينا، القاهرة، ١، ١٩٩٣.

قراءة آفاق المستقبل وممكناته، بينما ظل أغلبية الملأ على حالهم المحافظ الرجعى بالاكتناز حتى موسم التجارة .

ومثل تلك المقدمات تفسر لنا إسلام بعض التجار الوستطيين مثل أبى بكر بن أبى قحافة ومن كان على رأيه وقت كان الإسلام ينادى المستضعفين، حيث كان هؤلاء الوستطيون أقدر على قراءة حركة الواقع قراءة واعية بحكم موقعهم الاجتماعى، تلك القراءة التى أدركت غاية خط سير التطور. حتى يمكن أن يتحول أمن البيت المكى لأهله من الجوع والخوف إلى أمن لعرب الجزيرة جميعاً، بتوحد ينتهى إلى قوة واقتدار، ويؤدى إلى نظرة طموح نحو الامبراطوريتين المتهالكيتين .

كذلك تفسر تلك المقدمات، تلك اللغة القومية الجديدة التى أخذت تسرى مع سفى الرياح فى فيافى الجزيرة، وأوردنا لها نماذج فى الجزء الأول من هذا العمل، ونعصده هنا بإضافة ما وجدناه مجدداً عند (الدينورى) فى الأخبار الطوال وهو يحكى عن (النعمان بن المنذر)، ملك الحيرة العربى المسيحى، المنوب عليها من قبل كسرى فارس، ذلك الرجل الذى ظهر شعوره القومى العربى تجاه قومه، فقام يساعد (سيف بن ذى يزن) العربى اليهودى الذى ثار فى اليمن على الاحتلال الحبشى المسيحى لبلاده، فتوسط النعمان لدى كسرى ليمد سيف بن ذى يزن بالسلح والجند، حتى تحررت اليمن من الحبش، لكن لتسقط فى تبعية الفرس .

ولو تم تفسير موقف النعمان بأنه كان يوطىء لجيوش الفرس فى اليمن لظلمناه ظلماً بيناً، لأن ذلك التفسير سيجافى ما حدث بعد ذلك وينافيه تماماً، فقد استمرت سياسة النعمان فى موالة القبائل العربية، حتى توجس منه كسرى الذى وعى بدوره شكل التحولات التى تجرى فى الجزيرة ونذرهما، فتخلص منه، وأوجز سبب قتله فى خلاصة واضحة معبرة تماماً عن خط سير الأحداث، حيث قال:

وأما ما زعمت من قتلى النعمان بن المنذر، وإزالتي الملك عن آل عمرو
ابن عدى، إلى إياس بن قبيصة، فإن النعمان وآل بيته قد واطأوا العرب
وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا إليهم، وكان لهم فى ذلك كتب،
فقتلته، ووليت الأمر أعرابيا لا يعقل من ذلك شيئاً^(٢).

وقد تتالت الأحداث إثر ذلك، فأخذت بكر تغيير على سواد العراق كراً وفراً^(٣)، ثم تصاعدت

(٢) الدينورى: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد العومى، ط ١، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٦٣، ١٠٩، ١١٠.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، المكتبة الحيدرية، ط ٢، الدجف، ح ٢٠، ص ١٣٢.

المناوشات بين قبائل إياد والفرس، ليهزم العرب هزائم متتالية^(٤)، حتى تأتى موقعة ذى قار حيث تحقق القبائل العربية أول نصر عظيم لها على جيش الإمبراطورية، ذلك النصر الذى دوى أمره يرجع صدهاء بين مضارب القبائل الساهرة تسمر حول أخباره . مع فرح عام شمل الجزيرة جميعا، عبر بوضوح عن بدء شعور العرب بوحدة جنسهم، وعن ظهور نزوع قومى واضح لاشية فيه، ليلقى بصدهاء فى سمع الأجيال وهى تنصت إلى موجد العرب، النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو يعقب على نصر ذى قار قائلا: «اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا»^(٥).

وفى مكة، كان أبرز من وعى إمكانات المستقبل وهى تلقى بمقدماتها أمام سادة مكة، رجل من الملأ حكيم، هو عتبة بن ربيعة، الذى وقف يطلب من قريش الكف عن محمد، لأن ما سيكون له من شأن سيكون شأنهم، وما سيحققه من عز وملك سيكون ملكهم وعزهم، لكن إصرار الملأ على المنافع الضيقة واستدامة الأرياب القبليّة جذبا للتجارة، أدى بذلك المتغير الآتى إلى أن يفرض وجوده فرضا، ليصل خط التطور نحو غايته الحتمية.

وعليه فقد نهض بإتمام التطور وأخذه إلى نهايته الناضجة، لصالح الطبقة التاجرة، ذلك الفرد المنتظر، نبى الإسلام الكريم - صلى الله عليه وسلم - الذى نشأ يتيما فقيرا أكادحا، من البيت الهاشمى الذى حاز شرف النسب، لكن مع تواضع مادية، بل كان من الغصن رقيق الحال فى ذلك البيت، غصن عبدالمطلب وأبى طالب. ومع تجاوزه الصبا إلى اليفوع والرجولة، تحول محمد إلى التجارة لصالح أثرياء مكة، ثم تزوج من الشريفة الثرية السيدة خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فخير الأمرين، وعاش الحالين، وعاین الطبقتين، مما كان كفيلا بوعى نافذ، كان وراء دفع الأمر نحو غايته ونتائجه الحتمية.

وإعمالا لما سبق، وبسبيل الاتساق مع السير الصحيح لوجهة التطور التاريخى، بدأ النبى - صلى الله عليه وسلم - دعوته بالمجاهرة بضرب المصالح الأنانية الضيقة لملا مكة، ابتداء بضرب التعدد القبلى الربوبى، بهدف التوحد الآتى، ومن ثم كان إعلانه كفران قريش «قل ياأيها الكافرون...»، و سلبها لقبها الذى شرفتها به العرب (أهل الله)، وتسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان، مع رفضه الصارم لفواعد التجارة التى قعدوها، التى كانت تعطل سيولة رأس المال وتجمد دورته التنموية، فقام يهاجم كنز الذهب والفضة، بأوامر وحى يساير سنن الكون التاريخية ويلتقى معها، حتى وصل فى مغالاته إلى ذم المال فى ذاته، وهو ما جاء فى، رواية ابن حنبل:

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ج ١، ص ١٢٩.

(٥) خليفة بن حياط: الطنقات، تحقيق أكرم العمرى، مطبعة العائى، ط ١، بغداد، ١٩٦٧، ص ٤٣.

«إن النبي قال: تبا للذهب، تبا للفضة، فشق ذلك على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: أى مال نتخذ؟ فقال عمر - رضى الله عنه -: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يارسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا: أى مال نتخذ؟ قال: لسانا ذاكراً وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه،^(٦).

وتكرر موقفه من المال فى مواقف من أصحابه من التجار الوستيين، فقال يوماً لعبد الرحمن ابن عوف - رضى الله عنه - : «ما بطأ بك يا عبد الرحمن؟ قال: ماذا لك يا رسول الله، قال - صلى الله عليه وسلم - إنك آخر أصحابى لحوقاً بى يوم القيامة، فأقول: ما حبسك عنى، فيقول المال: كنت محاسباً محبوساً حتى الآن،^(٧).

وكان طبيعياً أن تسفر الدعوة عن عداء جهير بعد الجفوة، أدى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - إلى وجهة مرحلية على خطوات الطريق الاستراتيجى الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين والمعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب والامتلاك، بل وامتلاك كنوز تتضاءل أمامها كنوز الملأ القرشى، إنها كنوز كسرى وقيصر بهدف تشكيل نواة جماعة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس، وعليه كان إعلان الوحي: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» (٥/القصص).

ويروى البلاذرى: «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا جلس فى المسجد جلس إليه المستضعفون من أصحابه: عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة، وأشباههم من المسلمين، فتهازأ قريش بهم ويقول بعضهم لبعض: هؤلاء جلساؤه كما ترون، قد من الله عليهم من بيننا»^(٨).

وإعمالاً لذلك بات واضحاً أن المستضعفين هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون القادة والأئمة، وهم من سيرثون الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، يوحد ولا يفرق، يجمع أصحاب المصلحة فى التغيير فى مصهر واحد، عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها: «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (١٣ الشورى)، ومن هنا، وفى تلك المرحلة، قام الإسلام يضرب القبلىة، بإحلال الولاء لجماعة الإسلام محل أى ولاء آخر، وهو ما دعا إليه

(٦) ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٩.

(٧) الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماح، تحقيق محمود عربوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٢٩.

(٨) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج ٢١، ص ١٥٦.

الوحى فى قوله: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» (١١٣ / التوبة) .

وقد أفصحت الصحيفة التى عقدت بعد ذلك بزمان بعد الهجرة إلى يثرب، عن قرار بقيام الدولة على نظام اجتماعى جديد، يميزها كأمة أخرى تماما دون بقية الأعراب، ووضعت أول مبدأ للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضري الكيفي المتجاوز للتجمع القبلى الكمى، وهو المبدأ الوارد فى نصها المضىء فى مبتدأها: «هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»^(١) .

وتسارعت الخطوات بعد الهجرة، بادئة بالمهمة الكبرى، وهى إسقاط نظام الملأ المكى، وحكومته شبه الجمهورية، وضرب ذلك النظام فى أساسه الخرسانى، بقطع طريق الإيلاف التجارى المار قرب يثرب، بحروب بدأت رعاها بسرايا وغزوات، كانت الحروب التأسيسية لقيام دولة الرسول فى يثرب.

(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، صمم كتاب السهيلى: الروص الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبدالرؤف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، مج ٢، ص ٢٤١ .

التأسيس التاريخي للأمة

«إن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما
هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»

[النبي محمد]

كان الانقلاب العظيم الذى جاءت به الدعوة، يتمثل فى رفض النموذج البدوى للإنسان العربى فى المرحلة القبل إسلامية، ومن ثم جاء الانقلاب ليسارع فى تفجير الأطر القبلية، ويبنى نموذجاً جديداً لإنسان الجزيرة، ويضعه ضمن منظومة اجتماعية جديدة، تنتقل بالفرد من الولاء للقبيلة إلى الولاء للأمة القومية، تلك الأمة التى كان عمادها الرئيس عقيدتها الجديدة.

وإذا كانت ترميزات الوحي المجازية قد جعلت من إبراهيم الخليل أمة وحده، كأب لجميع الأنبياء «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين» (١٢٠ / النحل)، فإنها جعلت من محمد - صلى الله عليه وسلم - آخر الأنبياء وخاتمهم، ومن ثم كان محمد بدوره أمة، وإذا كان هو كل الإيمان وكل الأنبياء فى دين واحد وذات واحدة، فلا شك أن المؤمنين به سيكونون بإيمانهم محمديين، أى سيكونون بدورهم أمة، لذلك جاءت الآيات تقول:

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير» (١٠٤ / آل عمران).

«كنتم خير أمة أخرجت للناس» (١١٠ / آل عمران).

«إن هذه أمتكم أمة واحدة» (٩٢ / الأنبياء).

وكان الشرط ليكونوا أمة، هو الاعتراف بمحمد رسولا خائفا، وبمن سلف من أنبيائهم وأسلاف الأمة وتاريخها، وبالله الواحد ربا جامعا لوحدهم في كيان اجتماعي عقدي واحد.

ومن البداية كان واضحا أن هذه الأمة الجديدة هي الأمة الجامعة لعرب، بدأوا منذ وهلة فقط قريبة جدا يشعرون بوحدة جنسهم وبقوميتهم، إزاء تفجر أطر القبيلة، وهو ما تمثل في موقفهم من تحرير اليمن، ومن انتصار قبائل الشمال على الفرس في ذي قار.

ومن هنا أضحي واضحا أن مصطلح أمة في العقيدة الجديدة يعنى كياناً اجتماعياً جديداً، شديد الصلة بمعنى يناقض البداوة والقبلية، ويتماهاى مع معنى المدنية والحضارة.

ومنعاً لأى التباس فى عروبة تلك الأمة، مع وجود العبيد والموالى الذين دخلوا الإسلام من أصول غير عربية، جاء حديث سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - يقول:

«أيها الناس: إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»^(١٠).

كان التوحيد الربوبى ناتجا لتطور ظروف المجتمع، لكنه أيضا كان مؤسسا للدولة الواحدة، وكان لابد أن يرافقه توحيد اثنى جنسى يلغى أسلاف القبائل الذين هم أرباب فى الوقت ذاته، لتحقيق الوحدة المرجوة، ومن ثم كان تأكيد النبى على ما سبق وأعلنه جده عبد المطلب بن هاشم، أن جميع قبائل العرب وإن تفرقت قبائلها وتشرذمت، فإنها إلى أب واحد تعود، هو إسماعيل بن إبراهيم أبو جميع الأنبياء، الذين هم بدورهم مسلمون.

وهكذا كان التوحيد الربوبى يتمثل فى الالتفاف حول لاء واحدة هى قول لا إله إلا الله، والقبول بالانصواء تحت سلطة نبوية قائدة واحدة تتمثل فى الشهادة لمحمد بأنه رسول الله، كأساس تنظيمى للحركة التاريخية نحو إقامة دولة مركزية للأمة الطالعة، وبحيث ينتقل العريان من الوضع القبلى إلى الوضع القومى.

ولتحقيق الهدف؛ كان لابد من خروج الفرد من منظومته القبلية إلى رحاب القومية الأرحب، مما يعنى انسلاخه الكامل فكريا وسلوكيا عن حالة التبدى والقبلية.

لكن تظهر الإشكالية الكبرى والمستعصية، حيث لم تشعر شراذم العرب القبلية بوحدة جنسها إلا بشكل ابتدائى كلون من العصبية غير الواضحة والضبابية، ناهيك عن انقطاع تلك القبائل عن

(١٠) بعلأ عن ابن نيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص ١٦٦، ١٦٩.

ماضيها وأحوال من سبقهم، وهو انقطاع تاريخي مع التاريخ لعوامل كثيرة معلومة، ليس هنا مجال عرضها، حتى أنهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، أو أن لهم أية علاقة بالحضارات السامية القديمة، ورغم أن البعض اليوم يقعد تلك الحضارات في مجلس التاريخ العربي، مع الإشارات إلى حضارات الجنوب اليمني، فإن هذا الاعتبار يقوم على الجغرافيا مع إسقاط الجانب اللغوي وخط الكتابة وغيره، وحتى ظهور الخط النبطي الذي تطور عنه الخط العربي بعد ذلك بقرون، فإن عرب الجزيرة أنفسهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، ولم يبدأ ذلك الشعور جلياً إلا مع دخول الرسمة وإفصاح المجتمع عن وجهه الطبقي، حيث بدت بوادره بفرح عم جزيرة العرب عندما انتصر حلف قبائل الشمال على جيوش فارس في وقعة ذي قار، وعندما تمكن ابن ذي يزن من تحرير بلاده من الأحباش.

وهكذا كان لا بد للأمة من تاريخ يتصل بها، ويتواصل معها، ويجد لها موطئ قدم راسخ في عمق الزمان الماضي، فأى أمة لا بد لها من عراقة تاريخية عميقة، وتاريخ يضرب بجذوره في الماضي البعيد المؤسس للتطور التالي المنشئ للأمم أصلاً.

ومن هنا كان الاتجاه نحو العماد التأسيسي العفدي لإلقائه في رحم التاريخ القديم، يربط النبي محمد بتاريخ النبوة منذ بداياتها المعروفة في الفصص الديني، ليصبح تاريخ الأمة الجديدة تاريخاً نبوياً، ومعرفياً سماوياً، فتتم أسلمة جميع الأنبياء السابقين، كما يتم تقديس لغة قريش تحديداً باعتبارها اللغة العربية الكاملة، ويتم إعادتها إلى الزمن السماوي القبل خلقي، فتصبح لغة الملائكة السماوي، ولغة آدم أبو البشر جميعاً في الجنة، ثم لغة جميع الأنبياء، ثم ستكون لغة أهل الجنة من بعد.

وعليه تم وضع الأنبياء في سياق تاريخي كان هدفه النهائي هو قيام دولة الإسلام المحمدية، وبحيث يكون النبي - صلى الله عليه وسلم - هو المحور والهدف الأول قبل آدم نفسه، ويظهر كل الأنبياء كخطوات تمهيدية نظورية تاريخية سابقة، كانت مهمتها التوطئة التاريخية لدولة النبي وأمة المسلمين، ويصبح جميع الأنبياء في بقاع مختلفة من عالم الشرق القديم، سواء من بني إسرائيل، أو من أنبياء عرب كصالح وهود في الشام واليمن، أو في العراق كما في حالة إبراهيم، أو في مصر كما في حالة موسى، يصبح كل هؤلاء بموروثهم النبوي، وجدلهم المعرفي والحضاري مع حضارات المنطقة، هم الامتداد التاريخي للأمة العربية الطالعة، وهو الأمر الذي سيلتقي تماماً مع التوجهات المحمدية والتوجيهات لأتباعه بغزو تلك البلاد، باعتبارها ميراثاً تاريخياً، تقوم شرعيته على فلسفة الإسلام التاريخية، وكما ورث محمد كل النبوات، فإن كل بلدانهم بالتبعية وبالضرورة هي ميراث أتباع محمد، الذين هم أتباع لكل الأنبياء في جميع الأمم.

ومن هنا نتالت آيات القرآن الكريم لتعزيز تلك (التاريخية) للأمة الطالعة، بما حوته من قصص الأنبياء، لتكون بمثابة إعادة اكتشاف للهوية التاريخية ولتشكيل ماضى الأمة.

ولأن الغرض (توحد) فى أمة (مُوحدة) فى عقيدتها، فقد أصبح كل الأنبياء السوالف موحدين، ومن ثم كان الهجوم التكفيرى على بعض الآراء والعقائد فى الديانات السابقة والتي دخلتها شبهة عدم التوحيد، كما فى بعض حالات أنبياء اليهودية وفى حالة يسوع المسيح. لتصبح القيم التي مثلوها هى القيم التي تتساقق وتتناغم وتتضافر مع دعوة النبي التوحيدية الموحدة لتوحيد قبائل العرب فى دولة مركزية واحدة.

ومن ثم تتالت الآيات القرآنية تؤكد «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء» (١٥٩/ الأنعام)، وهى الآيات التي تعنى أن تلك القبائل إنما كانت فى الأصل على الدين النبوى التوحيدي الذى أسسه سلسال الأنبياء السابقين، وأنهم انقسموا بعد ذلك قبائل وشيعا، مما يعنى أن الوحدة والتوحيد كانا الأصل، ومن ثم ينقلب منطق التطور على عقبيه لصالح التأسيس التاريخي للأمة، ومن ثم كان نداء الآيات «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا» (١٣/ الشورى)،

ومن أجل تحقيق وحدة الجماعة المسلمة التضامنية فى يثرب كان لابد من مركز تأسيسى يمثل المركز الحكومى الإدارى، وفى ذات الوقت يجب أن يكون مركزا مقدسا، ومن هنا أمر الرسول الأتباع عند دخوله يثرب بترك ناقته على حريتها قائلا: «اتركوها فإنها مأمورة»، لتبرك الناقة فيتقدس الموضع الذى بركت فيه ويبنى فيه المسجد الذى تقس فى حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»، بل وحرم يثرب جميعا لتعادل بحرمتها مدينة مكة.

وفى المسجد كان المسلمون يلتقون بزعيمهم ومنه يوجههم، وفيه يتم توطيد انتمائهم العام للأمة، بإبعادهم عن المجتمع القديم وعزلهم عنه، كما تأكد المعنى المدنى للدولة بإطلاق اسم المدينة على يثرب، مع هجوم عنيف على النزعة البدوية فى آيات القرآن الكريم، ومن نماذجها:

«الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله»

(٩٧/ التوبة).

«ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتريص بكم الدوائر»

(٩٨/ التوبة).

«وممن حولكم من الأعراب منافقون» (١٠١/ التوبة).

«قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان

فى قلوبكم» (١٤/ الحجرات).

ومن ثم أصبح التمدن مرادفا للإيمان، حيث المدينة تؤكد الشعور بالانتماء والانتساب والمواطنة وبالهيبنة الحضارية، لكن بينما كانت حاضرة مثل مكة قد تخلت عن الإغارات البدوية على القبائل الأخرى نهائيا، لظرفها الاقتصادي والمجتمعي، وتأكيد حرمة مدينتها وحرمها، فإن يثرب على العكس بدأت غاراتها العسكرية من الوهلة الأولى، للحصول على المقومات الاقتصادية لبناء الدولة، حيث قال النبي - صلى الله عليه وسلم - :

«لم تحل الغنائم لأحد قبلنا، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا» (١١).

ومن ثم تقدست أيضا تلك الغارات، وشرعت الغنيمة وأصبحت بدورها حلالا ومقدسا. أما قريش ومشركوها فقد كانوا يشكلون بوجودهم ضرورة لتحقيق الإسلام، حيث يبرز النقيضان ويتضحان، وكانت حربهم إزاء الليثرية عليهم، مع الظفر الذي تحقق ليثرب، مدعاة لأن يرى العرب فيها رعاية غيبية تقف إلى جوار المسلمين وتدعمهم، وهكذا أبرز ذلك التناقض النقيض المهزوم كنموذج منهار في طريقه إلى زوال.

أما أبو سفيان صخر بن حرب، فقد زلف لسانه بعد ذلك بزمان طويل، يحكي عن حروب النبي - صلى الله عليه وسلم - لقريش وحصارها اقتصاديا، فقال: «كنا قوما تجاراً وكنا...» الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى تهكت أموالنا» (١٢).

(١١) الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت، ص ٢٤٩.

(١٢) المقدسي: النداء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦، ج ٦، ص ٩٤.

الوسطية بين النقائص

«إن الدين عند الله الإسلام»

[١٩] آل عمران/ قرآن كريم

كان يوم بعث - وبعث موضع بالمدينة - كانت فيه وقعة عظيمة، قتل فيه خلق كثير من أشرف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل. وقد روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أمامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «كان يوم بعث يوما قدمه الله لرسوله، قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، وقد افترق ملاؤهم وقتل سرائهم»^(١٣).

هذا نص ابن كثير الواضح اللامح، الذي يعلن في إيجاز بليغ، بلاغا واضح المعاني، حول الظروف التي انعقدت فيها الاتصالات بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين أخواله من خزرج يثرب، ومن لحق بهم من بعض الأوس القليل، حيث يشرح ببساطة وضع عرب يثرب - من خزرج وأوس - المنهار والمتفسخ، بعد مقتلة يوم بعث بين القبيلتين، وقتل الرؤوس منهم والسادة، مما جعلهم فراغا من أصحاب (الكاريزما) الرئاسية والحنكة المشيخية، وهو ما رآه ابن كثير ترتيبا ربانيا قدمه الله هدية لرسوله، بقتل الرؤوس الكبرى من كلتا القبيلتين، مما هيأهم لقبول

(١٣) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٨، ج ٣، ص ١٤٦.

السيادة النبوية دون مشاكل كثيرة، ودون منافسين أقوياء.

وغنى عن البيان أن عاملاً آخر أساسياً، هياً لذلك الحلف ومهد له، هو المصاهرة الوثيقة التي سبق أن تمت بين الخزرج وبين بيت النبي الهاشمي، ناهيك عن كون موقف الخزرج - تحديداً، إضافة لقرباها الخثولة - كان رداً واضحاً على قريش وسادة البيت الأموي، إزاء وقفهم السابقة مع أوس يثرب ضد الخزرج، يومى معبس ومضرس، وهى الوقفة التي عمد إليها ملأ مكة لتفتيت يثرب وتمزيقها شيعاً، كى لا تشكل خطورة على تجارة مكة، لوقوعها على عصب طريق الإيلاف الشامى، ولإجهاض قوتها حتى لا تطالب بنصيب من الجعالات التي كان يدفعها ملأ مكة للقبائل القائمة على الطريق التجارى. بحيث أسفطت مكة يثرب من حساباتها تماماً، بعد تلك الوقائع الدامية بين بطونها. وتأسيساً على ذلك استشرى خزرج يثرب الوعد النبوى بوعى نافذ، لوحدة تلم الشمل، تقف بها يثرب كمنافس له شأنه أمام مكة وسادتها، وربما تكون عاصمة للدولة الكبرى الموعودة مع تداول الأيام، عندما يأتى الله بأمره.

ورغم أن كتب الأخبار الإسلامية والسير والتاريخ، وما تقدمه وسائل التربية الإعلامية والدينية، تجعل يثرب جميعاً تستقبل سيدها الجديد المهاجر بالترحاب، وتصيح بنشيد: «طلع البدر علينا» بعد أن امتلأت منهم الجوانح بالإيمان، فمحنوا النبي والمهاجرين بيوتهم ونساءهم وعقولهم وأرزاقهم، فإن العين الحصيفة المدققة، والقراءة المحايدة المتأنية، لا تجد ذلك الزعم أبداً، حيث نجد وفد يثرب الذى التقى بالنبي فى عكاظ، كان من بيت عبد الأشهل الخزرجى وحده وهم أخوال النبي، وأن اللقاء التالى بعد عام كان يضم اثنى عشر، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وكان لقاء العقبة الحاسم قبل الهجرة، يضم ثلاثة وسبعين، منهم أحد عشر أوسياً فقط، وستون خزرجياً، وهو ما يشير إلى أن هؤلاء الأوس كانوا من عقلاء قومهم فأدركوا قيمة الدعوة وما سيتحقق بها، أو أنهم أهل سلام ومصالح ترتبط بذلك السلام، جعلهم يقبلون ذلك العقد مع صاحب الدعوة ويحضرونه. وفى مستوى آخر - يأخذ بسوء الظن - يمكن احتساب أوس العقد دسيمة أوسية على ذلك الاجتماع التاريخى، لتسقط أخباره، وهو أمر وارد فى ذلك الصراع، وتكشف عنه بعد ذلك الأعداد الكبيرة للأوس المنافقين بعد الهجرة ولزمن طويل، ناهيك عن كون وجود الجواسيس كان أمراً مألوفاً، وكان بداخل المهاجرين أنفسهم جواسيس لملأ مكة، وهم من قال الوحي بشأنهم: «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون» (٢٧ / الأنفال).

ثم هناك مستوى ثالث فى قراءة موقف الأوس، يتمثل فى مباحدة أبى عامر بن عمرو بن صيفى الأوسى مع خمسين من أتباعه ليثرب بعد الهجرة، كارها للنبي والمهاجرين، ومشاركته بعد ذلك فى وقعة أحد ضد النبي. إلا أن الواضح الجلى هو أن النبي قد دخل يثرب فى حمى

أخواله الخزرج أساساً، مع تعصيد من بعض عقلاء الأوس، وهو ما يفصح عن قدر شديد من المبالغة في روايات الإخباريين عن إيمان عرب يثرب جميعاً قبل الهجرة مباشرة، ويدل على ما حدث في وقعة بدر، حيث لم يتمكن النبي من جمع أكثر من ثلثمائة رجل معه في الوقعة، مهاجرين وخزرجيين وأوسيين، وهو أمر ذو دلالة إن قارناه بما حدث بعد استتباب الأمر في المدينة للنبي، وقدرته على حشد قوة تماثل عشرة أضعاف ما جمعه في بدر، وهو ما يشير إلى انضمام جموع أخرى متأخرة إلى حلف النبي اليثربي.

لكن ذلك لا يعني سوى أن يثرب قد استقبلت الرسول، متهيأة لذلك بحكم ظروفها وتكوينها، التي أتاحت لها دون أي موقع آخر بالجزيرة، ففيها كان أخوال الرسول وحلفاء البيت الهاشمي، وفيها كان اليهود وحكاياتهم عن أنبيائهم مع كتابهم المقدس، وهو ما كان عاملاً جوهرياً في وضع التاريخ الديني موضع احترام من عرب يثرب، إضافة إلى النبوءة التوراتية التي كانت تتواتر هناك عن مقدم نبي آخر الزمان، كما كان التوحيد اليهودي مدعاة لاختلال علاقة عرب يثرب بالوثنية، وهو ما هبأهم لقبول فكرة التوحيد عندما جاءت عربية، وقد تهيات يثرب بعد ذلك لأخذ دورها الريادي كعاصمة للدولة المقبلة، في تحولها التدريجي للتوحيد إيماناً، بل وطبقاً، بذوبانها في مستوى مادي متقارب، كنتاج للتوزيع العادل للغنائم، وتحولت الجماعة الإسلامية إلى جيش متكامل ووحدة عسكرية، مقاتلة، بدأت تدهم بدورياتها طريق الإيلاف الشامي، لتضرب حول مكة حصارها الاقتصادي.

فلم ينسلخ من الأيام سوى أشهر سبعة بعد الهجرة إلى يثرب، حتى خرجت دوريات المسلمين تقطع على قريش طريقها إلى الشام، وكان أولها سرية حمزة بن عبد المطلب، وبعدها بشهر سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب، وبعدها بأيام سرية سعد بن أبي وقاص. ورغم أن كثيراً من تلك السرايا الأولى لم تحقق غايتها بالاستيلاء على قوافل قريش، فإنها وضعت تجارة قريش على حافة الخطر، وأشعرت الملأ أي أمر ينتظرهم من محمد، خاصة بعدما قام النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه يغزو الطريق بهدف آخر، هو إرهاب حلفاء قريش على طريق الإيلاف، لتفكيك الإيلاف بين تلك القبائل وبين قريش، وبعد النجاح الذي لاقته تلك الغزوات حيث تمكن النبي من سخر إيلاف بني مدلج، وأخذ عليهم عهود المواعدة، كما تمكن من عقد عقود مكتوبة مع بني ضمرة بن بكر من كنانة.

وجاء أخطر إنذار لقريش، عندما تمكنت سرية عبد الله بن جحش، من الاستيلاء على قافلة لقريش، ضربت أثناءها بالتحريم المكي للأشهر الحرم عرض الحائط، فقتلت، وسلبت، وأسرت، لتعلن الفوة الجديدة في يثرب عن رفضها لقواعد قريش الدينية، واستخفافها بتلك القواعد،

بخاصة مع تلازم ذلك باتخاذ النبي للقدس قبلة له وللمسلمين، وصيامه يوم الغفران اليهودي، ذلك الاستخفاف الذي استهجنته قريش تعلن في العرب أن محمداً قد انتهك حرمة الأشهر الحرم، لكن ليرد النبي عليهم وحياً يقول: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير» (٢١٧/البقرة).

وبينما بنقطع فمح يثرب عن مكة، وتخرج سرايا يثرب إلى ميناء الجار على البحر الأحمر لسمع سحنات الفمح المصري من الوصول إلى مكة، ودوريات المسلمين تنقض على طريق الإيلاف كل لحظة، كان صفوان بن أمية يردد لسان حال قريش وهي تقول:

«إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوا محمداً، ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا على النجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمس في الشتاء»^(١٤).

ولعل أهم وقعة كبرى حولت بالفعل مسار التاريخ بعدها، كان سببها فافلة كبرى لقريش بقيادة صاحب اللواء أبي سفيان بن حرب، وهي وقعة بدر الكبرى، حين تحول اتفاق الأنصار مع النبي في العفة الثانية إلى غايته المضمرة، من ميثاق دفاعي إلى حلف هجومي محارب، تحولت معه عناصر الجماعة الإسلامية كلها - مهاجرون وأنصار - إلى دولة محاربة هجومية، دولة عسكر ومغانم، كالقبيلة تماماً، وبذات منطقها، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة، ممثلة شخصياً في رسول الله ورمزياً في ذات الله، وإلى المصالح المادية المباشرة التي جمعت بالفعل أعضاء الدولة، وكان بدء الغزوات والمغانم نقطة التحول الكبرى التي لعبت دوراً عظيماً في جذب الأتباع من مستضعفي القبائل ومحاربيهم، بعد أن ظل النبي - صلى الله عليه وسلم - يدعو في مكة ثلاثة عشر عاماً دون إجابة، ولم يتبعه خلال كل تلك السنوات سوى حوالي المائة نفر، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة إلى جنة الخلد، ولكن عندما تم الإعلان عن تحلة الغنيمة من أموال الآخرين المخالفين للدعوة ودولتها، أصبح حل مشكلة المعدمين حقيقة ملموسة، ومكاسب عينية تدعوهم إلى الانخراط مع العصبية الإسلامية، وبعد فترة من الزمن ستصبح تلك المكاسب كبيرة إلى الحد الذي سيدفع رجالات قريش المميزين إلى الانخراط في جيش المسلمين، وهو ما يفصح عنه إسلام (عمرو بن العاص) الذي ذهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يؤكد أن هجرته ليست للمال بل لله ورسوله، لكن ليجيبه النبي -

(١٤) أفكار السعاف: نحو آفاق أوسع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ١٤٥٨.

صلى الله عليه وسلم - بكل صراحة ووضوح: «نعمنا بالمال الصالح للرجل الصالح». ثم أرسله قائداً عسكرياً غازياً وهو يقول له: «إنى أريد أن أبعثك وجهاً يسلمك الله فيه ويغنمك، وأزغب لك زغبة من المال»، ومن ثم كان إعلان النبى - صلى الله عليه وسلم - تميز عمرو بقلوبه: «أسلم الناس وآمن عمرو»^(١٥).

ومع النصر البدرى الساحق، أصبح النبى مرموق الود من القبائل، خاصة المتاخمة ليثرب، مما وسع نطاق الدولة الوليدة وحدودها، بحدود القبائل المودعة لها على كافة الطرق، دون أن تعلن هذه القبائل ولاها الدينى لدولة النبى بإشهارها الإسلام، كان الغرض عسكرياً وسياسياً فى هذه المرحلة من مراحل بناء الدولة، بهدف مرحلى تكتيكى على الطريق الاستراتيجى الطويل، يهدف إلى إضعاف جبهة حكومة الملأ المكية، وتفكيك إيلافها مع القبائل، وإسقاط هيبتها أمام العربان، وقد لحق نتيجة ذلك ضرر جسيم بالعمود الخرسانى لمنظومة مكة المتمثل فى ثروتها التجارية، وهو ما حدا بالقبائل إلى مراجعة موقفها من قريش، إزاء القوة اليتيرية الطالعة، فى الوقت الذى أخذت فيه أحوال المسلمين الاقتصادية فى التحسن المطرد، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية، سلاحاً، ومالاً، ومنحتهم مزيداً من الثقة النفسية فى أنفسهم وفى مشروعاتهم وفى قائدهم، فامتأوا - بتلك القوة المعنوية - جرأة، وأخذوا بتأديب المخالفين فى يثرب، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، بل وقتل أى شخص يتجرأ على معارضة الدولة.

هذا - بالطبع - مع نتائج أخطر على مستوى الشكل الاجتماعى للدولة، كنتائج طبيعى لتعزيز سلطة النبى الحاكمة، وهى النتائج التى أخذت تتضح فى تراجع الدولة الوليدة عن الأممية المطلقة والأخوة المطلقة التى كادت فى بدئها أن تكون مشاعاً، وذلك بعقد صحيفة المعاقل فى مرحلة تالية، التى كانت إعلاناً مكتوباً سافراً عن سلطة النبى كسيد مطلق ليثرب جميعاً، ومن ثم بدأت مع صحيفة المعاقل مرحلة جديدة بتكتيك تمثل فى تراجع دقيق ومحسوب عن الأممية المطلقة، لتأخذ الدولة سمت الوسطى بين الأممية، وبين الدعوة إلى صلة الأرحام والمحافظة على العلاقات العشائرية.

وقد بدأت تلك السياسة الوسطية تتضح بعد غزوة بدر مباشرة، حيث لاحظنا - كما شرحنا فى الجزء الأول من هذا العمل - بداية توازن الدولة بين النقائص، فكانت دعوتها لتوحد أممى تحت راية واحدة وفى ظل سيادة دولة موحدة وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة، وضمت فى شكلها الاقتصادى تفارياً مادياً زاد من ذلك التوحد، لكنها إبان ذلك كانت تضم أيضاً الرقيق والعبيد مما حملها من الداخل للون طبقي، ومع التراجع عن التنديد بالثروة والأثرياء، وخفوت صوت

(١٥) السهيلي: الروض الأنف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ج ٣، ص ١٩٣.

المستضعفين في الرحى والأحاديث، بدأت الدولة تفسح بداخلها فجوات المجتمع الطبقي، ثم فجوات المجتمع القبلي معا، حيث كانت الدعوة للرحم والعشيرة مدعاة لوضوح شكل الدولة في أضمومات قبلية محزمة وموثقة بوثاق الدولة الواحدة. أما إذا تنبعنا أنساب العشرة المبشرين بالجنة، فسنجدهم تمثيلا قبليا وسياديا لأهم البطون القرشية، فهذا أبو بكر وطلحة يمثلان تيم، وهذا علي يمثل هاشما، وهذا عثمان يمثل أمية، وهذا عمر وسعيد بن زيد يمثلان عدى، وهذا عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص يمثلان زهرة، وهذا الزبير يمثل أسدا، وهذا أبو عبيدة يمثل فهر بن مالك، وهو التمثيل الذي أصبح يوازي في ينرب، حكومة الملأ القرشية في مكة. (وقد لاحظ ذلك بذكاء الأستاذ خليل عبدالكريم).

وتأسيسا على كل ذلك، فإن غزوة بدر قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظري والعملى، وحددت مواقف كثيرة كان الإفصاح عنها مؤجلا حتى يأتي الله بأمره، لكن أهم ما حققته هو وضعها بداية النهاية لسيطرة الملأ القرشى، وسيادة حكومته البدائية شبه الجمهورية، بالقضاء على ساداتها المترفين، أولئك المنافس الحقيقي لفكرة الدولة الواحدة، وهو ما سيتم تنبيته بعد زمن بالاعتماد على التوازن بين النقائص، في مملكة وراثية كبرى ستمسك بأعنتها قبيلة النبى: قريش، وهى العودة التى ما كانت لتتم لولا العودة إلى صلات الرحم والعشيرة، التى وضحت فى تحرك رحم النبى لأهله الهاشميين فى وقعة بدر، وأمره لرجاله بعدم قتل أى من بنى هاشم، ليتوازن ذلك مع نقيضه من بعد، فيصب الأمر كله بيد الطبقة التى سيتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه، لتقف على رأسها الطبقي منظومة قريش القبلية، ليظل حال التاريخ العربى والإسلامى بعد ذلك وحتى اليوم، إعمالا للمقدس واتباعا له، يظل واقفا على حافة الوضع الاجتماعى الاقتصادى المعروف بالإقطاع التجارى، ويبقى المأثور مصرا على أن الخلافة من قريش، وليس من الأنصار.

ويتضح ذلك جليا عندما نقرأ المراحل اللاحقة فى تطور أحوال الأمة الطالعة، بعد أن استقام أمرها، حيث بدأت تفتح صدرها تماما للتجار، خاصة بعد فتح مكة، وحيث احتلت طبقتهم فى الإسلام مكانا، كان مكانهم الطبيعى فى الفرز التطورى، ولا ننسى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان هو من يحاول دوما جذب تجار مكة وأثريائها لدعوته، وبعد هذه النقلات سنلاحظ دون عناء كيف خففت السور اللاحقة والمتأخرة - التى تناغمت بصدقها مع متغيرات الواقع - من حدتها إزاء الأثرياء، وهذا تنديدها بهم، مع خفوت متساق فى الاهتمام بقضايا المستضعفين، بعد أن كان هؤلاء المستضعفون المقاتلون مادة الحركة ووقود حروبها، وتحول من بقى منهم حيا إلى طبقة كبار الملاك، وهو ما يكفى أن نذكر له مثلا واحدا فقط، يتعلق بأكبر الصحابة زهدا وتقشفا وورعا، وكان أرق نظرائه حالا وأقلهم مالا.

عن على رضى الله عنه .. «لقد رأيتنى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنى لأربط الحجر على بطنى من الجوع، وإن صدقتى اليوم لتبلغ أربعين ألف دينار»^(١٦).

ثم يمكننا أن نلاحظ المال نفسه الذى كان محل هجوم شرس وضار، وأهل للمسلمين مصادرتة بالغزو، وهو يتحول ليصبح بالإمكان بقاءه وتناميهِ، بعد تطهيره بالزكاة والصدقات، وبييت كسبا حلالا، وتسعة أعشار الرزق فى التجارة، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا. لقد كانت خطوات التاريخ فى طريقها إلى إنضاج الطبقة التجارية - وليس الغاؤها - فى سبيل كيان سيادى يسد الفراغ السياسى تحت لواء عقيدة عقدتها حتمية السنن الكونية.

وجولة سريعة للعين فى كتبنا التاريخية ستلاحظ دون عناء يذكر كيف أضحت التجارة فى أحاديث النبى هى أطيّب مكاسب المؤمنين^(١٧)، وه أن التساجر الأمين مع الكرام البسرة يوم القيامة^(١٨)، ولما كانت الأمانة أساس التجارة القرشية، فقد طالهم الوعد جميعا، ثم لا بد أن نلاحظ أنه لم تفرض ضريبة واضحة خاصة بالتجارة، أما أبو يوسف فيورد لنا حادثة لها فى سياقنا هذا دلالاتها الواضحة، حيث يقول:

أن السعر غلا فى زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال الناس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن السعر قد غلا، فوظف وظيفة نقوم عليها، فقال: إن الرخص والغلاء بيد الله، وليس لنا أن نجوز أمر الله وقضائه^(١٩).

أما العبيد فقد غامت قضيتهم تماما، بل ولم يعطهم النبى من أموال الفىء باعتبارهم فى كفالة غيرهم من الأحرار^(٢٠)، ثم نجد النبى بعد ذلك يهدى بنفسه أعدادا من العبيد لآخرين، كما فى أمثلة عديدة، فقد أهدى العبيد لأخته من الرضاة (الشيماة) ولغيرها، ويتقبّل الهدايا عبيدا أيضا. وهو ما سنجدّه فى مواضعه من هذا العمل.

(١٦) الحلبى: سيرة الأمين المأمون إسان العيون، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨، مح ٢، ص ٤٧٣. ويشرح الحلبى أن تلك كانت صدقة العام الواحد فقط.

(١٧) الشيبانى: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢، ج ٣، ص ٢٠١٢.

(١٨) الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد سماحة، تحقيق محمود عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ط ١، ١٩٣٨، ص ٣٧.

(١٩) أبو يوسف: كتاب الحراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٤٩.

(٢٠) ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٣ هـ، ص ٧٣.

ومن ثم خرجت إلى تاريخ العرب تلك الحالة الوسطية التي تتوازن بين النقائص، على كل المستويات: بين القبلية وبين الطبقيّة، بين العشائرية وبين الأممية، بين الوحدة الشاملة وبين تضمن تلك الوحدة للقبائل في شكل حزم وأضمومات، وبين إلغاء الشفاعة واستبدالهم بشفيّع واحد هو نبي الإسلام، وبين الوجدانية المطلقة للإله التي لا تقبل شراكة، ومن ثم كانت التراجعات التي اعترفت بمقدسات القرشيين والتي كانت تعد وثنيات، كالاّعتراف بالكعبة، ثم في فتح مكة يتم تقدّيس الكعبة ذاتها وحجرها الأسود، وشعائر الوثنيين القديمة كالطواف والسعي، وتكريس المقامات والمواضع كالصفا والمروة وعرفات. لقد باتت الدولة بحاجة إلى معبد مؤسّسى له تاريخه، بعد الرجوع عن القدس (أورشليم)، معبد يجتمع عنده جميع العرّيان، لكنه معبد قريش قبيلة الرسول في المقام الأول، وسدنته الهاشميون آل البيت.

كذلك تم الوقوف وسطيا بين نقائص أخرى، وبين البدء بالدعوة إلى عتق الرقيق وجعلهم أنسابا، وبين ما فرضته حروب الدولة من ضرورة استمرار ذلك النظام العبودي، متمثلا في سبّايا تأتي من الحروب وانتصارات الدولة، ثم بين الدعوة إلى عقيدة جديدة تؤسّم جميع الناس تحت رايّتها، وبين ضرورات فرضتها الظروف، حيث تم ترك كثير من القبائل على عقائدها فترة من الزمن، لكن مع موادعتها وعقد المحالفات بينها وبين دولة يثرب النبوية، إزاء حرب تلك الدولة مع مكة، مع ما فرضته ظروف أخرى متأخرة، في غزوات النبي على أصحاب الأراضي الخصبة، وقيمة تلك الأراضي التي كان يمكن أن تبور تماما، مما أدى إلى قرارات باتفاقيات مع أصحابها، تقرّهم على دينهم وعلى أرضهم، على أن يدفعوا شطر المحصول لحكومة يثرب، وما تطور بعد ذلك في نظام الجزية.

ثم تطور آخر على ذات الخط بين النقائص، عندما صب الأمر كله بيد دولة يثرب النبوية، وامتلات خزائنها بالخيرات، ليأتي نداء جديد بأن من يعلن إسلامه معترفا بوجدانية الله وسيادة رسوله، يضمن سلامة حياته وماله، على أن يدفع الضرائب للدولة في نظامي الزكاة والصدقة، وهي مجموعة الخطوات التي اقتربت مرة وتباعدت مرة من القرار بأن الدين عند الله هو الإسلام. وهي مجموعة التوازنات الوسطية التي تأرجحت مع المستجدات والتطورات على أرض الواقع، وتركت بصماتها بين نقائص خلقت فجوات دائمة في تاريخ الإمبراطورية الإسلامية، كانت تختل معها أثقال الميزان فتتأرجح كفتاه إزاء الموقف الوسطي على الخط الفاصل بين توازنات النقائص، مما أعطى الفرصة دوما لأقدار السياسة، وبحرفية وسطاء الساسة المحترفين من رجال الدين، لتبرير مواقف تجد لها بين كفتي الميزان أثقالا مناسبة دوما.

صحيفة المعاقل

«للهود دينهم وللمسلمين دينهم»

[نص بصحيفة المعاقل]

بين بدر وأحد لم تتوقف سرايا المسلمين عن مداومة طريق الإيلاف، وشن حملاتها التأديبية على القبائل، مع ظاهرة جديدة تمثلت في شرع نظام الاغتيال، باغتيال رؤوس القبائل وأشراف الناس وسرايتهم وحكمائهم، وبدأ تطبيق ذلك النظام باغتيال كعب بن الأشرف الذي رثى قتلى بدر شعراً. وتبعه قطع عدد من الرؤوس خاصة بعد وقعة أحد.

وعند العودة الطاقرة من بدر الكبرى، كان الوحي يسترسل طالبا من المسلمين اليقظة والاستعداد لقتال أعدائهم، وذلك في النص «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم» (٦٠ / الأنفال)، فأما عدو الله وعدو المسلمين فمعروف، وهم ملأ مكة، أما من هم أولئك الآخرون غير الملأ المكي الذين يعلمهم الله ولا يعلمهم سواد المسلمين؟ إنه ما أوضحته الأحداث التالية بنداء النبي - صلى الله عليه وسلم - لرجاله: «من ظفرت به من رجال يهود فاقتلوه»، وهو ما تم تنفيذه بالفعل في عدة رؤوس يهودية، وهو المنحى الذي جاءت مفاصله في آيات تنسخ حرية الاعتقاد، لتنتهى العمل بآيات من قبيل «لكم دينكم ولى دين» (٦ / الكافرون)، وتلغى الصفح الجميل والصبر الأجل، لتؤكد معنى جديداً هو «إن الدين عند الله الإسلام» (١٩ / آل عمران).

وهى السياسة التى ابتغت انصواء اليهود الكامل، السياسى والعقدى، تحت لواء الدولة الجديدة وسيادة مؤسسها، أو استئصال شأفتهم من يثرب. وهو الأمر الذى كان سببه الوضع الخاص جداً باليهود، كأصحاب كتاب سماوى ودستور عقدى وأيديولوجيا تاريخية موتفة، وهو ما جعلهم المنكر الحضارى الحى لنبوته النبى العربى، مما كان يشكل خطراً دائماً وحقيقياً على الدولة الوليدة وأيديولوجيتها العربية، وهو ما صب فى إعلان واضح يسفر عن الهدف، فيما جاء مروياً عن الزهرى عن عروة:

نزل جبريل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذه الآية: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين» (٥٨ / الأنفال)، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أنا أخاف من بنى قينقاع، فسار إليهم ولواؤه بيد حمزة» (٢١).

ومن ثم انجلت غزوة قينقاع عن هجرتهم من يثرب كأول قبائل يهود يتم إجلاؤها عن المدينة، مع استيلاء المسلمين على كراعمهم وأسلحتهم وأرضهم. ولكن لأن الرياح لا تأتى عادة بما تشتهى السفن، فقد أجمعت قريش أمرها على قتل محمد، بعد أن طال حصاره لها حتى كاد يقضى عليها، وذلك فى الوقعة المعروفة بوقعة أحد، التى انهزم فيها المسلمون هزيمة مريرة، أدت باليهقى إلى تصوير حال يثرب بعد الهزيمة بقول واضح يقول: «... وفارت المدينة بالنفاق فور المرحل» (٢٢).

وترنحت الدولة (الطالعة)، وكان لابد من اتخاذ عمل سريع وحاسم ودعوب لا يكل ولا يهدأ، لإصلاح ما أفسدته أحد، وذلك بضرب كل من سولت له نفسه الطمع فى النيل من سلطان الدولة، ولما لم يكن ممكناً الخروج فى ذلك الظرف إلى قريش، والجروح لم تنزل طازجة، ومعنويات المسلمين فى حضيضها، فقد اتجه السيف الإسلامى إلى اجتثاث الرؤوس التى أخذت ترتفع وتتناول على السلطان المحمدى فى يثرب أو خارجها، ومن ثم تدرجت رؤوس عدة، منها رأس (سلام بن أبى الحقيق) المعروف بأبى رافع، و(أبى عفاك عمرو بن عوف)، و(عصماء بنت مروان عقيلة ابن خطمة)، وخالد بن سفيان سيد هذيل، وفاطمة بنت ربيعة زعيمة فزارة ومحل شرفها وفخرها، ليكون هذا المسلسل من العنف والاعتقالات والتصفية الجسدية، إعلاناً عن أن السيف المحمدى وإن كسرت منه الذوابة فى أحد، فإنه مازال قوياً مقتدراً بل وعنيفاً، إعلاناً عن

(٢١) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغارى والشمال والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ج ١، ص ٣٥٣.
(٢٢) البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق عبدالمعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ج ٣، ص ٢١٦.

إصرار لا يتزحزح على استدامة الدولة والحفاظ على مستقبلها، ولو مع التضحية بأرواح كثيرة .
بهزيمة أحد كان لابد من وقفة متأنية، تؤجل - مؤقتاً - بعض القرارات، حتى يأتي الله بأمره،
ويستعيد المسلمون - إيان ذلك التأجيل - قوتهم وتعافيتهم المعنوية، كذلك دفعت الهزيمة في أحد
سيد يثرب ليفصح لرؤوس قريش الصلبة عن الأغراض البعيدة للدعوة، كي لا نتكرر مأساة أحد
بهذا العنف، فهذا (أبو قتادة الأنصاري) تهزه مناظر أهله مذبحين في أحد، ومشهد الحمزة
مبقوراً، فيشير بالتمثيل بجثث قتلى قريش في أحد، لكن ليرد عليه سيد الخلق - صلى الله عليه
وسلم - مفصلاً برسالة تقول:

يا أبا قتادة:

«إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم أكبه الله تعالى إلى فيه، وعسى إن
طالت بك مدة، أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، ولولا أن
تبطر قريش، لأخبرتها بما لها عند الله» (٢٣).

ومن هنا نعود إلى ابن سعد نسمة وهو يقول في طبقاته الكبرى: «إن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - لما هاجر إلى المدينة، صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يحب أن
يُصرف إلى الكعبة .. فنزلت عليه: قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها،
فوجهه إلى الكعبة .. وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى إلى بيت المقدس .. ونزل فرض شهر
رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، في شعبان، على رأس ثمانية عشر شهراً من
مهاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذه السنة
بزكاة الفطر» (٢٤).

وهو ذات ما أكدته ابن الأثير في سرده لأحداث العام الثاني للهجرة، ولحظه ابن كثير
الدمشقي، وهو يسرد أحداث ينسبها للعام الثاني للهجرة (٢٥)، في قوله:

وفيها - أى عام ٢ هـ - حولت القبلة .. وفيها فرض صيام رمضان ..
وفيها فرضت زكاة النصب وزكاة الفطر، وفيها خضع المشركون من أهل
يثرب واليهود .. صانعوا المسلمين وأظهر الإسلام طائفة كثيرة من
المشركين واليهود، وهم في الباطن منافقون .. قال ابن جرير: وفيها كتب

(٢٣) الحلبى. السيرة .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٥.

(٢٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د ت، ج ٢، ص ٨٠، ٣.

(٢٥) ابن الأثير: التامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، مج ٢، ص ١١٦، ١١٥.

الرسول - صلى الله عليه وسلم - صحيفة المعاقل، وكانت معلقة بسيفه^(٢٦).

إن حديث ابن كثير هنا يحسم أموراً كثيرة مختلف عليها بين كتاب السير والأخبار، فهناك من يشير إلى أن صحيفة المعاقل قد كتبت بين أهل يثرب جميعاً وبين المسلمين، وأنها كتبت بعد الهجرة مباشرة، بينما يذهب آخرون إلى توقيتها بنهاية العام الثاني للهجرة. وأهمية حديث المعاقل ترجع لارتباطه بأحداث أهم سببته ونتجت عنه، وقد ذهب ابن كثير في مبتدأ فصله مع الكثرة الفائلة بكتابة المعاقل مبكراً وقت الهجرة، بحيث تبدو يثرب جميعاً قد عمها الإيمان، وبحيث يظهر النبي - صلى الله عليه وسلم - سيداً يملك كل مقومات السيادة من الوهلة الأولى، فخص لسيادته الجميع بما فيهم يهود يثرب، فكتبوا معه معاهدة تعاقلية، يردون فيها كل أمر إليه وحده، وقد ذهبنا في الجزء الأول من هذه الدراسة ذات المذهب، حتى نبهنا إلى ضرورة إعادة النظر في تزمين صحيفة المعاقل، الدكنور عبد الهادي عبد الرحمن^(٢٧)، وكانت إعادة النظر مدعاة لنتيجة مفادها إن القول بعقد المعاقل عند الهجرة مباشرة، أمر يخالف معطيات الواقع، وشروط الفهم السليم، وكان للرجل في ذلك فضل غير منكور.

الواقع يقول بمهاجرة النبي ضعيفاً متخفياً هارباً من مدينته وأهله، إلى حمى أخواله في يثرب، ولاجئاً مع أتباعه إلى مدينة أخرى غريب عليها، وهو ما يحيط الصورة - التي رسمتها كتب الأخبار والسير لذلك الاستقبال الهائل والطاعة العمياء والكاملة من اليثارية لسيدهم المكي - بكثير من الشك وعدم القبول، حيث تناقض تلك الصورة الإخبارية بشدة نبوء الصحيفة التعاقلية، التي وضعت أمر يثرب جميعاً بيد النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذات الوقت الذي تؤكد فيه ذات الكتب أن غالب أهل يثرب كانوا إما يهوداً أو وثنيين، وإن من دخل منهم في حلف الدعوة كان في الغالب من المنافقين أو الدسائس على المسلمين، ومن هنا رجع ابن كثير عما قال في البداية ليؤخر زمن صحيفة المعاقل إلى السنة الثانية للهجرة، بحيث تبدو الأحداث منطقية بشكل أكثر، وبحيث نبذ النتائج متفقة مع مقدماتها من أحداث، فاختار زمن تحول فيه المسلمون إلى قوة قادرة على فرض هيمنتها.

وللنحديد أو محاولة التدقيق في الزمن الذي كتبت فيه المعاقل، نجد أن غزوة قينفاع لم يرد فيها - في أي رواية إخبارية - أية إشارة لتعاقد المسلمين مع اليهود، كما لم نسمع بمنابذة يهود

(٢٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٧.

(٢٧) عبد الهادي عبد الرحمن: جذور الفقه الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨، وقد ذهب الباحث المتميز إلى توقيت المعاقل بعد غزوة بدر مباشرة

قينقاع للنبي بنقض العهود، كما حدث في وقائع أخرى نالية مع قبائل يهودية أخرى، وهو ما يشير إلى أنه حتى غزوة قينقاع لم تكن تلك الصحيفة قد كتبت بعد، ومن هنا نظن أن تلك الصحيفة قد كتبت ضمن مجموعة الإجراءات الحاسمة مع التراجعات المحسوبة، التي تمت بعد هزيمة المسلمين في أحد.

ومعلوم أن هزيمة أحد قد هزت معنويات المسلمين بعنف، ودفعت المناوئين للتطاول عليهم، لكنها لم تقض على القوة العسكرية الإسلامية التي تنامت وتضخمت منذ بدر الكبرى، وكان مقتل ذلك العدد من المسلمين في أحد غير ذي تأثير حقيقي، وكان الأمر بعدها أمر معنويات تحتاج إلى ترتيب وإصلاح سريعين، ومن ثم نجد الحكاية الإخبارية تأتيها ببعض الروايات التي تؤكد أن حملة النبي على القبيلة الثانية النضير، جاءت بعد وقعة (بئر معونة)^(٢٨)، ونحن نعلم أن بئر معونة قد وقعت بعد أحد بزمان، وبعد وقعة الرجيع التي وقتها الواقدي في صفر سنة أربع للهجرة^(٢٩)، ونعلم أيضاً أن بنى النضير قد نابذوا النبي بنقض العهود والمواثيق في تلك الغزوة^(٣٠)، مما يشير إلى أن صحيفة المعاقل كانت قد عقدت قبل غزوة النضير، وفي الزمن الواقع بين غزوة أحد وبين غزوة النضير، وهو ما يمكن الكشف عنه في قراءة البيهقي:

اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -:
اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى
نلتقى بمكان المنصف، فيسمعوا منك، فإن صدقوا وآمنوا بك، آمنا بك، فلما
كان الغد، غدا عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالكثائب فحصرهم
فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن
يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا على بنى قريظة بالكثائب وترك
بنى النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم^(٣١).

ويفهم من الحديث هنا أن يهوداً أرادت اختبار نبوة النبي بالحوار المعرفي والفقه الديني، لكن النبي رأى أن يتعامل معهم بمنطق آخر فجرد عليهم كتائبه العسكرية، وقاتل النضير حتى نزلت على عهد مكتوب معه، ثم أن قريظة رضيت بالعهد دون قتال، ولا نعلم عهداً تمت سوى صحيفة المعاقل، وهو الأمر الذي يعضد ما ذهبنا إليه في توقيع المعاقل إبان محنة تطاول الرؤوس بعد هزيمة أحد، وما يبدو لنا أن المعاقل قد تمت ضمن سلسلة الإجراءات السريعة التي

(٢٨) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.

(٢٩) نفسه: ج ٤، ص ٦٤.

(٣٠) نفسه: ج ٤، ص ٧٧.

(٣١) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٩.

حدثت لعلاج آثار أحد، لرفع روح المسلمين المعنوية، بإخضاع قبائل المدينة جميعاً للسلطان النبوي، وتأمين الجبهة الداخلية، في نفس الوقت الذي قدمت فيه دولة الإسلام تنازلاً تراجعياً وضح في النص: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»^(٣٢). وإذا كان الإخباريون يصرون على ربط صحيفة المعازل زمنياً بمجموعة أخرى من الإجراءات تمت في ذات الزمن، مثل تحويل القبلة وفرض الزكاة والصوم العربي.. إلخ، فمن المحتمل أن تكون تلك الإجراءات بدورها قد تمت ضمن مجموعة التراجعات التي أفرزتها أحد.

لقد كانت الحسابات التي سبغت الهجرة، واستمرت حتى غزوة بدر الكبرى، تعمل حساباً لقوة اليهود بالمدينة، مما جعل النبي يحاول استمالة اليهود والتقرب منهم لتحبيدهم على الأقل، ففرض على أتباعه صوم يوم الغفران اليهودي (يوم كيبور/ عيد الفصح)، وهو اليوم الأهم والأعظم في تاريخ اليهود، يوم خروجهم من مصر عبر سيناء لاحتلال فلسطين، بل واتجه النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - مع أتباعه وجهة اليهود في الصلاة، نحو أورشليم القدس، وقد سبق ذلك ورافقه آيات تمجد أنبياء بني إسرائيل، الذين هم أسلاف اليهود الإسرائيليين وأجدادهم، وتمجد التوراة ككتاب سماوي صادق «إننا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور» (٤٤ / المائدة) و«وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله» (٤٣ / المائدة)، بل وتمجد اليهود ذاتهم بتأكيد أن الله قد فضلهم على العالمين.

ومع ذلك ظل اليهود يهوداً، يستمسكون بدينهم ولا يرضون بمحمد سيداً، رغم كل الإشارات والتوضيحات التي كانت تصر على تأكيد أن محمداً من ذات النسل، فهو الحفيد البعيد لإسماعيل شقيق إسحاق بن إبراهيم، وأن القرابة العرقية قائمة، وأن انتظار اليهود لمخلص نبوي مقبل يجد صده في النبي العربي الذي يحقق نبوءة التوراة، حتى جاءت وقعة (أحد) لتستدعي تحركاً سريعاً يكفل انضواء هؤلاء التام لسلطان الدولة لتأمين المدينة داخلياً، فتمت صحيفة المعازل كما جاء خبرها السريع عند البيهقي، مع تحرك آخر على مفصل قریش يهدى من عوارمها ويطمئنها، فكان أن تم إلغاء الصوم اليهودي مع تقرير الصوم العربي الرمضاني، كما تم تحويل القبلة إلى كعبة مكة.

يقول ابن سعد: «نزل فرض شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله»^(٣٣). ويؤكد جميع أهل السير أن وقعة بدر الكبرى كانت في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، وهو ما يقوله ابن الأثير: «وفي السنة

(٣٢) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النعاس، بيروت، ط ٥، ١٩٨٥، ص ٦١.

(٣٣) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ١، ح ٢، ص ٨.

الثانية كانت وقعة بدر الكبرى فى شهر رمضان فى السابع عشر وقيل التاسع عشر وكانت يوم الجمعة^(٣٤).

لكن؛ إذا كان الصيام الرمضانى قد فرض فى شعبان من ذلك العام، وكانت وقعة بدر الكبرى قد وقعت فى رمضان من ذات العام، فلا أقل من أن نسمع من كتب الأخبار والسير عن ظروف المسلمين وهم صائمون، ومنى أهلوا بالصيام ومتى أفطروا، وهل قاتلوا صائمين أم مفطرين، وهى العادة مع كتب الأخبار التى تفصل تلك الأمور وتدقق بشأنها فى كل غزوة، مثلما حدث بشأن تأخير الصلاة فى غزوة (قريظة)، وما حدث بشأن الصيام الرمضانى فى فتح مكة، حيث تجد تفاصيل صغيرة ودقيقة. والمعنى المقصود هنا هو أن الصيام الرمضانى لو كان قد فرض قبل بدر الكبرى، بينما بدر قد وقعت فى شهر رمضان، لوجدنا لمسألة الصيام مكانها فى سرد الأحداث البدرية وهو ما لم يحدث مما يعنى وجوب تأجيل فرض الصيام الرمضانى والزكاة وتحويل القبلة وصحيفة المعامل معاً إلى الفترة التى افترضناها، خاصة مع ارتباط تلك الأحداث فى سياق واحد يناسب بعضه بعضاً، وهو الفرض الذى يقبل الخطأ كما يقبل الصواب.

وعمالاً لذلك كله، فإن الآيات الكريمة التى تحدثت عن التوراة وهادها ونورها، وعن تفضيل الله لبنى إسرائيل، والقص الطويل عن أنبياء التوراة من إبراهيم إلى إسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وداود وسليمان.. إلخ، كل ذلك أفرغ محتواه فى الصحيفة التى عقدت بين جميع أطراف القوى فى يثرب، والتى كانت أولاً: نتيجة لتحول حال المسلمين بعد بدر من ضعف إلى قوة، ومن لاجئين إلى مواطنين على ذات الدرجة، وكانت ثانياً: محاولة لفرض الهيمنة وإعادة الأمر كله لسيد المدينة الجديد بعد التهاوى المعنوى فى هزيمة أحد، لتأمين الجبهة الداخلية ليثرب مؤقتاً، كما كان لوقعة أحد نتيجة أخرى هامة، تمثلت فى تحويل القبلة إلى الكعبة - هذا إن كان فرضنا صادقاً - فى رسالة واضحة لكل الأعراب، أن قطع طريق الإيلاف وضرب مصالح الملأ الأنانية، لا يعنى بالضرورة ضرب الرمز الدينى المكى، ورسالة موجزة برقية لأهل مكة أنفسهم تهدىء من روعهم إزاء سيد يثرب، أما أصحاب السير والأخبار فلم يجدوا سبباً واضحاً يعلل التحول عن أورشليم إلى مكة، سوى ما رده الإخباريون مع الطبرى أن النبى: «كان يحب أن يصلى قبل الكعبة، فأنزل الله.. قد نرى تقلب وجهك فى السماء»^(٣٥).

ثم جاء التحول إلى الصيام العربى ليلتقى مع تقديس يوم العروبة (يوم الجمعة وكان يسمى يوم العروبة) فى وقت مبكر، ليعلن فى إشارات واضحة منحى التحول، أما أبرز الشواهد على أن

(٣٤) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ح ٢، ص ١١٦ / معلومات النشر.

(٣٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د ت، ح ٢، ص ٤١٦.

صحيفة المعامل قد عقدت فى ظرف يستعرض فيه المسلمون قوتهم، أنها علقت بسيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ما لم يكن ممكناً زمن الهجرة عندما كان المسلمون قلة ضعيفة لاجئة إلى يثرب، وكان تعليقها بسيف رسول الله رسالة ذات معنى لجميع سكان يثرب وللمنافقين، ولحق ذلك جميعه تدريب آخر للمسلمين على نظام الدولة المؤسسية، ففرضت الضرائب (الزكاة)، أما أهم بنود الصحيفة التى كانت ترفرف على سيف النبى، فهى تلك التى قالت فى مفتتحها: «هذا كتاب من محمد النبى الأمى، وهو ما يشير إلى المعامل كفرمان صادر من سلطة النبى السيادية، فرغم أن المعامل كانت بين أطراف، فإن تلك الأطراف لم تكن متكافئة، لأن صيغتها وأسلوبها وإحياءاتها، ناهيك عن ذلك الاستهلال فى مفتتحها تشكل قراراً صادراً من سيد قوى فوق بقية الأطراف، فهى بمثابة كتاب أمان من النبى لسكان يثرب، إضافة إلى أن الصياغة لم تقل: (هذا كتاب من محمد بن عبد الله)، إنما فرضت صفة النبوة على جميع الموقعين أديانها، وهو الأمر الذى استثمر رغبة اليهود والمشرىكين اليتارية فى الأمان بعد سل سيف الاغتيال وتجريد الكتائب بعد أحد، ليمنحهم سلاماً مشروطاً بسيادة المسلمين ونبىهم، وهو ما توضحه قراءة بقية بنود صحيفة المعامل.

وضمن تلك البنود يأتى النص الذى يؤكد أن المعامل قد تمت ..

«... بين المؤمنين والمسلمين من قرىش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون على ريعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط، وينو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (ويتم ذكر كل بطن من البطون وكل دار)، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم،.. وإنكم مهما اختلفتم فى شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم،.. وإن بطانة اليهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار، يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله،^(٣٦).

والمطالع لهذه البنود سيلمس فوراً أمراً شديداً الأهمية، حيث يتضح حصول المهاجرين على أساس اقتصادى يرفع عيهم عن إخوانهم اليتارية، وإلغاء نظام المؤاخاة نتيجة ذلك، فالنص يؤكد «المهاجرون من قرىش على ريعتهم يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط»، ومن ثم

(٣٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

أصبح على الأنصار أن يعودوا إلى معاقلمهم الأولى ،على ريعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، أما البند الذى يؤكد بوضوح أن تلك الصحيفة لم تكن قد عقدت قبل بدر الكبرى، فهو تلك السلطة الواضحة فى إرجاع كل الأمور بالمدينة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى الخروج من المدينة لليهودى لا يتم إلا بإذن محمد - صلى الله عليه وسلم - والأكثر بلاغة فى كل هذا، أن الصحيفة سردت البيوت والأفخاذ اليثربية فى معاقلمها، وسط تلك الأفخاذ والبيوت تم وضع المهاجرين كأحد أبناء البلد وكفخذ من الأفخاذ اليثربية الأصيلة، بحيث اكتسب المهاجرون بصحيفة المعاقل وجودهم الشرعى، ليتحولوا من لاجئين إلى مواطنين، بل أفصح الأمر عما هو أشد بيانا، فغدا الأنصار تابعين لا مجيرين ومتبوعين .

وكانت النعمة العروبية الواضحة فى صيام رمضان وتقديس يوم العروبة، ثم العودة عن اغتراب القبلة الأورشليمية إلى الكعبة العربية المكية، إشارة واضحة إلى بدء التخلّى عن معالأة يهود المدينة، والإفصاح بتلك الإشارات القوية إلى أن الأمر كله عائد فى النهاية إلى أهل الله القرشيين، وأن القدس كله فى محل كعبتهم، وهى الطمأنة لقريش وتأكيد أن الإسلام لا يهدد أبداً مصالح مكة السياسية ولا الدينية المرتبطة دوماً بالاقتصادية، وأن خط سير التاريخ يحث خطاه إلى نتائجه النهائية، وأن الحروب جميعا ما كانت إلا لتوحيد العرب بزعامة قرشية يمثلها أشرف الخلق وسيدهم المصطفى - صلى الله عليه وسلم .

أما المعجزة القومية الكبرى التى قدمتها الدعوة إلى العرب، فتتمثل فى إعلان أن رب الأديان الكبرى المحيطة بالجزيرة، هورب واحد، هورب العالمين، وأن هذا الرب قد اختار محمداً العربى، وأنه تكلم إليه باللغة العربية، ليسحب بذلك الامتياز الذى كان قاصراً حتى ذلك الوقت على اليهود والمسيحيين ليمنحه للعرب المسلمين، الذين وصفهم ذلك الإله العالمى بأنهم خير أمة أخرجت للناس .

حروب دولة الرسول

الجزء الثاني

الباب الأول

ديّة بنى عامر

الوقائع من أحد إلى الخندق

غدر العربان

«ما أنا والله قتلت خبيبا، لكن أبا ميسرة أخا
بنى عبد الدار أخذ الحربة فجعلها فى يدى ثم طعنه، .

[معاوية بن أبى سفيان]

بينما كانت السرايا والغزوات تضيف باستمرار مزيداً من التراكم المادى والسلاح لدولة النبى
اليثرية، فإنها كانت - من جانب آخر- تسهم باستمرار فى ضعضة الحكومة المكية وسيرها نحو
الانهيار، هذا إضافة إلى تعبئة القبائل المجاورة لمكة، والتي آبت - رعبا وخوفا وربما طمعا - إلى
حلف يثرب، مثل قبائل مزينة وجهينة، ناهيك عن قبائل أخرى حالفت يثرب طائعة مختارة
كراهية فى قريش، مثل خزاعة (الحارس القديم للكعبة المكية)، والتي سبق وخلعتها قريش
وأقصتها عن مكة إقصاءً، ومن هنا وجدت خزاعة فى محمد وفى يثرب حليفا تحارب من خلاله
قريشا، فلعبت دوراً تجسسيا عظيما على قريش لصالح يثرب، كان له أثر بعيد فى حسم أمور
كثيرة لصالح الدولة اليثرية، ومع هذا وذاك، تمت عقود الموادعات بين يثرب وقبائل الساحل
التي فضلت الخضوع ليثرب، رغبة فى مغنم قوافل قريش المارة بطريق الساحل، وتجنباً لحرب
يؤذنون بها من الله ورسوله .

وقد ترافقت مع تلك الخطوات الخطوة الضرورية والحاسمة لهيبة الدولة فى يثرب وسيادتها،

بضرب المنازع الأعظم داخل يثرب، اليهود، الشاهد الدينى القدسى الحى، صاحب دستور رفض التنازل عنه أمام الدستور القرآنى، وهو ما كان من غير الممكن استمراره فى ظل دولة توحيدية موحدة تحكم بدستور واحد وتعبد إلها واحداً وتنتظم تحت إمرة قائد واحد، ومن ثم شكلت كل تلك الخطوات المحسوبة بدقة وإحكام هيبة عظيمة للدولة الطالعة، ساعدت على اتساع سطوتها فى المحيط العربى، حتى جاءت وقعة أحد بضربة موجعة وغير متوقعة على جدول الحسابات، وهو الأمر الذى أدى إلى ترنح هيبتها فى نفوس الأعراب، وهو الأمر الشديد الخطورة آنذاك، ولم يكن مسلسل الاغتيالات الذى طال الرؤوس من القبائل بكاف لإقناع العريان، بالكفاية القمعية للدولة، فكان أن شهدت تلك المرحلة بداية التناول على الدولة اليتيمية الطالعة.

وبينما المسلمون يلمون شعثهم فى خطوات متسارعة وحاسمة، يعقد المعاقل، وتكثيف السرايا المسلحة، للإعلان أن الدولة لم تزل قوية، وأنها وإن انكسرت فى أحد، فإن يراعها لم يزل بإمكانه أن يطول ويضرب ويؤدب لإخضاع القبائل، وبسرعة خرجت سرية أبى سلمة إلى بنى أسد فى المحرم من السنة الرابعة للهجرة - بحسابات الواقدى - ويعد شهر واحد من هزيمة أحد.

لم تكن جراح أبى سلمة قد أبلت بعد، وكان الجرح الذى أصابه فى أحد بعضده لم يزل طازجا، وأمره النبى بالخروج على رأس السرية برجالها المائة والخمسين إلى مضارب بنى أسد، وعند وصوله مضاربهم فزع الأسود من سرية الرجل الجريح وهربوا تاركين نعماء كثيرة من الإبل والشاء، غنيمة للمسلمين، وأسر منهم ثلاثة.

ثم يحكى لنا (عمر بن أبى سلمة) عن أبيه، أنه لما دخل المدينة انتفض به جرحه فمات، لثلاثة بقين من جمادى الأولى، فاعتدت أمى حتى خلت أربعة أشهر وعشر، ثم تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخل بها فى ليال بقين من شوال، فكانت أمى تقول: ما بأس من النكاح فى شوال والدخول فيه،^(١) والمعلوم أن أم سلمة كانت امرأة شديدة الجمال قوية الشخصية ذرية اللسان فصيحته. ثم تأتى سرية عاصم بن ثابت إلى عضل والقارة.

عن أبى هريرة قال:

بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت .. فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة، ذكروا لى من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم .. حتى لحقوهم .. وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا

(١) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٤.

ألا نقتل رجلاً منكم، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم اخبر عنا رسولك، فقاتلوه حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً.. فخرجوا به من الحرم ليقتلوه.. (٢).

والنص أعلاه أورده ابن كثير نقلاً عن الواقدي، لكن ابن كثير لاحظ اختلافاً بين رواية الواقدي وبين رواية ابن إسحاق، فقال:

ولنذكر كلام ابن إسحاق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف..

قدم على رسول الله بعد أحد رهط من عضل والقارة، وقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرأ من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معهم نفرأ ستة من أصحابه.. فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية الحجاز.. غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيل، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم، فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً.. ثم قاتل حتى قتل، وقتل أصحابه.. أما خبيب وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم، فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه واستأخر القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبّره بالظهران، وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.. وذكروا

(٢) نفسه: ص ٦٤، ٦٥.

أنهم لما صلبوا زيد بن الدثنة رموه بالنبل ليفتنوه عن دينه، فما زاده إلا إيماناً وتسليماً (٣) ..

والتصاريب هنا واضح، في شأن الغرض الذي خرج له المسلمون الستة إلى ماء الرجيع بعضل والقارة، فهناك قول: إنهم كانوا جواسيس لرسول الله (سرية عينا)، يستقصون أخبار هذيل، وهو فيهما يبدو ما لم يرتج له الطبري وابن الأثير وابن إسحاق، ربما لوجوب أن تأتي الأخبار المطلوبة من السماء دون عناء، أو بخبر الملاك جبريل، الذي كثيراً ما ذكرت عنه صحف السير أنه كان يقوم بمثل تلك المهام للدولة وزعيمها، ومن هنا قال هؤلاء بخبر آخر، هو أن ما حدث كان كميناً محبوكة، حبكته لحيان ذلك البطن الهذلي، بغرض النيل من هيبة الدولة التي اهتزت بعد أحد، ويبدو لنا أن ذلك الإجماع يجنح إلى الصواب، إذا ما تذكرنا أن العريان لا تترك ثأرها، وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - سبق وأرسل سرية اغتالت من هذيل رأسها (خالد بن سفيان ابن نبيح الهذلي)، وهو ما يبرر الحدث ويفسره، فما وصل الصحابة الأجلاء إلى ماء الرجيع، حتى برزت لهم هذيل، لتقتل منهم أربعة، وتأسر اثنتين تسلمهما لقريش هما خبيب بن عدى وزيد ابن الدثنة.

ويخبرنا ابن هشام أن حجيراً قد ابتاع خبيبا، وأن صفوان بن أمية ابتاع زيدا، وتم قتلها ثأراً، ويقول ابن هشام: إنهم لم يعجلوا في قتلها تعظيماً لحرمه الأشهر الحرم، فلما انقضت خرجوا بخبيب من جوار الحرم الذي وضعوا قواعد أمنه، حيث صلبوه على خشبة بعيداً عند ثنية التنعيم، وكان قاتله هو معاوية بن أبي سفيان، الذي حاول أن يبرىء نفسه بعد ذلك بزمان، عندما دار الزمن دورته ليملك أعنة دولة الإسلام، فكان يقسم بالله ما أنا قتلت خبيبا، لكن أبا ميسرة أختا بنى عبد الدار أخذ الحرية فجعلها في يدي ثم طعنه، (٤).

لقد استهانته هذيل بالدولة الليثية، وما جاءت استهانتها إلا بعد هزيمة أحد، وإزاء تلك الاستهانة انطلق لسان شاعر النبي حسان بن ثابت يهجو لحيان الهذلية، معبراً عما آل إليه الأمر في يثرب يومذاك ليقول:

إن سرك الغدر صرف لا مزاج له

فأت الرجيع فسل عن دار لحيان

قوم تواصوا بأكل الجار بينهم

فالكلب والقرود والإنسان مثلان

(٣) نفسه: ص ٦٦: ٦٨. انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٧.

(٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٦.

لو ينطق التيس يوما قام يخطبهم

وكان ذا شرف فيهم وشان^(٥)

وكالمعتاد في مثل تلك الأحوال، كان لابد من شيء يلبس الجراح، ولو بالجنوح إلى الخيال تستمد منه قوة الاستشفاء النفسى، بأسطورة تأتينا في شكل خبر يتم تناقله بين كتاب السيرة عن عاصم بن ثابت، الذى ثبت للهذليين حتى قتل رافضا أن يعطى بيديه، وكانت سلافة بنت سعد بنت سهيل قد نذرت حين أصاب عاصم ولديها فى أحد، لكن قدرت على رأس عاصم لتشرين فى قحفه الخمر، لكن هذيل لا تستطيع أن تأتى برأس عاصم، لماذا؟ لأن الله قد علم بنذر سلافة، فأرسل إلى جسد الشهيد جنوداً تحميه من هذيل، فى شكل زنابير تجمعت على الدم المراق، فلم يقدروا منه على شيء^(٦)، ولا يرضى ابن الأثير بحماية الزنابير وينتهى الأمر، بل يأتينا بخبر أشد أسطرة فيقول: إن الوادى قد ابتلعه، لأنه كان قد عاهد الله ألا يمس مشركا ولا يمسه مشرك، فمنعه الله فى مماته كما منع فى حياته^(٧).

وهو الأمر الذى حدث له نموذج شبيهه مع الأسير الثانى خبيب، فهذه ماوية مولاة حجير تحكى بعد ذلك بزمان روايتها العجيبة فتقول: «حبس خبيب بمكة فى بيتى، فطلعت عليه يوما وإن فى يده لقطفا من العنب، أعظم من رأسه، يأكل منه، وما فى الأرض يومئذ حبة عنب، ليردف البيهقى الذى آل على نفسه جمع العجائب، راوياً عن أمية الضمرى الذى حكى لولده وعن ولده الذى حكى لحفيده، أنه تسلل ليلاً لإنقاذ خبيب عن الصلب، ويقول: «جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها، وأنا أتخوف العيون، فأطلقتها، فوقع على الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلاً ثم التفت، فكأنما ابتلعتة الأرض، فلم يذكر لخبيب رمة حتى الساعة»^(٨). هذا رغم أن رواية ابن كثير توضح لنا دون لبس كيف اختفى جسد خبيب، برواية أمية الضمرى ذاته، الذى أكد هذه المرة أنه حمل جثة خبيب على ظهره وسار به حتى نذبه له الناس، فأسرع برميته على الأرض، ثم يقول ما نصه: «وأهلت عليه التراب برجلي»^(٩).

ثم يأتى يوم بئر معونة

وهو يوم قبائل سليم، التى تكاثرت عليها سرايا يثرب وغزواتها تقفوبعضها بعضاً، عندما

(٥) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٠.

(٦) نفسه: ص ٦٥.

(٧) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٨.

(٨) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٣١.

(٩) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٢.

تداعى المسلمون فى أحد لتجدها سليم فرصة الثأر وشفاء الخليل، فيما رواه أنس بن مالك، ويشير إلى أن سليم قد سلكت مسلك هذيل ذاته، فذهب بعضهم إلى المدينة يستمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مدداً على عدولهم، معلنين اتباعهم له، فيمدهم النبى بأربعين من خيار المسلمين، ومعهم رسالة يحملها خال النبى حرام بن ملحان الأنصارى، إلى سيد بنى عامر (عامر بن الطفيل)، الذى ما أن يطالع الرسالة حتى يعمل سيفه وسيوف سليم فى الأربعين مسلماً عند بئر معونة، ثم يبقى على مسلم واحد هو عمرو بن أمية الضمري، فقط ليقول له متحدياً:

ارجع إلى صاحبك فحدثه، فخرج عمرو

إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره .

وحديث بئر معونة بدوره - فى كتبنا الإخبارية - يحمل بعض التضارب، فرغم أن البيهقي بحديث أنس بن مالك قد قال: إن سليم استمدت النبى المدد على عدولها^(١٠)، فإن ابن كثير يروى عن ذات الراوى أنس بن مالك رواية أخرى تقول:

بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبعين رجلاً لحاجة، يقال لهم القراء، فعرض لهم حيان من بنى سليم: رعل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة، فقال القوم: والله ما أردنا إياكم، وإنما نحن مجتازون فى حاجة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقتلوهم، فدعا النبى عليهم شهراً فى صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت^(١١) .

وهنا يختلف السبب، كما يختلف عدد المسلمين، هذا إضافة إلى رواية ثالثة تقول:

قدم أبو براء، عامر بن مالك بن جعفر، ملاعب الأسنة، على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم، ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك .. فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعنق، ليموت فى أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين .. فلما نزلوا بعث حرام بن ملحان بكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر فى الكتاب حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر

(١٠) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٤٢، ٣٤٨.

(١١) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٣.

فأبوا.. فاستصرخ عليهم قبائل من سليم من عصابة ورعل وذكوان والقارة، فأجابوه إلى ذلك، حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رجالهم حتى قتلوا عن آخرهم.. وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري.. وأخذ عمرو أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته، وأعتقه عن رقة كانت على أمه فيما زعم^(١٢).

والرواية هنا تلتقى إلى حد كبير برواية عضل والقارة في أسبابها، وهو الأمر الذي لا يمكن قبوله، حيث يقع المسلمون في الخطأ ذاته مرتين، ومن غير المعقول أيضاً تصور النبي - صلى الله عليه وسلم - يرسل ببساطة خيرة رجاله إلى سليم، التي أخذها الرعب من النبي كل مأخذ، بعد السرايا والغزوات المتتالية عليها، كما أنه من غير المستساغ أبداً أن يرسل النبي سبعين رجلاً ليعلموا سليم أو عامر القرآن وقواعد الإسلام، بينما كان يكفي شخص واحد أو شخصان لأداء تلك المهمة، بدلاً من أن يفقد من رجاله عدداً لم يفقده في معاركه الكبرى، ثم لا يمكن أن نفهم كيف يذهب سيد من بنى عامر هو ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين إلى سيد آخر من بنى عامر أيضاً هو عامر بن الطفيل، ليستصرخ عليهم عامر بن الطفيل العامري قبائل أخرى هي قبائل سليم؟ إن هذا الإرباك لا ينجلى إلا إذا تصورنا مؤامرة قد عقدتها سليم مع بنى عامر، فما كان ممكناً أن يستجيب النبي لدعوة كتلك من سليم، إنما كان ممكناً أن يستجيب لبنى عامر، خاصة إذا كان الداعي عامرياً في كرامة وشهرة ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين لتقتلهم سليم.

كما يجب ألا نذهب مع القول أنه دعاهم ليعلموا العامريين الإسلام فكان يكفي فرد أو اثنان كما قلنا، لذلك يجب قبول الرواية التي تقول أن ملاعب الأسنة قد استمدهم على عدوله، وللتشجيع - ربما - تم تحديد هذا العدو بعدوة النبي سليم تحديداً، لمزيد من حبكة المؤامرة وجعلها قادرة على الإقناع والتميرير.

ومما يعضد ذلك التفسير المفترض لما حدث، هو أمر ذلك الحلف الغريب الذي تتحدث عنه كتب السير والأخبار، والذي تم عقده بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين بنى عامر، حيث يستمر ابن كثير في سرد قصة يوم بئر معونة ليقول: إن عمرو بن أمية الضمري، الذي أطلقه عامر بن الطفيل ليبلغ رسالته المتحدية للنبي - صلى الله عليه وسلم - «خرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا في ظل هوفيه، وكان مع العامريين عهد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجواره، ولم يعلمه عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ قالوا: من بنى عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما، عدا عليهما وقتلهما،

(١٢) نفسه: ص ٧٤، ٧٥.

وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بنى عامر.. فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبره الخبر، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لقد قتلت قتيلين لأدينيهما،^(١٣).

ومرة أخرى لا يترك مأثورنا حديث الأحاجي المعجز، فيقول الإخباريون: «لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري، قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، قال: لقد رأيته بعدما قتل، رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض،^(١٤).

وهكذا تروى المعجزة على لسان من لقبته كتبنا التراثية بعدو الله (عامر بن الطفيل)، ومع ذلك لم يؤمن الرجل رغم ما رأى؟! وبينما (البيهقي) يزيدنا إعجازاً بقوله: إن النبي دعا على ابن الطفيل فأصابه الطاعون وذلك في عام الوفود سنة تسع للهجرة. هذا بينما نجد ابن الأثير يورد سبباً آخر لموت ابن الطفيل، هو أن أبا براء ملاعب الأسنة الذي أجار مسلمي بئر معونة قد رأى في قتل ابن الطفيل لهم تعدياً على إجارته، فطعن ابن الطفيل وهو على فرسه، فسقط ابن الطفيل ليموت وهو يقول: «إن مت قدمي لعمى،^(١٥).

ومع يقظة سليم وتحفز عامر، ومع ضرورة اتخاذ موقف ردع سريع برزت سياسة الاغتيال مرة أخرى، لتنتقم لشهداء المسلمين، فيرسل النبي يستدعي عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم بن حريش، ليوجههما وجهة أخرى لقطف رأس كبير بأمره القائل: «أخرجنا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتم منه غرة فاقتلاه». ويحكى ابن الضمري فيقول: «فأتينا مكة فطفنا أسبوعاً وصلينا ركعتين فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفني^(١٦)، فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أمية.. فقاموا في طلبي وطلب صاحبي، فقلت له النجاء، هذا والله الذي كنت أحذر، أما الرجل فلا سبيل إليه فأنج بنفسك، فخرجنا نشدد حتى أضعدها في الجبل، فدخلنا في غار فبتنا فيه ليلتنا وأعجزناهم هرباً، فرجعوا وقد استترت دونهم بأحجار..^(١٧).

ويمكن ابن الضمري من الوصول إلى منطقة أبعد، عند غليل ضجنان، فيدخل غاراً يبيت فيه ويحكى: «فبينما أنا فيه إذ دخل علي رجل من بنى الديل بن بكر، أعور، طويل، يسوق غنماً له،

(١٣) نفسه: ص ٧٥.

(١٤) الموضع نفسه، انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٢.

(١٥) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٢.

(١٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٢.

(١٧) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١.

فقال: من الرجل؟ فقلت رجل من بنى بكر، قال: وأنا من بنى بكر، ثم اضطجع معي فيه، فرفع عقيرته يتغنى ويقول:

ولست بمسلم مادمت حيا ولست أدين دين المسلمين

فقلت: «سوف نعلم، فلم يلبث الأعرابي أن نام وغط، فقمت إليه فقتلته أسوأ قتلة قتلها أحد أهدأ، قمت إليه فجعلت سية قوسي في عينه الصحيحة ثم تحاملت عليها حتى أخرجتها من قفاه»^(١٨). ويتابع روايته «ثم خرجت حتى هبطت فلما أسهلت في الطريق، إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار، فقلت: استأسرا، فأبى أحدهما فرميته فقتلته، فلما رأى الآخر ذلك استأسر، فشددت وثاقه ثم أقبلت به إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - .. وقد ربطت إبهامه بوتر قوسي، فلقد رأيت النبي يضحك، ثم دعا لي بخير»^(١٩).

ومع فشل بعثة ابن الضمرى لقتل سيد مكة، كان لابد من عمل سريع إزاء قبائل سليم التي باتت ساهرة الأجنان تتوقع الثأر الآتي لا محالة، وبالفعل جاءها الغزو فجأة بقيادة النبي نفسه، لكن لتهرب سليم جميعا ويتركوا منازلهم وأنعامهم فيجمع المسلمون أنعامهم ويعودوا بها إلى يثرب فيما عرف بغزوة (قرقرة الكدر)^(٢٠).

وكان من غير الممكن الاستمرار طويلا للإيقاع بالناس وقعة كبرى تعيد للدولة هيبتها، وتعيد العريان إلى سابق انكماشهم، ومن ثم كان لابد من تحديد هدف كبير، ولإيجاد سبب مناسب يكون مدخلا إلى ضربة كبرى تعيد إلى المسلمين ثقتهم في أنفسهم، وتلقى الرعب في قلوب الذين كفروا.

(١٨) الموضع نفسه.

(١٩) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٣.

(٢٠) الحلي: سيرة... سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٠.

غزوة النضير

«اخرجوا من بلدى فلا تساكنوننى بها.. وقد أجلتكم
عشرأفمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه» .

[رسالة النبى إلى بنى النضير]

مرة أخرى نعود إلى خبر ذلك العهد الغامض والملتبس بكتبتنا الإخبارية، والذي عُقد بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وبين بنى عامر، ورغم المكيدة التى راح ضحيتها ما بين الخمسين والسبعين من خيار المسلمين فى بئر معونة، والتى دبّرت بشكل غير واضح فى مأثورنا، وقاد المذبحة الزعيم العامرى (عامر بن الطفيل)، فإن أمية الضمرى عندما قتل عامريين فى طريق عودته، وجد النبى غير راض عما فعل، بل أعلن أن عليه تأدية الدية فى العامريين القتيلين، لأن بينهما عهداً، وهو العهد الذى لم يعلم به الصحابة، وهو ما يوضحه عدم علم ابن الضمرى الذى قتل العامريين .

والأكثر التباساً أن يقول الطبرى: «إن عامر بن الطفيل كتب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إنك قتلت رجلين لهما منك جوار وعهد فأبعث بديتهما»^(٢١) .

الأمر هنا غير مقبول إطلاقاً، فعامر بن الطفيل يكيد للمسلمين، ويقتل بمعاونة قبائل سليم

(٢١) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١ .

سبعين مسلماً، ثم يرسل للنبي طالبا الدية لعامريين قتلها الضمري ثاراً، ويصحب ^{٢٢}هوقف النبي - صلى الله عليه وسلم - غير مفهوم في إصراره ليس على الانتقام وإنما في أداء الدية لبني عامر!! كما حدث بغزوته على أهل الرجيع ودار لحيان انتقاماً لسبعة فقط من رجاله في مؤامرة مثيلة، وعليه فما يبدو لنا أن السبب الواضح في الإصرار على دفع الدية للمعتدى، كان إيجاداً لسبب لما هو أعظم وأجل، ألا وهو إجلاء بني النضير، تلك القبيلة اليهودية الكبرى عن يثرب، وخاصة أن النضير كانوا حلفاء الأوس، وكان المنافقون من الأوس كثير، وهم من كانوا وراء غليان المدينة بالنفاق بعد هزيمة أحد. خاصة أن كتب الأخبار التي أفاضت في أمر دية بني عامر، قد توقفت تماماً عن ذكرها بعد غزوة النضير، حتى لا نعلم بعدها هل تم أداء تلك الدية فعلاً أم لا؟ كما لو كان أصحاب السير والأخبار يعلمون بدورهم أن دية بني عامر إنما كانت المدخل لإعلان الحرب على النضير، لتطهير يثرب، وتقليم أظافر المنافقين بإبعاد حلفائهم الأقوياء، ثم - من جانب آخر - تقوية الروح المعنوية للمسلمين بنصر وغنائم تعوضهم عن هزيمة أحد.

ويتضح دور دية بني عامر والإصرار عليه فيما أدت إليه من نتائج باهرة، توضحها رواية الطبري عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما ذهب إلى بني النضير، يستعين بهم في أداء دية العامريين، بما أصبح بينهم وبين الرسول من تحالف في صحيفة المعاقل، فنقول الرواية:

فانطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى قباء، ثم مال إلى بني النضير مستعيناً بهم في ديتهم، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وعلى وأسيد بن حضير... فلما أتاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستعينهم في دية ذلك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه (٢٢).

إن أي قارئ كان لابد أن يتوقع من بني النضير تسويقاً أو مماطلة أو رفضاً، لكن يبدو أن يهود نضير قد قدروا الأمر تقديراً عميقاً، فمازال خروج يهود قينقاع المهيمن ماثلاً في الأذهان، وهناك صحيفة معاقل تضمن لهم قدراً من السلام لا يرجون غيره، مع مسلسل الاغتيالات الذي نال رجالهم المقدمين، ناهيك عن معرفتهم أن المسلمين قد صاروا مقتدرين مالياً على أداء مثل تلك الديات بعدما حصلوه من مال نتيجة غزوة بدر الكبرى، ومن ثم كانت الحكمة تقتضي إجابة مثالية واضحة، لا تعطى أية فرصة لنقض صحيفة المعاقل ولما يمض عليها من الشهور سوى ستة، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، رغم ما في ذلك من نكايه بعهدهم مع بني عامر وحلفهم معهم، وهو ما يعلمنا به ابن إسحاق، الذي أكد أن النضير

(٢٢) الموضع نفسه.

مثلاً كانت قبل الهجرة على حلف تأخ مع أوس يثرب، كانت على ذات الحلف مع بنى عامر^(٢٣) ومعنى أن يدفعوا الدية عن مسلمين، أنهم اتخذوا جوارهم وفكروا حلفهم مع العامريين.

ويتابع الطبرى روايته فيقول: إن يهود النضير عندما أجابوا النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ما طلب:

قام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخل المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى انتهوا إليه .. فقالوا: يارسول الله، انتظرناك ومضيت، فقال: يهود همت بقتلى وأخبرني الله عز وجل^(٢٤).

أما كيف همت نضير بقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس وسط رجاله، وكيف علم النبي وحده بتلك المؤامرة، فهو ما تخبرنا به رواية ابن إسحاق وهو يقول: «فأتى رسول الله الخبير من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج عائداً إلى المدينة»^(٢٥)، وقد أخبرته السماء عبر وسيطها جبريل أن يهود نضير قد خلا بعضهم ببعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذا، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جنب جدار من بيوتهم قاعداً، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه»^(٢٦).

ومن ثم لم يكن هناك سوى رد واحد على خبر السماء الصادق بخيانة بنى نضير الواضحة، وهو الجلاء عن يثرب، وزيادة في النكاية بهم أرسل النبي لهم واحداً من الأوس هو محمد بن مسلمة، يحمل إليهم رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - تنذر وتقول بلا لبس:

أخرجوا من بلدى فلا تسكنوننى بها، وقد هممت بما هممت به من الغدر، وقد أجلكم عشراً، فمن رنى بعد ذلك، ضربت عنقه^(٢٧).

لقد كانت نضير تظن عبر تاريخها الطويل أن يثرب بلدها هي، لكن ها هي الرسالة واضحة مفصحة تؤكد أنها قد أصبحت بلد الرسول، وأنه سيدها، وأن عليهم مغادرتها فوراً وخلال أيام

(٢٣) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.

(٢٤) الطبرى: تاريخ .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١، ٥٥٢.

(٢٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.

(٢٦) الموضع نفسه.

(٢٧) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٤١.

عشرة، أو يكونوا فى خسر، تقطع بعدها منهم الرقاب إن ظلوا قائمين. ويقول البيهقى: أن النصير لما رأت أن محمد بن مسلمة الأوسى يحمل لها تلك الرسالة القاسية، وهو كشخص بحد ذاته يعد رسالة أخرى من النبى لهم بخذلان الأوس لهم، تساءلت عن حلفها مع الأوس وعفدها قائلة لاين مسلمة: «يا محمد؛ ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس، فقال محمد بن مسلمة: تغيرت القلوب»^(٢٨)، أو بنص الطبرى «تغيرت القلوب ومحا الإسلام اليهود»^(٢٩).

وهنا يعلمنا ابن سعد عبر طبقاته أن عبد الله بن أبى بن سلول أرسل لهم يقول: «لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة، وحلفاؤكم من غطفان»، ومن ثم كانت إجابة زعيم النصير، الذى لقبته العرب سيد الحاضر والبادى، حى بن أخطب: «إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك»^(٣٠).

وهو أيضا ما أكدته ابن كثير وهو يروى «فبعث لهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام، ويعدونهم بالنصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمى حى بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهد»^(٣١).

وهنا تسترسل آيات الوحى تنذر وتتوعد وتقول:

«ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب
لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم
والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا
ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون» (١١، ١٢/ الحشر).

وكان الإنذار واضحا لا يحمل أى لبس، وهو ما كان كفيلا بتراجع المنافقين وحساب مواقفهم بدقة، بحيث لا نرى عند حصار المسلمين للنصير أى تحرك من جانب الأوس، ولا من جانب ابن سلول وأشياعه، أما قريظة فقد فهمت الرسالة، ومن ثم التزمت صحيفة المعادل وهو ما يقوله ابن سعد فى تقريره:

(٢٨) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٦٠.
(٢٩) الطبرى: تاريخ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٢.
(٣٠) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٤١.
(٣١) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

واعترزتهم قريظة فلم تعنهم، وخذلهم ابن أبى وحلفاؤهم من غطفان،
فأيسوا من نصرهم^(٣٢).

أما الطبرى فقد أفصح عن موقف قريظة فى إعلان زعيمها كعب بن أسد:
لا ينقض العهد رجل من بنى قريظة وأنا حي^(٣٣).

ويحكى أن سلام بن مشكم قال لرفيقه حبيى بن أخطب: «يا حبيى اقبل هذا الذى قال محمد،
وإنما شرفنا على قومنا بأموالنا، قبل أن تقبل ما هو شر منه، قال: وما هو شر منه؟ قال: أخذ
الأموال، وسبى الذرية، وقتل المقاتلة، فأبى حبيى، وأرسل حبيى إلى رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - إنا لا نريم دارنا فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكبر
المسلمون معه وقال: حاربت يهود؟!^(٣٤).

ويقول ابن كثير أن النصير لما نابذوه بنقض العهود، عند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم..
فحاصروهم ست ليال^(٣٥)، لكن يهود لم تستسلم، وهنا أمر النبى بهدم مساكنهم المنتشرة حول
حصونهم، كما أمر بالمعاول وتقطيع النخل والأشجار وحرق المزروعات، فنادوه:

يا محمد؛ قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال
تقطيع النخل وتحريقها؟!^(٣٦)

ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون؟!^(٣٧).

وقال الحلبي فى سيرته:

لما قطعت العجوة، شق النساء الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل.
وعند ذلك نادوه.. يا أبا القاسم.. ما هذا الفساد؟.. يا محمد زعمت أنك تريد
الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل
عليك الفساد فى الأرض؟ وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم
تفسدون؟!^(٣٨).

(٣٢) الموضع نفسه.

(٣٣) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٣.

(٣٤) الموضع نفسه.

(٣٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

(٣٦) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٢.

(٣٧) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٨٢.

(٣٨) الحلبي: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٤.

قال السهيلي في شروحه:

فوقع في نفوس المسلمين شيء من هذا الكلام^(٣٩).

هنا لم يكن الأمر مسألة مبادئ توجه إليها الانتقادات والملاحظات، أو أفكار تعاب، فالمعركة يجب أن تحسم، ولن تحسمها سوى القوة العسكرية لا الأخلاقيات التي قعدها قوم مزارعون وضعوا لها الأعراف لحماية زروعهم، وعليه فقد جاء الرد وحيا يرفع الملامة عن النبي وصحبه، يؤكد ألا ملامة في قطع الزرع وحرق النخيل، فكله بأمر الله وحده وإرادته، ليقول الآي الكريم «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين» (٥/ الحشر).

واستمر الحصار يوما وراء آخر حتى بلغ خمسة عشر يوما، وهنا «صالحوه على أن يحقن دماءهم وله الأموال والحلقة»^(٤٠). ولهم ما حملت الإبل، ووافق النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - لكن حتى لا تحمل الإبل متاعا، فقد أعطى لكل ثلاثة أفراد بغيراً واحداً يركبون عليه ويحملون عليه ما يمكن حمله.

وجاء وقت توزيع الغنائم، وفي ذلك يقول الحلبي «كان نخل بنى النضير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة، أعطاه الله تعالى إياه.. وأكثر الروايات، أن أموال بنى النضير أي مواشيهم كالخيل ومزارعهم وعقارهم، حق لرسول الله خاصة له.. حبساً لنوائبه، وكان ينفق على أهله منها، وكانت صدقاته منها»^(٤١). وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أنه قال: «إن أموال بنى النضير كانت مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالصة»^(٤٢). وهو ما جاءت بشأنه الآيات لتحسم أمره، حيث أوضحت أن المسلمين لم ييذلوا في سبيله ولم يحاربوا من أجله، ومن ثم فهو أمر قد حدث بتفاوض بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين بنى النضير، لذلك فهو من حق النبي وحده، حين تقول الآيات «وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب» (٦/ الحشر)، أما ما حدث لنضير فهو بأمر الله، حيث تؤكد الآيات «ولكن الله يسلط رسوله على من يشاء والله على كل شيء قدير» (٦/ الحشر).

وخرجت النضير من ديارها ذليلة مهانة، يقودها حيي بن أخطب الذي عرفت له العرب فضل السيادة والشرف فلقبته سيد الحاضر والبادي، واتخذ المرتحلون طريق الشمال، لكن لينزل

(٣٩) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٤٠) نفسه: ص ٥٥٣.

(٤١) الحلبي: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٧، ٥٦٨.

(٤٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر، ومسلم في ٣٢ من كتاب المغازي ١٥، باب حكم الفداء، الحديث ٤.

بعض سادة النصير على يهود خيبر مثل سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحى بن أخطب مع جمهور من يهود النصير، بينما يستمر باقى الركب يقطع الفيا فى باتجاه أرض الميعاد ليستقر هناك فى فلسطين .

أما الآيات الكريمة فكانت تختتم الحدث، يتردد صداها بين فيا فى الجزيرة ويسرى مع الرياح يسمع مضارب القبائل فى كل مكان، ورجع الصدى منه يرجف قلوب العرب ويصك أسماعهم، حيث تقول:

«سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب» (١: ٤٠ / الحشر) .

تأديب العربان

«فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة
فإنك من غر الرجال الصعالك».

[حسان بن ثابت]

كان خروج النصير وسادتها من أشراف العرب وسراتهم بهذا الشكل المزرى، وانهيارهم أمام المسلمين رغم حصونهم التى كانت فى نظر العرب معاقل كبرى، عاملا عظيم الأثر فى بث الرعب فى قلوب العربان الذين لا يملكون حصونا ولا صياصى. ورجعت الأصداء أخبار ذلك النصر المبين، فكانت حكاية العربان الراجفة المزلزلة، عن تلك القبيلة التى استقرت فى يثرب قرونا، وكونت لنفسها بين العرب جليل المكانة، ليطيح بها السيف المحمدى خارج حدود جزيرة العرب جميعا، وكان طبيعيا أن ترجف هذيل وتسفى رياح الحدث بأعصاب رجالها وتشقت أمنهم، فتأثر أصحاب الرجيع لم يزل قائما، وكان تأديب فخذها اللحيانى أمراً آتياً لا محالة، لكن لحيان الهذلية كانت قد وعت درس أصحاب (بئر معونة)، الذين هربوا ما أن حذروا بمقدم جند الله وتركوا الديار وفروا فراراً غير كريم، ومن ثم باتت لحيان ساهرة الأجفان تتشمم الأخبار، بينما كان النبی يلج برجاله عليهم، لكن ليسلك طريقا غير الطريق المضروب لدار لحيان، ليسقط عليها فجأة ويأخذ منها غرة، فسلك برجاله طريقا طويلا وعثا وعراً نحو الشام، حتى يرى العرب أنه يريد أمراً بعيداً، لكن ليلتف بجيشه النفاة كبرى لم تغب عن عيون لحيان المرعوبة، فتركت له

الديار ليصلها فيجدها فراغا، وأصحابها قد صعدوا رؤوس الجبال وتمنعوا بوعورة بيئتهم، وأخذوا معهم أموالهم وأنعامهم في مواضع الأمان، وهنا اتخذ القائد خطأ آخر ليستدير على مواضعهم المنيعه من طريق عسفان، ذلك الطريق شديد الوعورة قرب مكة، مما كبد النبي وجيشه مشقة ووعثاء شديتين. لكن مكة ظنته قادما إليها، فخرج إليه خالد بن الوليد على رأس مائتي فارس، وهو أمر لم يستعد له المسلمون، وكانت مواجهته تحتل هزيمة يقينية، مما اضطر جيش المسلمين إلى إلغاء الحملة التأديبية الثأرية على لحيان الهذلية، بعد كل ما تكبده جيش المسلمين من مشاق، مع الانسحاب الهادئ والمحسوب تجاه يثرب دون إثارة ابن الوليد وجنده، بعد التفاف واسع آخر، والعودة بلا أى مغنم وبدون تحقيق أى هدف للحملة، وهو ما ترك أثره فيما رده النبي العائد برجاله وهو يقول دون أن يظفر بشيء:

أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر فى الأهل
والمال^(٤٣).

ولم تنقض أيام يثرب على الجند المكدود، حتى صدع الناس بأمر نبيهم للخروج على غطفان، التى كانت حليفا للنضير، والتى وعدت بإمدادهم وتراجعت، لكن معنى ذلك أنها ركبت مركب العداء لحكومة يثرب ولصاحب الدعوة، ومن ثم كان من الضروري إرهابها وتقليم أظافرها بغزوة تأديبية، هى الغزوة المعروفة (بذات الرقاع)، التى أراد بها النبي بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان، لكن غطفان علمت بمسيره فجمعت حشودها واستعدت استعداداً عسكرياً متميزاً لملاقاة الجيوش ووصل المسلمون ليجدوا أنهم قد فقدوا عنصر المفاجأة، ويراها أمامهم جيشاً مستعداً متجهزاً. ليروى لنا الطبرى ما حدث فى قوله: «الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمسلمين صلاة الخوف، ثم انصرف بالمسلمين»^(٤٤).

ومع الحملات الفاشلة على التوالى، كان لابد أن يجد رواتنا عافاهم الله ما يسدون به الفراغ بين الانتصارات، فالتجأوا كعادتهم إلى حديث المعجزات ففى غزوة ذات الرقاع، يروى لنا الإمام النويرى رواية عجيبة تقول «وفى هذه الغزوة جاءتة - أى إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - امرأة بابن لها، فقالت: يا رسول الله هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان، ففتح فاه فبزق فيه وقال: اخسأ عدو الله، أنا رسول الله، ثم قال - صلى الله عليه وسلم -: شأنك بابنك، لن يعود إليه شيء مما كان يصيبه، فكان ذلك»^(٤٥).

(٤٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩٨.

(٤٤) الطبرى: تاريخ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٦.

(٤٥) الحلبى: سيرة... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧٦.

وفى تلك الغزوة التى لم تحقق شيئاً، نجد حديثاً آخر يملأ الفراغ بالمسليات من معجزات، حيث لا ملائكة، ولا دور عسكرى يقوم به جبريل، فتقول إحدى الروايات أن المسلمين عانوا من الجوع إزاء ذلك الالتفاف الطويل، فنفدت ميرتهم من الطعام، فعثروا على ثلاث بيضات نعام، فقال النبى للصحابى جابر: «دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات، قال جابر: فعملتهن ثم جئت بهن فى قصعة، فجعلنا نطلب خبزاً فما نجد، فجعل النبى وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز، حتى انتهى كل إلى حاجته، أى إلى الشبع، والبيض فى القصعة كما هو» (٤٦).

ويبدو أن تلك الغزوة التى خاف فيها النبى والمسلمون القتال، حتى صلوا صلاة الخوف، كانت مدعاة لكثير من حديث المعجزات، لملء فراغ كان يجب أن يملأه جند السماء، وهى معجزات شبيهة بالمعجزات اليسوعية، فطرد الشيطان من الأجساد، وإطعام الجمع الفقير فى القفر بالقليل من الطعام، معجزات معلومة للمسيح، فيسوع قد سبق وأخرج الشيطان من جسد ابن المرأة الكنعانية، كما أطعم جمعا غفيراً برغيف وسمكتين بعد أن باركها، وبقيت فضلات تملأ أجولة، ثم تأتى هنا معجزة شبيهة بالمعجزات السليمانية، يتحول فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى قدرة التحادث مع الحيوانات، وهو ما ورد فى قصة البعير الذى جاء وحدث النبى بشكواه فأنصفه (٤٧).

ومن خبر ذات الرقاع تنقلنا كتب السير إلى غزوة بدر الآخرة، حيث كان أبو سفيان قد تنادى بالمسلمين المختبئين فوق الصخرة فى غزوة أحد قائلاً: يوماً بيوم بدر، وإن بدرأ موعداً العام المقبل، وقد حان موعد اللقاء المضروب، بمرور عام كامل على وقعة أحد.

ويحكى لنا ابن هشام خبر غزوة بدر الآخرة بقوله: «ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان، حتى نزل، واستعمل على المدينة عبد الله بن أبى بن سلول.. فأقام عليه ثمانى ليال ينتظر أباً سفيان» (٤٨)، لكن أباً سفيان لم يأت لموعده بعدما علم بخروج المسلمين مستعدين إلى سوق بدر، حيث نزلوا مسلحين بالعتاد والتجارة، متجهزين لكلا الأمرين، ولما كانت بدر سوقاً للأعراب، يطلب فيها التجار الأمن والأمان، فقد جاء مخشى بن عمرو الضمرى إلى النبى، وكان قد كتب عهد موادة مع النبى عندما غزاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غزوة ودان، ليسأل النبى - صلى الله عليه وسلم -:

يا محمد؛ أجيئت للقاء قريش على هذا الماء؟

(٤٦) نفسه: ص ٥٧٧.

(٤٧) نفسه: ص ٥٧٨.

(٤٨) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٨.

لقد جاء الرجل يتساءل، وماء بدر فى حمى بنى ضمرة، لا يريدون عليه حربا، ويطلبون له الأمان والسلام للرواج التجارى، لكن ليجيبه النبى بالقول القاطع والحاسم:

نعم يا أخا بنى ضمرة، وإن شئت ردونا إليك ما كان بيننا وبينك،
وجالديك حتى يحكم الله بيننا وبينك .

لكن ليجيبه الرجل من فوره:

لا والله يا محمد، مالنا بذلك من حاجة!!^(٤٩) .

ويخبرنا الواقدي أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد خرج إلى بدر الآخرة فى ألف وخمسمائة من الجند المسلحين، وأقام على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده مدة الموسم وهى ثمانية أيام، والسوق قائمة، والمسلمون يتاجرون وهم يحملون السلاح، فكان لا ينازعهم فى السوق منازع، فربحوا عن الدرهم درهمين^(٥٠) ليعقب الوحى الكريم على الحدث بقوله:

«فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم» (١٧٤/آل عمران) .

وهكذا أسفر أمر بدر الآخرة عن إعلان لجميع العربان بجبن أهل الله المكين عن الخروج لملاقاة جند الله الليثيين، جبنت قريش وتراجعت وأخذت تخسر أسواقها، بعد أن خسرت طريق الشام المار بالمدينة، وانهارت سمعتها بين الأعراب، وزيادة فى تمرغ تلك السمعة وإظهار هوان قريش، أرسل كعب بن مالك رسالة شعرية - يرددها العربان - لأبى سفيان، تعيره هو وقريش وتقول:

وعدنا أبا سفيان بدرأ فلم نجد	لميعاده صدقا وما كان وافيا
فاقسم لو وافيتنا فلقيتنا	لأبت ذميما وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه	عمرا أبا جهل تركناه ناويا

أما حسان بن ثابت الذى يجبن عند الحرب، ويرسل لسانه سليطا عند الحاجة، فقد أرسل برقية تقول:

فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة فإنك من غر الرجال الصعالك^(٥١)

وهو الأمر الذى آذى قريشا، حتى جاء صفوان بن أمية إلى أبى سفيان لانما يقول: «قد والله

(٤٩) ابن كثير: البداية . سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٩ .

(٥٠) نفسه: ص ٩١، انظر أيضاً الخطبى: السيرة .. سبق ذكره، ص ٢٠٠، ص

(٥١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ح ٣، ص ٢٤٩ .

نهيتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجترأوا علينا، ورأوا أننا أخلفناهم، وإنما أخلفنا الضعف» (٥٢).

هذا ما كان عليه حال قريش، أما حال يثرب فلم يكن مرضياً لأهلها، فالحملات تفشل، والعربان تتطاول، والدولة بحاجة دائمة إلى أعمال كبرى تعلن دوماً عن حجم القوة الإسلامية، وهنا يحكى لنا ابن كثير أنه قد بلغ النبي أن الدنو من أبواب الشام، أمر سيفزع قيصر الروم فزعا شديداً، وكان الخبر هاماً، فليس هناك رسالة للعربان أفصح ولا أقوى من فزع عظيم الروم ذاته.

وإعمالاً للخبر، «ندب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس، فخرجوا في ألف من المسلمين، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بنى عذرة، فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بنى تميم، فسار حتى هجم على ما شيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل، فتفرقوا، فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بساحتهم، فلم يجد فيها أحداً، فأقام فيها أياماً، وبث السرايا، ثم رجعوا وأخذ محمد بن مسلمة رجلاً منهم فأتى به رسول الله، فسأله عن أصحابه، فقال: هربوا أمس» (٥٣).

هكذا وصلت أخبار الجيش المحمدي، وهكذا كان أهل الحدود البيزنطية يسمعون بما يحدث في باطن الجزيرة، لهذا كان تصرفهم عندما سمعوا بمقدمه عليهم، وكانت إجابة أكيدر حاكم دومة الجندل على غزوة النبي بعد عودته إلى يثرب، فهي أن «أرسل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجبة من ديباج منسوج فيها الذهب» (٥٤).

وفي طريق العودة من دومة الجندل، رأى النبي أن يمر بمضارب فزاره وهو في استعداداته العسكرية هذا، ولم يجد عيينة بن حصن الفزاري سيد فزاره، سوى مودعة سيد يثرب، وكانت مودعة عيينة مكسباً لو صدق، حيث كان بإمكانه أن يجمع عشرة آلاف فتى من المحاربين عند الحاجة، ومن هنا منحه النبي عهداً يرعى بموجبه سوائمه في تغلمين عن قرب من يثرب، حيث أجذبت أراضي عيينة، ومر المسلمون بسلام عائددين إلى المدينة (٥٥). ولم تمض أسابيع حتى كان عيينة يعدو على سوائم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقتل رعاته ويعود إلى أرضه بما غنم من أموال النبي - صلى الله عليه وسلم -.

هذا بينما كانت قريش في أمر آخر، تحسب حساباتها، وتراجع أمر تجارتها، وما شاع بين العربان عن جنبها.

(٥٢) الحلبي: سيرة... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨١.

(٥٣) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٣، انظر أيضاً البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٨٩، ٣٩٠.

(٥٤) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣١.

(٥٥) الطبري: تاريخ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٤، انظر أيضاً الحلبي: سيرة... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٢.

غزوة الخندق

«كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر،
وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط» .

[معتب بن قشير الأنصاري]

خطوات سريعة، تلك التي اتخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أجل تطهير المدينة وخلصها للمسلمين، تم بها تصفية كثير من المعارضين من المنافقين والمشركين واليهود، وقبلها كان قد تم طرد يهود قينقاع، ومن بعد أحد تم عقد المعازل - فيما ذهبنا إليه من اجتهد افتراضى - لكن النبي كان يعلم يقينا، أن وجود يهود بكتاب مقدس، ومأثور تاريخي، وسلسلة من النبوات قفت بعضها بعضا، يعنى وجود منكر دائم لنبوته، وداخل مدينته، وفي عقر دار دولته الصغيرة، ومن ثم كانت تلك الخطوات المتسارعة لتطهير يثرب، بطرد بنى النضير، وسيدهم حبي بن أخطب ذلك الشريف السيد الداهية، الذى ما خرج من يثرب إلى خيبر، حتى أخذ سادة النضير وأشرافهم، سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وانحدر بهم إلى مكة، ليدرك ثأره من محمد .

وكانت سرايا المسلمين وغزوات النبی، قد أرهقت قريشا وقطعت سبيلهم إلى الشام، ثم جاءت سلسلة سرايا الاغتيال، التى ألفت نتائجها موادعات وتحالفات للقبائل الضاربة على الطريق

التجارى، مع محمد ورجاله، مما قطع إيلافهم مع قريش، ووصل الأمر بقريش إلى الجبن عن ملاقة محمد على ماء بدر فى بدر الآخرة، رغم أن أبا سفيان صاحب اللواء القرشى، كان صاحب الموعد التهديدى فى أحد، ومن ثم استجابت قريش من فورها لسعاية يهود نضير، الذين أخذوا على عاتقهم إقامة حلف عظيم بين العرب مع قريش، لضرب العصبة المؤمنة فى يثرب، ضربة قاتلة ونهائية.

وهكذا أسفرت دية بنى عامر عن طرد يهود النضير، لكنها أفرزت أيضا أول جمع عظيم لجند قريش، مع أحابيشها المتحمسين فى الدين، المعظمين للكعبة والأشهر الحرم، وكانوا يرون محمداً قد خرق تلك التحريمات فجازت عليه الحرب، ثم فرسان كنانة وأهل تهامة وأشاوس غطفان وأشداء نجد، وكان هؤلاء بدورهم قد وتروا فى زعامتهم المغدورة، ولم ينس الغطفانيون من بنى فزارة، مقتل عقيلتهم الشريفة أم قرفة، التى مزقها زيد بن حارثة فى غزوة مفاجئة أخذتهم على غرة. لكن غطفان لم تكن ذات مصلحة مباشرة مادية فى تلك الحرب الشاملة، ولأن اليهود قد أدركوا ذلك، فقد تعاقدوا مع الطماع الأحقق المطاع عيينة بن حصن الفزارى على اتفاق يحصل بموجبه عيينة على تمر خبير لمدة عام كامل، فوافق من فوره^(٥٦).

وتحرك الجيش العظيم، الذى يربو على عشرة آلاف من المقاتلين الأشداء، بين فيافى الحجاز ميمما شطر يثرب، ليكون أول جيش يجمعه العرب بهذا الحجم تعرفه جزيرة العرب تحت قيادة واحدة، وتحت رايات قريش، لينزل الجمع الهائل بمجمع الأسياح من رومة بين الجرف والغابة، قرب جبل أحد، مركز الانتصار الأول لقريش، ولم تكن المعركة هذه المرة بغرض الانتقام فقط، إنما بغرض التصفية النهائية، وهو الأمر الذى بلغ يثرب فقامت من فورها بالتعبئة القصوى، لكن لتصل تعبئتها فقط إلى ثلاثة آلاف رجل، إزاء جيش جرار من المحاربين.. ووقع فى أيدي المسلمين!!

ويوجز لنا ابن هشام قصة تحزيب الأحزاب فى قوله:

كانت غزوة الخندق فى شوال سنة خمس.. كان من حديث الخندق أن نفرأ من اليهود، منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى، وحيى بن أخطب النضرى، وهوذة بن قيس الوائلى، وأبو عمار الوائلى، فى نفر من النضير ونفر من بنى وائل، هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى قدموا على قريش مكة، فدعوه إلى حرب رسول الله -

(٥٦) البلاذرى: أسباب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ج ١، ص ٣٤٣.

صلى الله عليه وسلم.. وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوههم إلى حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم.. قال ابن إسحاق: فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بنى فزارة، والحارث بن عوف.. في بنى مرة، ومسعر بن ربيعة فيمن تابعه من قومه من أشجع^(٥٧).

ويستكمل الطبرى:

فلما سمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضرب الخندق حول المدينة.. وكان الذى أشار على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالخندق سلمان الفارسي، وقال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا^(٥٨).

ومعلوم أن الخندق أمر لم تعرفه العرب قبلا، ووافق الرسول من فوره على الخندق الفارسي واستحسنه، ووجد فيه خلاصا مفاجئا، وفكرة لماعة لإيقاف الهدير الآتى، ومن ثم كانت مكافأة صاحب الفكرة المنفذة في قول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -: «سلمان منا آل البيت»، حيث جاء الخندق ليكون إنقاذا حقيقيا لموقف ميثوس منه، وكان القائد النبيل سيد الخلق أجمعين، قد استفاد من درس أحد وأخطائها، ومشورة عبد الله بن أبي بن سلول، التى كان قد أهملها زمانها وسط حمية رجاله وحماسهم للخروج من يثرب إلى أحد. وأدرك القائد أنه إزاء حشد لن يعود إلا بعد إسقاط دولته، والقضاء عليه وعلى رجاله، ومن ثم كان الخندق إنقاذاً للموقف على عدة مستويات:

الأول: أن حلف الأحزاب قد قام بغرض خوض معركة خاطفة حاسمة تنهى دولة الرسول فى يثرب وتسقطها، اعتمادا على حشده لقوى بشرية عظيمة، بينما اتجهت خطة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى تحصين المدينة بالخندق لإفقاد الحلف مزية المعركة السريعة الحاسمة، وإجباره على المكوث فى البرد القارس، وهو ما كان كفيلا بفقد الأحزاب لزخم القتال، وما قد يطرأ من نتائج وخيمة مع طول الانتظار، خاصة مع ما يحمله هذا الحلف من تناقضات بين المتحالفين، وبذلك أفقد الخندق المهاجمين عوامل انتصارهم، وأطاح بالتفوق العددي.

ثانيا: كان الخندق تأمينا عسكريا لم يسبق للعرب معرفته، حيث يضمن أكبر قدر من الأمان

(٥٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٥٨) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٦.

لمن هم فى داخل يثرب، لديهم الغذاء والميرة، بينما يترك المهاجمين فى العراء مع ما جمعوا من ميرة - مهما كان حجمها - فهو حجم ما أمكن للدواب حمله، وهو آيل إلى نفاد إن طال الحصار دون اختراق الخندق.

ثالثاً: أن الخندق قدم حلاً مثالياً لمشكلة كبرى وهو ما أوضحه عبدالهادى عبدالرحمن، فضمن عدم وقوف المسلمين وحدهم لملاقاة الأحزاب، إنما ضمن بقاء بقية سكان يثرب من غير المسلمين بالداخل، وهو الضمان الذى جعل من لم يسلموا بعد، والمنافقين فى محنة كبرى، ففى العراء يمكن للمنافقين ألا يحاربوا، بل أن يجدوا فرصة وغرة من المسلمين وقت هياج المعركة واختلاط الحابل بالنابل، أما وهم بالداخل، وإزاء جيش سيضطر إلى العبور إن استطاع ليستأصل الجميع دون تفرقة، فهو ما يعنى أن يثرب أصبحت تتعرض لغزو حقيقى، ودخول الغزاة على أهلها، وهو ما يعنى أيضاً أن كل فرد بالمدينة قد انخرط راغباً أم غير راغب فى جيش الدفاع عن بلده، وسواء، كان مسلماً أم لا. لقد حول الخندق أمر المدينة إلى وطن، وأجج الشعور الوطنى، فكل رجل زوجة وأطفال ومال وبيت وحقل يدافع عنهم. لقد جعل الخندق من المعركة غزواً للوطن ودفاعاً وطنياً، ومن ثم سيحارب الرجال والبيوت وسيحارب الشجر والحجر، وستحارب النساء بل وربما الأطفال، سيحارب المشرك والمنافق. إن الخندق كان دعوة لقريش وأحزابها لغزو حرمة بلد وبيت ودار، فحول المدينة جميعاً إلى رجل واحد، وحول معادلة الثلاثة آلاف جندى إزاء العشرة آلاف إلى معادلة أخرى، إلى شعب يدافع عن وطنه ضد غزاة، شعب تكتل جميعه مع دروب بلده وحوائطها وزرعها وسوائمها، إزاء جيش وإن كان عظيماً فهو يفترش العراء، بعيداً عن دياره، يأكل ميرته لتنقص كل يوم، ليس بينهم ألفة، فهم أحزاب لا أهل بلد واحد، يأكلون بعضهم بعضاً بتضارب المصالح بينهم، إنه الأمر الذى لا محالة يستدعى الآن ويقوة نصيحة عبد الله بن أبى بن سلول وهو يقول للنبي فى أحد:

يا رسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا (٥٩).

وهكذا؛ ما إن بلغ سيد المدينة - صلى الله عليه وسلم - أمر مسير يهود بين العرب لتحزيهم حتى ضرب الخندق الفارسى، لأول مرة فى جزيرة العرب، ثم نرى هذا السيد، النبى، الرسول،

(٥٩) السهيلي: الروص الأنف... سبق ذكره، ح ٣، ص ١٤٩.

القائد، فى مرآة قادة التاريخ، وهو يقف نموذجاً بين رجاله، يحمل أترية الخندق، ويضرب بفأسه مع رجاله كتفا بكتف ويداً بيد.

ولم تتوان قريظة عن الوفاء بمعاقلها مع النبى، فأمدت جيشه بآلات عظيمة للحفر ونقل الأترية، وهو ما قرره كتبنا الإخبارية وهى تمر على الخبر سريعة دون توقف، فى برقية موجزة مقتضبة تقول: «واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة، ومساحى وكرازين ومكانل»^(٦٠).

ونستمع هنيهة للصحابى البراء وهو يروى نتفا من أيام حفر الخندق فيقول:

لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخندق، رأيته ينقل التراب من الخندق، حتى وارى عنى التراب جلد بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعتة يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا، ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها .. أبينا، أبينا»^(٦١).

ويستكمل ابن إسحاق قصة الخندق فيقول:

ولما فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسياال من رومة، بين الجرف وذى غابة، فى عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذى نغمى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب عسكره هنالك، والخندق بينه وبين القوم .. حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا:

(٦٠) الطبرى: سيرة .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٣٢.

(٦١) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٨.

والله، إن هذه لمكيدة

ما كانت لتكيدها العرب^(٦٢).

هنا وجدت قريش وأحزابها إزاء تكتيك عسكرى جديد لم تكن تعرفه العرب، ووقع فى أيديها، ومن ثم أرسل سيد الأحزاب إلى سيد المدينة يستفز فيه القتالية العربية، ليخرج إليه من وراء الخندق قائلاً فيما كتب:

باسمك اللهم؛

فإني أحلف باللات والعزى، وأساف ونائلة، وهبل، لقد سرت إليك فى جمع وأنا أريد ألا أعود أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بالخندق، قد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب لتعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك منى يوم كيوم أحد.

فكان رد سيد الخلق على سيد مكة بقوله - صلى الله عليه وسلم -:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد،

من محمد رسول الله، إلى صخر بن حرب، قد أتانى كتابك، وقديما غرك بالله الغرور، أما ذكرت أنك سرت إلينا، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا؟

فذلك أمر يحول الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك ياسفيه بنى غالب^(٦٣).

معجزات الخندق:

ثلاثة آلاف كبير وصغير وشاب وحدث، هى أقصى إمكانات التعبئة العسكرية، التى تمكنت

(٦٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١، ٢٦٣.

(٦٣) الطبرى: سيرة... سبق ذكره، ح ٢، ص ٦٥٧.

يثرب من حشدها، إزاء عشرة آلاف مقاتل يحاصرون مدينتهم، وليس هناك خبر عن إمداد سماوى، ولم يأت جبريل وجنده، ومن ثم وقف الرواة مع الحديث البديل عن التعبئة السماوية، مع تفاصيل بها عبر وعود، وهى التفاصيل التى يمكن من خلال بعض الثغرات فيها المرور إلى حديث الأحاجى والمعجزات، ومنها رواية ابن إسحاق التى تقول:

حدثت عن سلمان الفارسى: أنه قال: ضربت فى ناحية من الخندق، فغلظت على صخرة، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريب منى، فلما رأتى أضرب، ورأى شدة المكان على، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب ضربة، فلمعت تحت المعول برقعة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقعة أخرى، ثم ضرب به ثالثة فلمعت تحته برقعة أخرى، قلت:

بأبى أنت وأمى يارسول الله، ما هذا الذى رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟

قلت: نعم.

قال: أما الأولى فإن الله قد فتح على بها اليمن، أما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب وأما الثالثة، فإن الله فتح على بها المشرق^(٦٤).

حتى الآن والأمر واضح ليس فيه ألغاز، وطبيعى تماما، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يضرب الصخرة الغليظة بالمعول الحديدى فتقذح شرراً، فيتساءل سلمان، ويرد الرسول بالحكمة النبوية عن فتوحات قادمة، فى وقت يحتاج فيه الجند إلى تقوية الروح المعنوية، وهم فى أسوأ حال، وقد أخذ الرعب بهم، مع ذلك الحصار الهائل الذى تكثف فيه العرب كتلة رجل واحد ضدهم، وهو الرد الحكيم الكفيل بطمأننة النفوس الجازعة. فالدلالة فيه أن كل ذلك الذى يحدث زوبعة طارئة منتهية، ليس ذلك فقط، بل إن الجزيرة جميعاً ستكون ملك أمر المؤمنين، وبعدها الفتوح الكبرى لأقطار الأرض جميعاً، ولكن ذلك الحديث الذى قصد منه النبى بحكمته إذهاب الغم عن المؤمنين والكرب، تلقفته مع ذلك البرق اللامع روايات تذهب به مع الزيادات التدريجية إلى دائرة الأساطير، وتتحول آمال النبوة المقبلة مع تلك الروايات إلى تجليات كبرى انفلت معها الشر ليصبح ضوءاً مبهرأ معلناً وجود قدرات كبرى إلى جوار النبى ورجاله، حيث يروى النسائى ذات الرواية لكن مع بعض الإضافات فيقول:

(٦٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٢.

فندر ثلث الحجر، وسلمان الفارسي قائم ينظر، فبرق مع ضربة رسول الله برقة، ثم ضرب الثانية وقال: وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلمات الله، وهو السميع العليم، فندر الثلث الآخر وبرقت برقة، فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة وقال: وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم، فندر الثلث الباقي، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذ رداءه وجلس، فقال سلمان: يا رسول الله رأيتك حين ضربت، لا تضرب ضربة إلا معها برقة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: أي والذي بعثك بالحق، قال: فإني حين ضربت الضربة الأولى، رفعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة، حتى رأيتها بعيني، قالوا: يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريها ونخرب بأيدينا بلادهم، فدعا بذلك.

قال: ثم ضربت الضربة الثانية، فرفعت لي مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني، قالوا: يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريهم، ونخرب بأيدينا بلادهم، فدعا.

ثم قال: ثم ضربت الثالثة فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعيني، ثم قال رسول الله: دعوا الحبشة ما وادعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم^(٦٥).

ولا ينتهي حديث الصخرة والبرقات الثلاث إلى هنا، إنما يتزايد ويتضخم، لتتحول الشرارات الثلاث - التي رآها سلمان، لأنه كان بجوار النبي - صلى الله عليه وسلم - والتي استدعت دهشة النبي وهو يسأل سلمان: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ - تتحول إلى برق إعجازي أسطوري يسجل آية عظمى، فيدونها ابن الأثير بعد صياغتها الجديدة، ليس فقط لإبراز المعجزة، إنما أيضا لإبراز قوة النبي الجسدية الهائلة التي صدعت الصخرة فيقول:

فأخذ المعول، وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضواء ما بين لابتي المدينة فكبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكبر المسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة كذلك، ثم خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عما رأى من البرق، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أضواء الحيرة وقصور كسرى في البرقة الأولى، وأخبرني جبرائيل أن

(٦٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٣.

أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء. وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها^(٦٦).

أما البيهقى، باعتباره صاحب كتاب دلائل النبوة، وجامع تلك الدلائل التى رآها جميعاً إعجازية، فقد وجد فى قصة الصخرة مناسبة طيبة ليقدمها بما يليق بها من دلائل النبوة، ليكرر، ولكن ليفصل القول بقوله:

فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيتها (أى لابتى يثرب)، حتى لكان مصباحاً فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكبيرة فتح، فكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الثانية فصدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيتها، حتى لكان مصباحاً فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكبيرة فتح وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الثالثة فكسرها، وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتيتها، حتى لكان مصباحاً فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكبر المسلمون.

فقال سلمان: بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد رأيت شيئاً ما رأيت قط، فالتفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى النجوم فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يارسول الله بأبينا أنت وأمنا، قد رأيناك تضرب، فخرج البرق كالسراج، فرأيناك تكبر ولا نرى شيئاً غير ذلك، فقال: صدقتم، ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم، أضاء لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية، فبرق الذى رأيتم، أضاء لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل - عليه السلام - أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل - عليه السلام - أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا.

(٦٦) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٩.

ويعقب البيهقي تعقيباً واضح المدلول بقوله: إن الرسول أراد بذلك أن «يلغهم النصر» (٦٧). وقد استدعى حديث تلك الصخرة تداعيات وأخباراً عن صخور أخرى وصياغات أخرى، وهو ما جاء في رواية ابن هشام عن ابن إسحاق، تقول:

وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني فيها من الله عبرة في تصديق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون، فكان مما بلغتني، أن جابر بن عبد الله كان يحدث: أنه اشتدت عليهم في بعض الخندق كدية، فشكروا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فدعا بإناء من ماء ففعل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعوه، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق نبياً، لانهالت حتى عادت كالكتيب (٦٨).

وإذا كانت خاتمة حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البيهقي: فأبشروا، مع الإلحاق التوضيحي: «يلغهم النصر»، كان القصد منها أن يرفع روحهم المعنوية بالاستبشار، بل ويصبح ذلك النصر سهلاً وبسيطاً حين الشأن إذا قورن بما بيته الأيام القادمة للمسلمين من فتوحات لأقطار الدنيا، فإن هناك من الصحابة من كان له رأى آخر، إزاء حصار المدينة، وما أخذ المسلمين من رعب وفزع حتى بلغت القلوب الحناجر، فهذا معتب بن قشير يعقب على حديث الصخرة والفتوح المقبلة ساخراً يقول برواية ابن الأثير:

ألا تعجبون؟!

يعدكم الباطل!!

ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا؟! (٦٩).

أو برواية ابن هشام:

كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط؟! (٧٠).

(٦٧) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٤١٩.

(٦٨) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٠.

(٦٩) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٩.

(٧٠) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

ولهذا السبب، ولتلك القولة التي كانت تعبر عن مكنون صدر الرجل إزاء حال واقع بصراحة العربي التي لا تعرف التزويق، وياندفاعه الحر، فقد أدرج أهل الأخبار معتب بن قشير في طائفة المنافقين، لكن ليلاحظ ابن هشام أن ابن قشير لا يمكن احتسابه منافقا، لأنه كان من مقاتلي النصر البدرى الأكبر، وهم من غفر الله لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، وأصبحوا جميعا من أهل الجنة، وفي ذلك يقول: «وأخبرني من أثق به من أهل العلم، أن معتب بن قشير لم يكن من المنافقين، واحتج بأنه كان من أهل بدر»^(٧١)، ورغم ذلك، فقد جاء الوحي يرد على ابن قشير قائلا: «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا» (١٢/ الأحزاب).

ومع الحصار، واشتداد الأزمة، يستطيب رجالنا حديث الأحاجي ليستمرئوا الاستمرار فيه، فيروى ابن إسحاق:

وحدثني سعيد بن مينا أنه حدث أن ابنة بشير بن سعد أخت النعمان بن بشير، قالت: دعنتي أم عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبى، ثم قالت: أى بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما.

قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا ألتمس أبى وخالى، فقال: تعالى يا بنية؛ ما هذا معك؟ قالت: قلت: يارسول الله هذا تمر بعثتني أمى به إلى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله ابن رواحة، يتغذيانه، فأمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ فى أهل الخندق أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب^(٧٢).

ومع الجوع إبان العمل الدؤوب الذى يسابق الزمن قبل وصول قريش، تتنالى أحاديث الطعام المبارك، فى معجزات تتنالى شبيهة بالمعجزات اليسوعية المعلومة، ومثله رواية أخرى عن ابن إسحاق عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبد الله قال:

عملنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الخندق، فكانت عندي

(٧١) الموضع نفسه.

(٧٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٠.

شويهة غير جد سميئة، فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمرت امرأتى فطحنت لنا شيئا من شعير فصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاه فشويناها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما أمسينا وأراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الانصراف من الخندق، وكنا نعمل فيه نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا، قلت: يا رسول الله إنى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئا من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معى إلى منزلى، وإنما أريد أن ينصرف معى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحده.

فلما أن قلت ذلك، قال: نعم، ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت جابر بن عبد الله، قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقبل الناس معه، فجلس وأخرجناها إليه، فبارك وسمى ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها^(٧٣).

وذات الرواية تروى عن جابر أيضا، لتفسر السر وراء زيادة ذلك الطعام القليل ليكفى ألف رجل على الأقل ويفيض عنهم، فنقول:

وجئت امرأتى فقالت: بك وبك.. فأخرجت لنا عجينا فبسق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبسق وبارك، ثم قال: ادع خبازة فلنخبز معك، وأقدحى من برمتك، ولا تنزلوها، وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانصرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هى، وإن عجينا كما هو^(٧٤).

ورغم كل الأحاجى وروايات المعجزات، فإنك تلمس واقع الحال واضحا، كما جاء فى رواية ابن كثير التى شرحت كيف عظم البلاء على الناس، واشتد الخوف بالمسلمين، لا تغنيهم فيه برمة تفور أو تمر وشويهة مباركات، حتى ظن المؤمنون كل ظن، وأخذ كثير منهم يتهرب من العمل فى ذلك البرد القارس، مثل أوس بن قيطى الذى جاء للنبي يتحدث نيابة عن قومه: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة، بينما طائفة أخرى تهبط المعنويات وتثبط الهمم وتقول للناس: يا أهل يثرب لا مقام لكم هنا فارجعوا، بينما يسترسل الوحى معقبا على تلك المواقف المتخاذلة ليقول:

(٧٣) الموضع نفسه.

(٧٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٠.

«وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا»
(١٣/ الأحزاب)

وهو ما يؤكد تقرير الطبري عن فريق آخر، فقد «أبطأ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عملهم رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف من العمل، ويتسللون إلى أهاليهم بغير علم الرسول» (٧٥).

قريظة تنقض العهد:

وحفر أكبر خندق عرفته الجزيرة، ويمتنع به أهل يثرب من هجوم الأحزاب، مع محاولات يائسة لعبوره من قبل المهاجمين، انتهت بفشل ذريع مع التراجع، مما أدخل الطمأنينة بعض الشيء في النفوس الجازعة لحصانة خندقهم، ولم يبق غير الانتظار لنفاد ميرة المهاجمين، ومجادة كل من يحاول اقتحام الخندق.

وقد أثبتت قريظة حتى حفر الخندق، وعيها الدقيق بموقفها الشديد الحساسية، وحتى لا يكون مصيرها مصير قينقاع ونضير، فالتزمت بنود صحيفة المعاقل، وأمدت المسلمين بالمساحي والمكائيل والكرازين، من أدوات الحفر اللازمة، وكان الموقف الدقيق يحتاج تحوطا، فقد أحاط الخندق بالمدينة تماما، اللهم إلا جبل سلع بالخلف، وكان بذاته مانعا طبيعيا قويا، يكفيه بعض الرماة ليصبح حصنا منيعا لا يمكن اجتيازه، ثم حصن قريظة القوي المتين على حافة المدينة وبمواجهة الأحزاب، يطل عليهم مباشرة، وهنا كانت نقطة الضعف التي كان يدركها جميع الأطراف: المسلمون، وقريظة، والأحزاب، فكان يكفي أن تفتح أبواب حصن قريظة، ليمر منها جند الأحزاب إلى داخل يثرب لينتهي الأمر فوراً، وقد وعى المهاجمون ذلك وقرروا اللعب عليه، فتحرك محزب الأحزاب (حيى بن أخطب) زعيم النضير المطرود من يثرب، ليدق أبواب حصن قريظة طالبا لقاء زعيم قريظة (كعب بن أسد). وتدور هنا أقلام كتاب السير والأخبار قصة ما حدث في ذلك الموقف الدقيق بقولها: «وخزج عدو الله حيى بن أخطب حتى أتى كعب ابن أسد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع الرسول - صلى الله عليه وسلم - على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب حيى بن أخطب، أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه ورد عليه في الحوار التالي، كما أورده كتبنا الإخبارية:

(٧٥) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٦.

حيى: ياكعب افتح لى .

كعب: ويحك يا حيى، إنك امرؤ مشثوم، إنى عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بينى وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا .

حيى: ويحك، افتح لى أكلمك .

كعب: ما أنا بفاعل .

حيى: والله إن أغلقت دونى إلا جشيشتك أن أكل معك منها .

وهنا، وحيى يستفز كعب، يعيره بمسبة كبرى فى العربان، وينعته بما هو أنكى من البخل وإغلاق الباب دون جائع، يفتح له كعب باب الحصن ليخلق خلفه سريعا، ويستمر الحوار:

حيى: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها.. قد عاهدونى وعاهدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه .

كعب: جئتنى والله بذل الدهر، بجهام قد هراق ماءه، يرعد ويبرق وليس فيه شىء . ويحك، دعنى ومحمداً وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء .

وتستمر كتبنا الإخبارية فى الرواية لتقول: «فلم يزل حيى بكعب، يفتله فى الذروة والغارب، حتى سمع له، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقا، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً، أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرىء مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم -» (٧٦) .

وهكذا تقرر كتب السير أن قريظة قد نقضت العهد، لكنها لا توضح علامات ذلك النقض المحورية، والتي كان يمكن أن تكون قاتلة ونهائية لو فتحت أبواب حصونها، لكنها لم تفعل، ويبدو أن المقصود بالنقض هنا هو تفكير قريظة، وإعمالها ذلك التفكير خلال أيام، تم فيها علاج الموقف، المتأزم من جانب النبى، قبل أن تسقط قريظة فعلا فى خيانة واضحة .

وبلغ النبى بما له من عيون بما يحدث فى حصون بنى قريظة، وبلغ الأمر كذلك المسلمين المجاهدين المكوددين الفرعين، وأخذ بهم الخوف والرعب، فطلب النبى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، وقال لهم: انطلقوا

(٧٦) نفسه: ص ٥٧١ . انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١، انظر أيضاً ابن الأثير.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٠ .

حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ ثم أضاف القائد الحصيف وهو يرى معنويات رجاله في التداعي «فإن كان حقا، فالحنوا لى لحنا أعرفه، ولا تفتوا فى أعضاء الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس» (٧٧).

ووصل الوفد حصن قريظة ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمر منه، فقالوا: أكلت بإير أبيك، (٧٨).

وهكذا بدأ الحوار بخطاب تهديدى، كان رده تحديا بجراح الألفاظ وقبيح الشتائم، وهو يصوره ابن هشام بقوله: «إن رجال وفد النبى خرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتهم سعد بن معاذ، وشاتموه، وكان رجلا فيه حدة، فقال له سعد بن عباد: دع عنك مشاتمهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسلموا عليه وقالوا: عضل والقارة (الرجيع)، أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه».

وفهم النبى اللحن والرمز الهامس، وكان المسلمون ينتظرون إجابة وقد زاغت منهم الأبصار، فما كان من القائد الحكيم إلا أن رد بأنه لا شيء إطلاقا يستدعى كل ذلك الفرع، وأن كل شيء على ما يرام، وهو ما تمثل فى صيحته التهليلية «الله أكبر، أبشروا يامعشر المسلمين» (٧٩).

وتأزمت الأزمة فعلا، وكان لابد من تحرك سريع وحاسم، قبل أن تقدم قريظة بالفعل على فتح أبوابها للأحزاب، وتستجيب لدافع العصبية والثورة لبنى جلدتها نضير وقينقاع، حيث تفيد مصادر أخرى أنهم اشترطوا على السعدين لمواصلة الالتزام بالصحيفة، والاستمرار فى المدد، إعادة بنى النضير للمدينة (٨٠). ومن ثم بدأت دراسة الموقف مرة أخرى على أناة وهدوء وتدبر، لتصل إلى نتيجة مفادها: أنه إذا كانت نقطة ضعف المدينة هى حصن قريظة، فإن بين الأحزاب نقطة ضعف أخرى هى غطفان الفزارية، أتباع الأحق المطاع الطماع عيينة بن حصن، فهم ليسوا أبداً أصحاب سيادة وثروات مثل المكيين، كما لم يكونوا أصحاب مصلحة فعلية فى القضاء على محمد، فلم يدفعهم إليه إلا ثأر أم قرفة، والحصول على المغانم، وهو ما يمكن علاجه بالمغريات المالية.

(٧٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

(٧٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٠٣.

(٧٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

(٨٠) أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ج ٢، ص ١٥٠٠.

وعند هذه اللحظة من التفكير المتأنى أرسل النبي سرّاً إلى قائد غطفان: عيينة بن حصن والحارث بن عوف، يفاوضهما على الانسحاب من الأحزاب مقابل ثلث ثمار المدينة، وجرت المساومات السرية أخذاً ورداً، اشترط معها عيينة النهم نصف تلك الثمار، لكن ليشترط عليه النبي في مقابل ذلك الإيقاع بين الأحزاب وبين قريظة^(٨١).

وقام النبي يخبر السعديين بما اتفق عليه مع غطفان، فيحتج السعدان ويقولان: «إنا نرى ألا نعطيهم إلا السيف»، ليرد النبي على سعد بن معاذ «فأنت وذاك»، فيتناول ابن معاذ الصحيفة ويمحو ما بها من تعاهد اتفاقي ويقول: «ليجهدوا علينا»^(٨٢)، بينما يأتي من غطفان رجلها الداهية نعيم بن مسعود الأشجعي ليرى النبي ويسمع منه خطته للإيقاع بين الأحزاب، فيقول له الرسول - صلى الله عليه وسلم -:

خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة^(٨٣).

ويفهم نعيم المقصود ويستوعب الخطاب ويبدأ في التنفيذ، ويدرك أن الأمر الآن أمر عسكري وخدع، فالعبرة بالنهايات والخواتيم، وليست العبرة بقواعد قد تؤدي إلى دمار، وعليه يروى ابن هشام كيف تمت الخدعة وكيف حبكها نعيم بن مسعود، فيقول:

ثم إن نعيم بن مسعود.. بن غطفان، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال:.. إن قومي لم يعلموا بإسلامي^(٨٤)، فمرني بما شئت، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخذل عنا إن استطعت فالجرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة.. فقال: يا بني قريظة.. إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وأن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا

(٨١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مح ٢، ج ١، ص ٥٢، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٢.

(٨٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مح ٢، ج ١، ص ٥٣، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٢.

(٨٣) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٥.

(٨٤) لم ير كتاب السير في فعل نعيم بن مسعود إلا إسلاماً، دون أن يقفوا مع اتفاق غطفان مع النبي.

مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم، يكونوا بأيديكم، ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنجزوه .

فقالوا له: لقد أشرت بالرأى .

وخرج حتى أتى قريشا، فقال لأبى سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش .. إنه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم، فاكنتموا عنى، فقالوا: نفعل، قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين: من قريش وغطفان، رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم .

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

وأخذت الريبة برؤوس قريش، ثم استبطأت فتح قريظة أبواب حصونها للأحزاب، وزاد الأمر توتراً قدوم تلك الليالى الشاتية الفارسة على رجالهم فى العراء، مع النفاد المتزايد للميرة، وهنا يقول لنا ابن هشام:

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس .. أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة .. فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال كى نناجز محمداً .. فأرسلوا إليهم: إن اليوم سبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا .. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم، حتى تعطونا رهنا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا لبنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلادكم .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا
رهنا، فأبوا عليهم ..

وخذل الله بينهم ..

وبعثت عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ
قدورهم وتطرح أبنيتهم .. ثم قال أبو سفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ما
أصبحتم بدار مقام .. أخلفتنا قريظة .. ولقينا من شدة الريح ما ترون ..
فارتحلوا فإني مرتحل .. فانشمروا راجعين إلى بلادهم^(٨٥).

ورغم أن ابن هشام يعلم أين كانت الخديعة، وكيف دبرت، ومن دبرها، للإيقاع بين الأحزاب
وقريظة، فإنه يقول بهدوء المؤمن الواثق: «وخذل الله بينهم». وحتى يتضح ذلك التدخل
الإلهي، الذي يجب أن تظهر له مظاهر واضحة، في أدوات فاعلة تليق بحجم فاعلها فقد ورد
القول عند ابن قتيبة:

أما رياح الشمال والجنوب فقد ساءلت بعضها عمن يتوجه لمساعدة
رسول الله، عن عكرمة قال: لما كانت ليلة الأحزاب قالت الجنوب للشمال:
انطلقى نمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت الشمال: إن الحرة لا
تسرى بالليل، فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا^(٨٦).

وهو الأمر الذي جاء تأكيده وحيا يقول:

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود
فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً»
(٩ / الأحزاب).

وهي الجنود الملائكية التي لم تحارب أبداً في الخندق، وهو ما جاء مشروحاً عن مجاهد:
«وجنود لم تروها يعني الملائكة، ولم تقاتل الملائكة يومئذ»^(٨٧) وهو ما يعني أن الملائكة كانت
وراء تلك الريح الصرصر العاتية، وأنها أخذت تعبث بالمهاجمين وتقلع خيامهم وتكفأ قدورهم
وتطفئ نارهم.

وهكذا يعود ابن هشام من قوله: «وخذل الله بينهم، إلى القول بقدرات لله أعظم بكثير من

(٨٥) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

(٨٦) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، مج ٢، ج ١، ص ٢١١.

(٨٧) البيهقي: دلائل .. سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٤٨.

أساليب الخداع الإنسانى، فيتابع القول: «وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم»، مصوراً فعل الطبيعة قاصراً فقط على الأحزاب، لكن بعد سنوات من الخندق، نجد الصحابى أبا حذيفة يحكى لجلسائه مشاهد القتالية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول له جلساؤه: والله لو كنا شهدنا ذلك، لكننا فعلنا وفعلنا، فيغتاظ أبو حذيفة من سهولة الكلام، بعيداً عن واقع الفعل، ليحكى لهم عن تلك الليالى الشاتية قوله:

لا تمنوا ذلك؛ لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبوسفيان ومن معه فوقنا وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهى ظلمة ما يرى أحداً إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبى - صلى الله عليه وسلم - ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هى بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم ويتسللون، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك^(٨٨).

ويختتم ابن إسحاق وقعة الخندق، ومع آخر القوافل المرتحلة من الأحزاب وغبارها يسطع فى الأفق تشيعها كلمات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول لأصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، لكنكم تغزونهم»، ثم يعقب راوى السير بقوله: «فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان رسول الله يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة .. رواه البخارى^(٨٩)». وقولة الرسول هنا تعبر تعبيراً صادقاً عن واقع حال قريش بعد الخندق، فلم تعد ذلك العدو الفتى المهدد الهادر، إنما شاخت وضاعت هيبتها بين العربان.

وهكذا جاء الحدث الكبير الذى تمثل فى تحزيب أحزاب العرب ضد يثرب، بنتائج أيضاً كبيرة لكن بعكس ما توقع الأحزاب وما كانوا يرجونه، فقد تلاحمت يثرب، ورغم جبن بعضهم وهربهم، وتفاق آخرين، ورغم ما مر عليهم من ليالى رعب وفزع شاتية، فإن الحدث أيقظ لدى الناس شعوراً وطنياً جارفاً زاد من تلاحم المهاجرين والأنصار، حيث شعر المهاجرون أن الدار قد أصبحت دارهم، وصدق الله وعده لنبيه بانضمام الأحزاب راجعين إلى بلادهم، ناهيك عن النتيجة الأهم والأخطر من كل هذا، وهى تحرير يثرب تماماً من العنصر اليهودى، بغزوة قريظة، التى قضت على اليهود، وجعلت المنافقين عرايا من أى حلفاء، مما اضطرم فى النهاية للخضوع التام لسلطان الدولة.

(٨٨) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٦.

(٨٩) نفسه: ص ١١٧.

مذبحة قريظة:

عن عائشة: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل وجاءه جبريل فرأيته من خلال الباب قد عصب رأسه الغبار، فقال: يا محمد أوضعتم أسلحتكم؟ فقال: وضعنا أسلحتنا، فقال: إنا لم نضع أسلحتنا بعد، أنهد إلى بنى قريظة، ثم قال البخارى.. عن أنس بن مالك قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بنى غنم، موكب جبريل حين سارع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بنى قريظة (٩٠).

أو برواية الطبرى:

فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معجراً بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة، عليه قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة، وأنا عامد إلى بنى قريظة، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منادياً فأذن في الناس:

من كان سامعاً ومطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة (٩١).

ولمزيد من التأكيد على أن المسير إلى قريظة كان أمراً إلهياً، حمله جبريل إلى الرسول الأمين، يقدم البيهقي الشواهد الدالة على مقدم مبعوث الإله الأول جبريل، يحمل ذلك الأمر السماوى، فى قوله:

وخرج النبى فمر بمجالس بينه وبين قريظة، فقال: هل مريبكم من أحد؟ قالوا: مر علينا دحية الكلبي على بغلة شهباء، تحته قطيفة من ديباج، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : ليس ذلك بدحية، ولكنه جبريل عليه السلام، أرسل إلى بنى قريظة ليزلزلهم ويقذف فى قلوبهم الرعب.

هذا؛ ومن المعلوم أن دحية هذا رجل معلوم الشأن لأهل يثرب، فهو دحية بن فروة بن فضالة، من الخزرج، وكان صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٩٢).

وطاعة لأمر السماء، خرج المسلمون إلى بنى قريظة ليضربوا عليهم الحصار، ولما يهدأ بعد

(٩٠) نفسه: ص ١١٩.

(٩١) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨١.

(٩٢) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩.

غبار سوائم وخيول الأحزاب المغادرة . واصطف جنود الرحمن يتحلقون حول الحصون القرظية ، ويصل الرسول إلى مقدمة الدوائر المقاتلة مقترباً من الحصون ، وبينما يصنع له أصحابه بالحجف ما يشبه البوق ليسمعهم كلامه ، كان يهود قريظة يرهفون الأسماع وهم يرجفون لندائه - صلى الله عليه وسلم - :

يا إخوة القردة والخنازير:

لكن ليرد المرتعدون:

يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً!! (٩٣) .

ليعود النبي يناديهم:

يا إخوان القردة:

هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟

وتفهم قريظة الرسالة لترد راعشة:

يا أبا القاسم ما كنت جهولاً!! (٩٤) .

وأمام ما تراه قريظة ، أخذت تصرخ طالبة من محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يرسل إليهم من حلفائهم أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسى ، وسمح الرسول لأبى لبابة بالمرور إلى حصونهم ليسمع منهم ، ونصت مع كتب السير لذلك المسمع يقول:

قالوا: يا أبا لبابة: ماذا ترى وماذا تأمرنا به فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟

ولم نجد قولاً لأبى لبابة ، بل إشارة وحركة ذات معنى ، فيورد ابن كثير رده على التساؤل:

فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه وأمره عليه ، يريهم أنه إنما يريد بهم الذبح (٩٥) .

وهو ذات ما يرويه الطبري في قوله:

ثم أنهم بعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف ، - وكانوا حلفاء الأوس - .

(٩٣) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .

(٩٤) الطبري: تاريخ .. سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٥٨٢ .

(٩٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

نستشيره فى أمرنا، فأرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليهم، فلما رأوه

قام إليه الرجال

وجهش إليه النساء

والصبيان يكون فى وجهه

فرق لهم

وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم

ثم أشاره بيده إلى حلقه

: إنه الذبح^(٩٦).

وندخل مع الطبرى إلى حصن قريظة الكبير، نستمع لما يدور فى الداخل، فى تلك الهذيات البارقة الراجعة من الزمن، لنسمعه يطالع ما يحدث ويقول:

وقد كان حى بن أخطب النضرى، قد دخل على بنى قريظة فى حصونهم، حيث رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد بما كان قد عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم:

يامعشر يهود؛ إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالات ثلاثا، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدق.. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً.. قال: فهلم نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد.. ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنى، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن الليلة ليلة سبت، وأنه عسى يكون محمد وأصحابه قد أمّنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا؟!.. قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازما!!^(٩٧).

(٩٦) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٤.

(٩٧) نفسه: ص ٥٨٣.

وينتهي المشهد داخل الحصن بقرار من قريظة، أنها لن تقاتل، وأنها ستنزل على حكم رسول الله وتستأسر جميعاً، وبالفعل ينزلون في طابور طويل يكتف فرداً فرداً بالحبال التي تصلهم ببعضهم، لينتظروا مصيرهم، آملين في موقف الأوس أحلافهم لحقن دمائهم، مثلما فعلت الخزرج من قبل مع قبائل يهود التي خرجت بأرواحها، وتركت المال والعقار والعتاد، وبينما هم في وهمهم هذا، نسمع الطبرى يقول:

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في دار امرأة من بنى النجار (أى من الخزرج وليس من الأوس)، ثم خرج - صلى الله عليه وسلم - إلى سوق المدينة .. فخندق بها خنادق^(٩٨).

وقد بدا الأمر كما لو كان يسير حسبما توقعت قريظة من الأوس، حيث توثبت الأوس حول النبی تذكره بأن قريظة مواليتها دون الخزرج، وأنه سبق ومنح حياة يهود لمواليهم من الخزرج، يطلبون كرامتهم إزاء كرامة الخزرج في المواقف السابقة، وهنا يجيبهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «ألا ترصنون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك سعد ابن معاذ،^(٩٩).

في ذلك الوقت كان سعد يعانى من قطع أصاب أكحله (شريانه) بسهم غارب جاءه من خارج الخندق إبان الحصار، ولم تلجأ كتبنا التراثية هنا إلى حديث الأحاجي والمعجزات التي ينسبونها للنبي - صلى الله عليه وسلم - لأن سعداً لقي نهايته الفاجعة خلال أيام، حيث قام النبي - صلى الله عليه وسلم - يحسم له جرحه بنفسه كيا بالنار، لكن يده انتفخت ثم انفجر الشريان بالزيف، فعاد النبي إلى كيه مرة أخرى ليسد مخرج الدم بالنار فانتفخت يده مرة أخرى، أما الرواة فقد رأوا أن المعجزة لم تحدث هنا، لأن الأكحل إن قطع فلا علاج له كما أفادوا، فهناك ما يمكن علاجه بالمعجزات وهناك ما لا يمكن علاجه كقطع الأكحل.

وبينما سعد على حاله هذا، أرسل إليه النبي وجاء به في مشهد يرويه الطبرى بقوله:

فلما انتهى سعد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - صلى الله عليه وسلم -: قوموا إلى سيدكم .. فانزلوه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أحكم فيهم، قال: فإنى أحكم فيهم بأن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسي الذراري والنساء ..

(٩٨) نفسه: ص ٥٨٨.

(٩٩) نفسه: ص ٥٨٦.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسعد:

حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة^(١٠٠).

وهنا يكشف لنا الطبرى سر الخنادق التى أمر النبى بخندقها، بينما كان القرظيون يكتفون بالحبال، حيث يقول: إن النبى قد بعث إليهم، فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق، يخرج إليه إرسالا، وفيهم عدو الله حى بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، المكثرون لهم يقول كانوا نحو الثمانمائة إلى التسعمائة^(١٠١).

ويبدأ مشهد المذبحة كالتالى:

أتى بعدو الله حى بن أخطب.. مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:
أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك أبداً.
ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره، ملحمة قد كتبت على بنى إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه^(١٠٢).

ويشرح لنا رجالتنا من أهل السير كيف كانت المذبحة، فيصور لنا الواقدى أحد المشاهد بقوله:

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر لنا يشق لبنى قريظة فى الأرض أخاديد، ثم جلس، فجعل على والزيبر يضربان أعناقهم بين يديه^(١٠٣).

ويحدد لنا البيهقى مكان المقتلة بدقة فيقول:

قتلوا عند دار أبى جهل التى بالبلاط، ولم تكن يومئذ بلاطاً، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التى كانت بالسوق^(١٠٤).

ويشرح لنا ابن هشام أنه بينما كان الأوس حلفاء قريظة فى الجاهلية، فإن الخزرج لذلك السبب

(١٠٠) نفسه: ص ٥٨٧، ٥٨٨.

(١٠١) نفسه: ص ٥٨٨.

(١٠٢) نفسه: ص ٥٨٩.

(١٠٣) نفسه: ص ٥٩٣.

(١٠٤) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠.

كانوا يحملون لقريظة العداوة، ولما كان الخزرج أخوال النبي، فقد حبس الأسرى القرظيين لديهم، ثم عند المذبحة أمرهم هم بإجراء المذبحة، فيقول مصوراً لنا مشهداً أوسع للمذبحة:

فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم، ويسرهم ذلك، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الخزرج، ووجوههم مستبشرة، ونظر إلى الأوس فلم ير ذلك فيهم، فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وقريظة، ولم يكن بقي من بنى قريظة إلا اثنا عشر رجلاً، فدفعهم إلى الأوس، فدفع إلى كل رجلين من الأوس رجلاً من بنى قريظة، وقال: ليضرب فلان، وليذفف فلان^(١٠٥).

أما شأن سعد بن معاذ فتعرف من خبره أن أكله الذي حسمه له النبي - صلى الله عليه وسلم - قد عاد وانفجر بعد مذبحة قريظة، ولما كان هو صاحب الحكم الذي هو حكم الله، فقد وجبت مكافأته، فيما يرويه البيهقي:

إن جبريل أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - في جوف الليل، معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد؛

من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟

فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجر ثوبه، مبادراً إلى سعد بن معاذ، فوجده قد قبض.

ومن ثم وقف النبي يشير إلى سعد وهو يعلن:

إن هذا الذي تحرك له العرش..

وشيع جنازته سبعون ألف ملك^(١٠٦).

أما ابن سيد الناس فيؤكد مشاركة الملائكة في تشييع جسد سعد إلى مثواه الأخير بقوله:

ولما حمل سعد علي نعشه، وجدوا له خفة، فقال رسول الله - صلى الله

عليه وسلم -: إن له حملة غيركم^(١٠٧).

وفي مجال الإشادة بسعد بن معاذ وتكريمه، يروى الترمذى والنسائى حكاية البغلة والجبنة التى أرسلها أكيدر دومة الجندل إلى النبي هدية، فى القول: إنها

(١٠٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ح ٣، ص ١٤٧.

(١٠٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ح ٤، ص ٢٩، ٢٨.

(١٠٧) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٠٤.

جبة من ديباج، منسوج فيها الذهب، فلبسها - صلى الله عليه وسلم - فقام على المنبر وجلس فلم يتكلم، ثم نزل فجعل الناس يلمسون الجبة وينظرون إليها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :
أتعجبون منها؟!
لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن مما ترون^(١٠٨).

ثم نعلم من مأثورنا علما جديداً بشأن تلك المذبحة، حيث يعلمنا أنها لم تقتصر على الرجال فقط، بل نالت أيضا من الصبية، حيث يقول الطبرى مدعما من كل رجال السير والأخبار أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قد أمر بقتل كل من أنبت منهم^(١٠٩).

وهو أيضا ما يأتينا تأكيده في حكاية ابن إسحاق عن صبي نجا من المذبحة هو عطية القرظي، حيث يقول:

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر بكل من أنبت منهم .. عن عطية القرظي قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر أن يقتل من بنى قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاما، فوجدوني لم أنبت، فخلوا سبيلي، رواه أهل السنن الأربعة .. وقد استدل به من ذهب من العلماء، إلى أن إنبات الشعر الخشن حول الفرج دليل البلوغ^(١١٠).

وعن كثير بن السائب أن بنى قريظة عرضوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - فمن كان محتلما أو نبتت عانته قتل، ومن لم يكن قد احتلم ولا نبتت عانته ترك^(١١١).

وكاد ينجو من المقتلة رجل واحد من أشراف قريظة، لولا رغبته هو في الموت ذبحا، هو أبو عبد الرحمن الزبير بن باطا القرظي، وكان يوم وقعة بعاث قد من على ثابت بن قيس وخلي سبيله، فلما أصبح ثابت مسلما، رأى أن يرد الدين إلى أبي عبد الرحمن، فذهب بحكايته القديمة ودينه بالحياة يرويها للنبي ويطلب حياة أبي عبد الرحمن، فمجنه إياها، وذهب ثابت يبشر أبا عبد الرحمن بالحياة، ليدور بينهما الحوار التالي:

(١٠٨) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣١.

(١٠٩) الطبرى. تاريخ .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٩١.

(١١٠) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٧.

(١١١) البلاذري: فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٣.

أبو عبد الرحمن: أى ثابت، ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية تترأى فيها عذارى الحى كعب بن أسد؟

ثابت : قتل .

أبو عبد الرحمن: فما فعل سيد الحاضر والبادى حى بن أخطب؟

ثابت : قتل .

أبو عبد الرحمن: فماذا فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزال ابن سموأل؟

ثابت : قتل .

أبو عبد الرحمن: فما فعل المجلسان - يعنى كعب بن قريظة وبنى عمرو ابن قريظة؟

ثابت : ذهبوا، قتلوا .

أبو عبد الرحمن: فإنى أسألك بيدى عندك يا ثابت، ألا ألحقننى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قبلة دلو نضح، حتى ألقى الأحبة .

وهنا أخذه ثابت من يده وأوقفه فى طابور المذبحة ليأخذ دوره، فضربت عنقه^(١١٢) .

وبعد الانتهاء من شأن المذبحة، أتى دور الغنائم والسبايا، فأما الغنائم فيحصبها لنا ابن سعد فى قائمة طويلة كالتالى:

ألف وخمسمائة سيف

ثلاثمائة درع

ألفا رمح

ألف وخمسمائة ترس وجحفة

جمال ونواضح كثيرة^(١١٣) .

(١١٢) الطبرى: تاريخ .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٩، ٥٩٠ .

(١١٣) ابن سعد: الطبقات، مح ١، ج ٢، انظر أيضاً: الواقدي: كتاب المغارى، تحقيق مرسدن جوير، منشورات جامعة أكسفورد،

لندن، ١٩٦٦، ج ٢، ص ٥١٠ .

وهي القائمة التي تشي بمدى العدة والعتاد التي كانت في حوزة قريظة، وهو أيضا ما يفصح عن رغبة فريضة في النأى عن الحرب طمعا في مصير نصير وقينقاع للخروج بأرواحهم دون عتادهم وأموالهم.

وجاء دور السبايا ليفول ابن سعد:

واصطفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ريحانة بنت عمرو لنفسه، وأمر بالغنائم فجمعت، فأخرج الخمس من المتاع والسبي، وأمر بالباقي فبيع في من يزيد، وقسمه بين المسلمين (١١٤).

أما ريحانة بنت عمرو، التي اختارها النبي، فقد قال بشأنها ابن كثير:

عرض عليها النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعتقها ويتزوجها فاختارت أن تستمر على الرق، ليكون أسهل عليها، فلم تزل عنده حتى توفي عنها عليه الصلاة والسلام (١١٥).

ويؤكد الطبري موقف ريحانة في قولها لسيدها الجديد:

تتركني في ملكك، فهو أخف عليّ وعليك، فتركها، وكانت حين سبها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تعصت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية (١١٦).

وفاضلت السبايا حتى بيعت بقيتهم لرجال نجد، وكان عائد البيع عظيما، وتم شراء خيل وسلاح إصافي بثمانهم، لتتنضم الأعتدة العسكرية الإسلامية وكراعها بمخزون عظيم لما هو آت.

وهكذا جاءت دية بنى عامر بمجموعة من التداعيات أخذ بعضها بعقب بعض، فطردت نصير من يثرب، لكن ليحزب زعماؤها الأحزاب في غزوة الخندق التي انتهت بدورها لصالح يثرب، بالانسحاب بعد الخدعة، لينتهي الأمر بالقضاء على بنى قريظة، وتطهير المدينة تطهيراً كاملاً، وسيطرة النبي سيطرة تامة على يثرب، مع نموها في ثروة المسلمين وقوتهم العسكرية، وهو الأمر الذي دفع المنافقين لحسم مواقفهم، حيث لم يعد لهم سند من حلفائهم اليهود، ولم يعد بإمكانهم التطاول على القوة الإسلامية المتعازمة، وانتهى أمرهم بالخضوع الكامل لسيد

(١١٤) الموضع نفسه عند ابن سعد.

(١١٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٨.

(١١٦) الطبري. تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٩٢.

المدينة وهى النتائج التى أوجزتها الآيات الكريمة بإيجازها البالغ تبلغ العريان وتذكرهم بقولها:

«ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال
وكان الله قوياً عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من
صياصيهم^(١١٧) وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً.
وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شىء
قديراً» (٢٥/٢٦/٢٧/ الأحزاب) .

(١١٧) الصياصى: نوع من الحصون .

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى

الباب الثانى

الاعتراف بقيام الدولة

إخضاع القبائل

«يا رسول الله؛ لا تحرم علينا حلالاً ولا تحل لنا حراماً!!»

[زيد بن رفاعه الجذامي]

بالطبع لم تنفذ يثرب اتفاقها مع غطفان الفزارية، بعد أن مزق السعدان الصحيفة التي كان من المزمع تنفيذها مع عيينة بن حصن الفزاري، للتخذيّل بين الأحزاب، لذلك ما أن انصرفّت الأحزاب عن يثرب، وعلم القرشيون بحجم المكيدة التي دبرها الغطفاني الداهية نعيم بن مسعود، حتّى عاد عيينة بن حصن ببعض خيل غطفان، ليغيّروا على لقاح النبي بالغابة، لكنّ بالجوار كان سلمة بن الأكوع، يراهم، فيركض نحو التلّول يرتقيها موجهها وجهه شطر يثرب منذراً صائحاً: واصباحاه، عدّة مرات، ثم يهرع نازلاً يمنع القوم بنباله ويروى لنا ابن كثير بطولة ذلك المسلم الفرد في صورة رائعة وهو يقول:

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً، ثم عارضهم، فإذا أمكنه الرمي رمى.. وبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صياح ابن الأكوع، فصرخ بالمدينة: الفرّج الفرّج، فنراحت الخيول إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما اجتمعوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر عليهم سعيد ابن زيد وقال: اخرج في طلب القوم حتّى ألحقك بالناس.. وأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستنقذ بعض اللفاح، وسار الرسول حتّى نزل

بالجبل من ذى قرد، وتلاحق به الناس، فأقام عليه يوماً وليلة، وقال سلمة ابن الأكوع يا رسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل، لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .. إنهم الآن ليغبقون فى غطفان .. ثم رجع قافلاً إلى المدينة .. (ويقول ابن الأكوع) ثم رجعنا، وردفنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ناقته حتى قدمنا المدينة^(١).

ومرة أخرى تتعرض لقاح الرسول لغدر الأعراب، الذين أطمعتهم سوائمه، فقدم على النبى ثمانية رجال من عرينه، وأظهروا الإسلام، وبعد أيام اشتكوا للنبى سوء حالتهم الصحية بداخل يثرب، وأنهم أهل بوادى لا يطيقون المدن والزروع، فأذن لهم بالخروج لرعاية لقاحه، الذى يرعى بذى الحدر بناحية قباء، فظلوا فيها فترة، ثم عدوا على لقاح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقتلوا واحداً من عبيد النبى^(٢)، فكان أن أرسل وراءهم سرية كرز بن جابر الفهري، ليقبض عليهم، ويلقوا جزاء ما قدمت أيديهم بحق النبى وبحق الدولة، وهو الجزاء الذى جاءنا ذكره فى البيهقى وهو يروى:

فلم ترتفع الشمس، حتى أتى بهم، فأمر بمسامير فأحميت، فكواهم، وقطع أيديهم وأرجلهم، وألقاهم فى الحرة ليستسقون فلا يسقون، حتى ماتوا^(٣).

ويضيف ابن سيد الناس أنه قد أمر إضافة لذلك بسمل عيونهم^(٤).

ومع تلك التحركات الطامعة الغادرة من الأعراب، كان على يثرب أن تكثف مرة أخرى من سراياها المسلحة التأديبية المنذرة، لتؤوب القبائل إلى سابق انكماشها، فكانت سرية عبد الله بن أنيس الجهنى، التى سرت إلى خيبر لتنتقم من مشاركة سادتها فى تحزيب الأحزاب، فيقطع ابن أنيس من خيبر رأسها: أسير بن رزام، جزاء وفاقاً لما قدمت يدها^(٥). لتتبعها سرية عكاشة بن محصن الأسدى مغيراً على قومه بنى أسد فى الغمر، ويبدو أن الأسود عرفوا رأس الحكمة من الغارة السابقة للنبى عليهم، فهربوا مع نعمهم وشياهم، ويصل عكاشة فيجد الديار فراغاً، لكنه لم

(١) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥١: ١٥٣، انظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٨: ٦١.

(٢) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦٧.

(٣) البيهقى: دلائل .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٧.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر .. سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٩.

(٥) نفسه: ص ١٤٦.

يشأ أن يرجع فارغا، فهجم على بنى عمومة لهم ليستاق منهم مائتي بعير يعود بها مغنما إلى يثرب^(٦).

وإذا كانت حكمة الأسود تدعوهم كل مرة إلى الفرار بأموالهم وأرواحهم، فإن الثعالب من بنى ثعلبة كانت لهم حكمة أخرى، فما أن هبطت عليهم سرية محمد بن مسلمة بذى القصة باتجاه الريدة في عشرة من المسلمين، حتى نذره الثعالب بدهائهم، وأحدقوا بالسرية وحملوا على رجالها تقتيلاً، ولم ينج سوى مسلم واحد خرج سليماً، ليحمل محمد بن مسلمة جريحاً ويعود به إلى المدينة.

وفوراً يرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سرية أبى عبيدة بن الجراح للضرب على يد بنى ثعلبة بقوة، ويمده بأربعين مقاتلاً يهبطون على ذى القصة متسللين متخفين ليفاجئوا الثعالب في عماية الصبح، ولكن مرة أخرى ينذره الثعالبية - متأخرين بعض الشيء - فيهربوا إلى دروبهم وشعابهم بين جبال يعلمون سبلها، ولا يتمكن المسلمون منهم فيكتفوا بحيازة أنعامهم التي تركوها، وينحدروا بها عوداً إلى المدينة.

ووسط تلك الأحداث، يأتينا خبر طلاق زيد بن حارثة من زينب بنت جحش، وتزويج السماء لزينب من النبي، ليخرج من بعدها زيد للاستشفاء النفسى، فى عدد من السرايا المتوالية، أو ليرسله النبي فى عدد من السرايا المتتابعة، لا يهدأ ولا يكل، فينزل بسرية على بنى حارثة من قبائل سليم ليصيب منهم سوائهم، ثم يردفها بسرية إلى العيص تعترض طريق قافلة تجارية قرشية قادمة من الشام، بها فضة عظيمة، فيستولى على ما فيها، ثم يتبعها بسرية ثالثة إلى بنى ثعلبة، فيغنم منهم أنعاماً جزيلة، ثم يخرج بسرية رابعة إلى حسمى من وراء وادى القرى، بأمر من الرسول - صلى الله عليه وسلم - انتقاماً من بنى جذام الذين قطعوا الطريق على صديق النبي دحية الكلبي، الذى كان يتمثل به جبريل الملاك، فيسلبوه منحة قيصر له، وينزل زيد بساحتهم فيقتل منهم قوماً كثيرين، ويذبح زعيمهم الهنيد وولده، ويأخذ نعمهم وماشيئهم ونساءهم، وما يربو على خمسة آلاف شاة، وألف بعير، غير مائة من السبايا وعدد عظيم من الغلمان، ولا يصاب البطل المسلم المتميز زيد فى كل تلك السرايا إصابة واحدة.

لكن بين جذام والنبي كان كتاب موادة سابق، فيهرع أحد الناجين هو زيد بن رفاعه إلى النبي، فى نفر من قومه فيهم أبو يزيد بن عمرو - ثم نستمع إلى المشهد حال دخوله على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ابن سعد وهو يحكى:

(٦) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦١.

(٧) نفسه: ص ٦١، ٦٢.

فدفع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتابه الذى كان كتب له
ولقومه، وقال:

يارسول الله؛ لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما.

فقال الرسول:

وكيف أصنع بالقتلى؟

قال أبو يزيد بن عمرو: أطلق لنا يارسول الله من كان حيا، ومن قتل فهو
تحت قدمى هاتين.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: صدق أبو يزيد^(٨).

وما أن يرحل الجذاميون، بما كان لهم عند النبى، حتى يخرج زيد مرة أخرى بسرية خامسة
إلى وادى القرى^(٩). لتعطى تلك السرايا دلالتها حيث بدأت تأخذ وجهة الشمال الرومى والمشرق
الكسرى، ويزداد تأكيد المقاصد والدلالات، بإغارة عبدالرحمن بن عوف مرة أخرى برجاله
على قبائل كلب فى دومة الجندل بالشمال، وهناك يعلن زعيمهم الأصبغ اتباعه للدولة وللدين
ويشهر إسلامه، ويزوج ابنته تماضر لقائد السرية عبد الرحمن بن عوف، ليعود بها وبالعهد إلى
المدينة^(١٠). ولكن وجهة الشمال حيث كنوز كسرى وقيصر الهدف الأعظم، لازالت بحاجة إلى
تأكيد، فتخرج إليها سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر فى فءك، ليغير عليهم على
غرة، فيهزمهم، وهم من كانوا من القوة بحيث هزموا قبل البعثة فيالق كسرى، لكن الرعب
يأخذهم فيفرون قبل وصول السرية ديارهم، ويتركون له ألفى شاة وخمسمائة بعير يعود بها، أما
كلب التى كانت فى الطريق، فقد تركت له طريق العودة وهربت من ديارها بنسائها وأموالها رغم
ما تأكد لها من عهود مع دولة النبى - صلى الله عليه وسلم -^(١١).

وهكذا أبلغت السرايا وبلغت رسائلها إلى الشمال الرومى، ووصلت برقيات الرعب إلى زعيم
نصف العالم آنذاك: قيصر الروم.

(٨) نفسه.

(٩) الموضع نفسه.

(١٠) نفسه: ص ٦٤، ٦٥.

(١١) نفسه: ص ٦٥.

غزوة المصطلق

«سمن كلبك يأكلك!!»

[عبدالله بن أبي بن سلول]

يا منصور: أمت، أمت،

صيحة الفزع المرعبة التي دوت على ماء (المريسيع) فجأة ودون سوابق أو ممهّدات، بمضارب (بنى المصطلق)، ليهبط عليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - برجاله فى جمادى الآخرة من عام سنة للهجرة، فتأخذهم الفجأة وتشلهم الصعقة، فما يفيقوا إلا على قتلاهم وأسراهم وسبائهم وأموالهم ونعمهم، تجمع بيد السيد المنتصر^(١٢).

وبين السبايا وقفت بنت السادة الرافلة فى النعيم، زوجة مسافع بن صفوان المصطلقى، (جويرية بنت الحارث) سيد المصطلق، تنتظر دورها^(١٣)، فتقع فى سهم جندي مسلم اعتيادى هو قيس بن الشماس، ومن ثم تحكى لنا جويرية وهى ترى ما آلت إليه، باحثة عن مخرج يلائم مكانتها:

رأيت قبل قدوم النبى - صلى الله عليه وسلم - بثلاث ليال، كأن القمر

(١٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيل... سبق ذكره، مج ٤، ص ٦٠٨.

(١٣) نفسه: ص ١٩.

يسير من يثرب، حتى وقع فى حجرى، فكرهت أن أخبر بها أحداً من
الناس، حتى قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما سبينا، رجوت
الرؤيا^(١٤).

ولتحقيق الرؤيا، ساومت أسرها ثابت بن قيس، على أن تدفع له فداءها عن نفسها ويطلقها
حرة، بموجب مكاتبة على العتق بذلك، وهى تعلم يقينا أنها أسيرة لا تملك مالا تشتري به نفسها،
ولا تعلم حتى إن هى اشترت نفسها أين تذهب بعد أن ذهب قومها قتلا وأسرأ، ومن ثم قررت أن
نختبر الرؤيا، فذهبت إلى النبی لتطلب منه إعانتها فى مكاتبتها!!

وهنا نقول لنا أم المؤمنين السيدة عائشة الغيور:

فوالله ما أن رأيتها على باب حجرتى، فكرهتها وعرفت أنه - صلى
الله عليه وسلم - سيرى منها ما رأيت.

أما ماذا رأت السيدة عائشة - رضى الله عنها - ؟ فهو ما توضحه فى قولها:

كانت امرأة حلوة ملاحه

لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه

ويشرح لنا السهيلي شارح السيرة المعنى قول أم المؤمنين بقوله:

الملاح أبلغ من المليح ..

والملاحه هى البياض ..

وملاحه: فى العينين

وقال الأصمعى: ...

الملاحه فى الفم ..

وقول عائشة .. من الغيرة عليه والعلم بموقع الجمال منه - صلى الله عليه وسلم -

ونتابع الحدث وهو يتحرك، فنرى جويرية الأسيرة تدخل على النبی - صلى الله عليه وسلم -
لنقول:

يا رسول الله:

أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار

(١٤) البيهقي: دلائل .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٠

سيد قومه

وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك

فوقعت في السهم لثابت بن الشمس

فكاتبته على نفسي

فجئت أستعينك في كتابتي

وهنا يتطلع سيد الخلق، العارف بمواطن الجمال والملاح، ويملاً عينيه منها، ليعقب السهيلي على ذلك التطلع الطويل بقوله: «أما نظره عليه السلام لجويرية، حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما ذلك لأنها كانت امرأة مملوكة، ولو كانت حرة، ما ملأ عينه منها، لأنه لا يكره النظر إلى الإماء، ويجوز أن يكون نظر إليها، لأنه نوى نكاحها، كما نظر إلى المرأة التي قالت له: إني وهبت نفسي لك.. وقد ثبت عنه عليه السلام. الرخصة في النظر إلى المرأة، عند إرادة نكاحها».

وكان ما توقعته جويرية الحسنة، التي تعرف قدر حسنها، وقدمت لها الأقدار تحقيق رؤياها، حين قال لها النبي بعد تأمله الطويل:

فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: أقضى عنك كتابك وأتزوجك.

قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت.

وهنا تعقب السيدة عائشة - رضى الله عنها -: «وخرج الخبر إلى الناس، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها^(١٥)».

ويقول ابن سيد الناس: «وكان الإبل ألفى بغير، والشاة خمسة آلاف شاه، وكان السبي مائتي بيت^(١٦)».

وبينما كان حسن جويرية وملاحتها يحل على أهلها بركة وسلاماً، لتزف إلى سيد الخلق في

(١٥) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، انظر معه شرح السهيلي، مح ٤، ص ٨، ٩، ١٨، ١٩.

(١٦) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٢٤.

زيجة جديدة، عكر صفو السرس حدث جديد أحدثه عبد الله بن أبي بن سلول، مع نفر من أتباعه ممن تنعنهم كتب الأخبار بالمنافقين، وهو ما يأتينا خبره في عدد من الروايات، أولها ما رواه ابن هشام في قوله: إنه بينما المسلمون يتزاحمون على ماء المريسي «وردت واردة الناس، ومع عمر ابن الخطاب أجير له من غفار يقال له جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجاه، وسان ابن وبر الجهني حليف بن عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه، فقال:

أو قد فعلوها؟

قد نافرونا وكاثرونا

والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول:

سمن كلبك يأكلك

أما والله لئن رجعنا المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، قاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير دياركم،^(١٧).

ويسمع الصبي (زيد بن أرقم) ما بدر من ابن سلول، وما أفصحت عنه شفتاه من مكنون صدره، ليهرع من فوره إلى النبي يهمس له بما قال ابن سلول، ويسمع الأنصار همس الصبي، فينبرون دفاعاً عن رجلهم المقدم: «يارسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبنا على ابن سلول ودفعنا عنه»^(١٨).

وتحتد بعمر أعصابه وتأخذه الغضبة أخذاً فيقول للنبي وهو يرعد: مر عباد بن بشر فليقتله، لينافس عمر ولد عبد الله بن سلول الذي يحمل اسم أبيه (عبد الله)، فيهرع إلى مجلس النبي يقول: «إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه»^(١٩).

ولكن حكمة سيد الخلق أفصح وأنصع وأكرم، فتنفرج شفتا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله:

(١٧) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧

(١٨) الموضع نفسه.

(١٩) نفسه: ص ٨.

فكيف ياعمر إذا تحدث الناس:
أن محمداً يقتل أصحابه؟
ويلتفت إلى (عبد الله بن سلول) الابن ويقول له بكل حب أبوى ورحمة نبوية:
لا

بل نتفرق به
ونحسن صحبته ما بقى معنا^(٢٠).

وهي الحكمة والرحمة البليغة، التي كانت رداً غير منتظر، وضع ابن سلول في موقف شديد الهزال أمام قومه، ليعقب الشعور بالفرح والفرح شعور المهانة والتدنى والخجل، وهي المشاعر التي دفعته يسعى للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليحلف له بأغلظ الأيمان، بأنه ما قال ما قال ولا تكلم به .

وكي تتم معالجة الأمر على وجه السرعة، لقمع دعوى الجاهلية، وإيقاف أى طارئ جانبي قد يحدث بين انصارى ومهاجر هنا أو هناك، وما قد يجره أى حدث جانبي من تفكك في الجبهة الإسلامية، أمر النبي القائد الفذ وزيره عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل الفوري على عجل ودون إبطاء، في ساعة هجير شديدة القیظ، ويحكي ابن إسحاق:

فلما استقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحياه تحية النبوة وسلم عليه، وقال يأنبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرا ما كنت تروح في مثلها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأى صاحب يا رسول الله؟ .. يارسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا .

ثم مشى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى أذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسا من الأرض، فوقعوا نياما .

ويعقب ابن إسحاق على تلك القسوة من القائد على رجاله، بقوله: «وإنما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك، ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله ابن سلول»^(٢١).

(٢٠) الموضع نفسه .

(٢١) نفسه: ص ٨٠٧ .

أما إجابة الرسول الحكيمة لعبد الله بن سلول الابن، ولعمر بن الخطاب، فسرعان ما آتت ثمارها، فيما يخبرنا ابن هشام عن ابن سلول: «فجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمر، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله، لأرعدت له أنوف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» (٢٢).

ولم يكن حدث ابن سلول المعكر الوحيد لصفو العرس الجديد، فالصبي زيد بن أرقم الذي مدحه النبي وكرمه لما حمل إليه مقالة ابن سلول، وأمسكه من أذنه وقال - صلى الله عليه وسلم -: «هذا الذي أوفى الله بأذنه»، وجد له دوراً، فعاد يهمس للنبي أنه «سمع رجلاً من المنافقين يقول ورسول الله يخطب فيهم: لكن كان هذا صادقاً، لنحن شر من الحمير، فيرد عليه الصبي: «فهو والله صادق، وأنت شر من الحمار» (٢٣).

ويتعالى التشكيك في نية النبي من بعض رجاله، فيما يرويه البيهقي:

وفقدت راحلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بين الإبل، فسعى لها الرجال يلتمسونها، فقال رجل من المنافقين كان في رفقة الأنصار: أين يسعى هؤلاء؟ قال أصحابه: يلتمسون راحلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضلت، فقال المنافق: ألا يخبره الله بمكان راحلته؟ فأنكر عليه أصحابه ما قال، وقالوا: قاتلك الله، نافقت (٢٤).

أما أشد المنكرات من أحداث معكرة، صاحبت غزوة المصطلق، وعكرت عرس النبي بجويرية، ما جاء بحديث الإفك عن أم المؤمنين الغيور وهي تصحب زوجها في زفة عرسه، لتلوك الألسن عنها بالفحشاء وترميها بالشاب صفوان بن المعطل في القصة المعروفة التي أتى بها عصابة من الأفاكين، حيث حسمت السماء الأمر بتدخلها بالوحي الصادق، الذي برأ أم المؤمنين مما أتى به أهل الإفك والبهتان.

(٢٢) نفسه: ص ٧.

(٢٣) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٧.

(٢٤) نفسه: ص ٥٩.

غزوة الحديبية

«أما الرحمن فلا أدري والله ما هو؟!»

[سهيل بن عمرو]

بمجيء شهر ذى القعدة، بداية موسم الحج الجاهلى، وفجأة، ودون أى علامات أو مقدمات منذرة، يتم التحول دورة كبرى، عن السرايا الصغيرة والغزوات المتناثرة، إلى الهدف الأكبر، يوم قام النبى من نومه ليعلن لأصحابه خبر رؤيا رآها فى منامه، أنهم يدخلون معه مكة يطوفون بالبيت آمنين، وهو ما يعقب عليه السهيلي فى شروحه «كان النبى قد رأى ذلك فى منامه، ورؤيا الأنبياء وحى» (٢٥).

ومن ثم، نادى المنادى بين مسلمى يثرب، وبين عريان جهينة ومزينة وخزاعة وغيرها من حلفاء يثرب الذين حالفوها سياسيا بإسلام من البعض ويعدم إسلام من آخرين، ويقول ابن إسحاق: «واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه.. فأبطأ عليه كثير من الأعراب ويتابع ابن سعد يقول: «واستنفر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه إلى العمرة، فتهيأوا وأسرعوا، ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيته فاغتسل ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء.. ثم دعا بالبدن التى ساق فجالت ثم أشعرها فى الشق الأيمن وقلدها، وأشعر

(٢٥) السهيلي: الروص الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٨.

أصحابه أيضاً.. وهى سبعون بدنة.. وأحرم ولبى.. وخرج معه من المسلمين ألف وستمائة،^(٢٦).

ولاشك؛ أنه مثلما كان للنبي عيونه داخل مكة، فإن مكة ما كان ليفوتها أن تدس عيوننا لها بيثرب، تلك العيون التى - لابد - قد أخذتها الدهشة، وهى ترى النبى يفعل فعل قريش، فيدعو إلى عمرة، ويمارس ذات شعائر قريش، فيسوق أمامه البدن (البعير المساقة هدفا للذبح)، بعد أن جللها وقلدها، بل ويسير أمام رجاله يلبى فيلبون، معلنا أنه قد جاء ساعيا معتمراً لا يريد حرباً^(٢٧). فى الوقت الذى كانت تأتیه عيونه الخزاعية بخبر يقول: «إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعهم، وهم قاتلوك أو مقاتلوك»^(٢٨).

ورغم التظاهرة الدينية الواضحة، التى أرادها النبى رسالة مبلغة إلى قريش، لتعلم أنه جاء محترماً مشاعرها وشعائرها وطقوسها، وهى الطقوس المرتبطة جميعاً بتجاريتها ومكاسبها، وما فى تلك الرسالة من طمأننة ضمنية وإبراق فصيح بالتحويلات الآتية، فإن مكة لم ترفى ذلك العدد الهائل من المقاتلين الذين يصل عددهم إلى ألف وستمائة، سوى محاولة مكشوفة لدخول مكة تحت ستار العمرة، محتمية بحرمة الأشهر الحرم، لتعمل سيوفها فى بطن مكة من الداخل بغتة، وهو الدرس الذى لم تنسه قريش منذ سرية عبدالله بن جحش التى انتهكت الأشهر الحرم، وحلها الكلم القرآنى وصادق عليها، لذلك ما أن بلغت أخبار بدء يثرب بالمسير إلى مكة، حتى أخذت مكة تهيب رجالها على الطريق، لتقف فى وجه الغزو الآتى. وبلغ النبى أن على الطريق قد وقف بنو لؤى بجموعهم وخيلهم، فتوجه إلى رجاله قائلاً:

أشيروا على، أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم،
فنصيدهم فإن قعدوا قعدوا موتورين محرومين، وإن نجوا تكن عنقاً قطعها
الله؟ أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟^(٢٩).

كان بإمكان المسلمين أن يميلوا على مضارب بنى لؤى الخالية من الرجال، ليقتلوا ما شاءوا من أطفالهم، وتكون عنقاً قطعها الله، وكان بإمكانهم أن يتوجهوا عن طريق آخر إلى مكة، فإن اعتراضهم قريش قاتلوها، ورداً على استشارة النبى رجاله جاءه جواب أبى بكر الصديق الحكيم .. من حال بيننا وبين البيت قاتلناه^(٣٠).

(٢٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٦. انظر أيضاً ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦٩.

(٢٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٦.

(٢٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ح ٤، ص ٩٩، ١٠٠.

(٢٩) نفسه: ص ١٠٠.

(٣٠) الموضع نفسه.

وإعمالاً للمشورة، يخبرنا ابن سعد بما تلى ذلك من أحداث؛ فيقول:

سار النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى دنا من الحديبية، وهى طرف
الحرم، على تسعة أميال من مكة، فوقعت يدا راحلته على ثنية، تهبطه على
غائط القوم، فبركت، فقال المسلمون: حلّ، حلّ، يزجرونها، فأبت أن
تنبعث، فقالوا: خلأت القصواء.

وهنا تأتى برقية جديدة لقريش لمزيد من الطمأنة، تحمل فى فحواها معانى لذوى العقول،
فى قول المصطفى - صلى الله عليه وسلم -:

إنها ما خلأت، لكن حبسها حابس الفيل، أما والله لا يسألونى اليوم
خطة فيها تعظيم حرمة الله، إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فقامت، فولى
راجعا عوده على بدء، حتى نزل بالناس على ثمد من أثمد الحديبية^(٣١).

وبينما القوم ينيخون رحلهم، حمل بشر بن سفيان الكعبي خبراً آخر عند عسфан، يقول للنبي:

يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ
المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، وقد نزلوا بذى طوى، يعاهدون الله لا
تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم، قد قدموها إلى كراع
الغميم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

يا ويح قريش

لقد أكلتهم الحرب

ماذا لو خلوا بينى وبين سائر العرب؟

فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا،

وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا الإسلام وأفرين،

وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة!!^(٣٢).

وتحاشياً للاصطدام بجيش خالد بن الوليد، قال النبي بين رجاله: «من رجل يخرج بنا على
طريق غير طريقهم التى هم بها؟»، فيقوم له دليل يسلك معه النبي وجيشه طريقاً وعراً بين
الشعاب، حتى يهبط الوادى، وتعلم قريش بمكانه، فترسل له حليفاً له من خزاعة، هو بديل بن

(٣١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢ ج ١، ص ٦٦.

(٣٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٥.

ورقاء، برسالة، ليرده إليهم النبي برسالة أخرى تؤكد أنه جاء معظما لحرمة بيتهم، رمز تجارتهم وسطوتهم وسلطانهم ومعتقدهم، ويذهب بديل بالرد النبوي ليقول «يامعشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمدا لم يأت لقتال، إنما جاء زائرا معظما لهذا البيت»، لكن قريشا التي تعلم هوى خزاعة مع النبي تتهم بديل وتخونه، ذلك الهوى الذي كان يعلمه كتاب السير والأخبار، وهو ما أفصح عنه ابن كثير في قوله:

وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة (٣٣).

ولتجب على بديل بردها:

وإن كان جاء لا يريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا، ولا تحدث العرب بذلك عنا (٣٤).

وتتذكر قريش ما حدث لقريظة، ذلك الحدث الذي أذهل العرب جميعا وقريشا بخاصة، فأى قتال كان في الجزيرة، كان لا يصل إلى إبادة ذلك العدو جميعا، وإبادة قوم بكاملهم، وما صاحب الحدث من إنذارات تمثلت في الآي الكريم «سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب»، ليأخذ الرعب بقلب مكة قابضا منها على الجوانح والحشايا، وتظن بالنبي الكريم سوء الظن، وتتسارع أنفاسها وهي تتصور دخوله عليها، ومصير كمصير قريظة وفناء من على وجه الأرض إلى آخر الدهر، فقامت تدفع برسلها إليه رسولا في عقب رسول، فتبعث بعد بديل مكرز بن حفص، وهو من عامر بن لؤي الذين يحملون للنبي كراهية، فلما رآه النبي مقبلا، قال «هذا رجل غادر»، ثم قال له ماسبق وقال لبديل ليحملة إلى مكة (٣٥).

ثم يردفون وراء مكرز، الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، وهم قوم قد تدرشوا في حب البيت حتى قدسوا أمره جميعا، وصاروا يمثلون أشد الاتجاهات تعظيما لحرمة البيت وشعائره، فلما رآه النبي قادما عن بعد، قال لرجاله: «إن هذا من قوم يتألهون»، ويشرح ابن سيد الناس معقبا شارحا «يتألهون: يعظمون أمر الإله، قال الخشنى: التأله التعبد، ورأيت عن ابن الكلبي في نسب الحليس ابن ريان: أنه الحليس بن عمرو بن عامر بن المغفل (٣٦)، ومن هنا كان التصرف الذي يمكن أن يقنع الحليس، فقال النبي بسرعة: «ابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه»، أى أرسلوا النوق المشعرة المجللة المهداة للذبح ليراها، وهنا يقول ابن هشام:

(٣٣) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٨.

(٣٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٦.

(٣٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٨.

(٣٦) ابن سيد الناس: عيون الأثر .. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٢.

فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده، وقد أكل
أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا: اجلس، فإنما
أنت أعرابى لا علم لك^(٢٧).

سل قريش رسولا آخر إلى مجلس النبى، من سادة ثقيف، هو (عروة بن مسعود الثقفى)،
صل إلى مجلس النبى وجلس قبالة مباشرة، ليفصح عن رعب قريش وذكرى قريظة فى

يا محمد

أرأيت إن استأصلت قومك،

فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟

يا محمد

جمعت أوشاب الناس (الأوباش)، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟

لأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً!!

ن ليرد عليه أبو بكر على الفور:

أَمْصَصْ بظُر اللات

أنحن ننكشف عنه؟

تفت عروة ليسأل النبى: من هذا يا محمد؟

ما لم يكن من المقبول ألا يعرف عروة شخصية أبى بكر، فإن الاستنتاج هو أن أبا بكر كان
بالحديد، خوذة ودروع، ويجيبه النبى: «هذا ابن أبى قحافة»، فيرد عليه عروة معرضاً عن
«والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بهذا، ولكن هذه بها».

ستمر عروة يحدث النبى، ويتناول لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلما حدثه،
يرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الحديد فجعل يقرع
ا تناول لحية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقول: أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل
تصل إليك، فيقول عروة: ويحك ما أفظك، ما أغلظك».

بتسم رسول الله، لأن عروة لم يعرف ابن أخيه وهو مدرع بالحديد، ذلك الحديد الذى كان

ن هشام: السيرة فى كتاب السهلى... سبق ذكره، ح ٤، ص ٢٦.

كافيا لإقناع عروة أن الأمر ليس أمر عمرة أبداً، ويتساءل عروة: من هذا يامحمد؟ فيجيبه: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة.

وكان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً من بنى مالك، ثم فر إلى النبي مسلماً، ودفع عنه عمه عروة دينهم جميعاً، وهنا يقول عروة للمغيرة: «أى غدر؟ وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟».

ويتطلع عروة حوله، فيرى بين إبل الهدى جملاً مهدى لأبى جهل، وهو ما جاء فى قول ابن عباس «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهدى عام الحديبية فى هداياه جملاً لأبى جهل، فى رأسه برة من فضة».

ويقلب عروة النظر هنا وهناك فيزداد عجباً، فالرسول لا يبصق بصاقاً إلا ابتدره أصحابه، ولا يتنخم نخامة إلا تسابقوا عليها يتلقونها بأكفهم يذكون بها وجوههم، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذه، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه، ولا يحدون النظر إليه تعظيماً وإجلالاً، فينهض الرجل مشدوها مبهوراً، ويعود إلى قريش يقول:

يامعشر قريش؛

إنى قد جئت كسرى فى ملكه

وقيصر فى ملكه

والنجاشى فى ملكه

وإنى والله ما رأيت ملكاً قط فى قومه

مثل محمد فى أصحابه^(٣٨).

وهنا يخطر للنبي خاطر، قبل أن تعود إليه رسل مكة، فيختار من رجاله رجلاً عزيزاً على ملاء مكة وأشرفهم من الأمويين، هو (عثمان بن عفان) الأموى، فيرسله إلى أهله بمكة يحمل رسالة إليهم، ويتأخر عثمان فى العودة، لأمر كان مقدوراً فى باطن الزمان، حيث تسرى شائعة لا نعلم من أطلقها؟ أن عثمان بن عفان قد قتلته قريش، ومن ثم توجب الانتقام، فيدعو النبي المسلمين فجأة ودون مقدمات واضحة، إلى بيعته، تسليماً له فى أى قرار يتخذه دون مناقشة، فكانتبيعة الرضوان على أى أمر يراه النبي حتى لو كان الموت، ومن هنا كانت تلك البيعة تسليماً لما هو فى باطن الساعات الآتية، أت. وكوفىء جميع من أعطى التسليم فى قول النبي لهم: «لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها»^(٣٩).

(٣٨) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٢. انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ح ٤، ص ٢٦؛
٢٩، انظر أيضاً شرح السهيلي فى الروص الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٥.

(٣٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ح ١، ص ٧٣.

وبانتهاء البيعة، يظهر عثمان ابن عفان سليماً معافى ليس فيه شيء، وتعلم قريش أنها لن تستطيع أن تزحزح محمداً ورجاله، وأنها لن تنجو من مصير قريظة إلا بالتساهل، خاصة بعدما بلغت الرسالة: «والله لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها»، وهي ما تعنى رغبة في الصلح.

وتساهلت قريش فأرسلت سهيل بن عمرو، رجل المفاوضات المحنك إلى النبي، لكنها بدافع من الأنفة والعزة، وضعت للصلح شروطاً تضمن لها كرامتها أمام الأعراب، وهو ما وعاه النبي فور أن رأى سهيل يهل على المسلمين، فالتفت إلى رجاله يقول: «لقد سهل الله لكم أمركم»^(٤٠).

ويجلس سهيل مع النبي، ويعرض عليه عروض مكة، وهي الصلح بهدنة مدتها عشر سنوات، لا يتعرض فيها أحد للآخر، وهو ما يضمن عودة الأمان للطريق التجاري، ويوافق النبي. وأن من أحب أن يحالف قريشاً من العرب حالفها، ومن أحب محالفة محمد حالفه، ويوافق النبي.

وترتفع المطالب المكية تدريجياً للاختبار وجس النبض ليقول سهيل:

ومن أتى محمداً بغير إذن وليه رده إليهم، ويوافق النبي.

ثم تتعالى نبرة التشدد أكثر فيقول سهيل: وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه إليه، ويوافق النبي.

ويستمر سهيل: ويعود محمد برجاله عن مكة هذا العام ليعودوا في العام المقبل دون سلاح أو حديد إلا سلاح الراكب المسافر العادي، حيث يتركها لهم أهلها ثلاثة أيام، يعتمر بها ثم يتركها مغادراً، ويوافق النبي.

ويقول ابن كثير: إن المسلمين وهم يرون تشدد سهيل وتساهل النبي أمامه كادوا يهلكون غماً وغيظاً ونكدًا، ويزداد الغم عندما تبدأ كتابة كتاب الصلح الرسمي، فعندما بدأ النبي يملأ علياً بن أبي طالب الكتاب قائلًا: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» رد سهيل على الفور:

أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟!

اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب.

ويهتف المسلمون بالرفض والاستهجان والشجب، يصرون على «بسم الله الرحمن الرحيم، لكن النبي يقول لعلي: «اكتب باسمك اللهم؛ هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، لكن ليعترض سهيل: بالقول:

(٤٠) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ح ٤، ص ١٠٥.

لو كنا نعلم أنك رسول الله
ما قاتلناك. لكن اكتب اسمك
واسم أبيك.

فيأمر النبي علياً أن يمحو «رسول الله»، فيرفض على رفضاً قاطعاً قائلاً: «والله لا أمحاك أبداً، فيمسك النبي الصحيفة - فيما روى البخاري - ويمحو «رسول الله»، ويكتب بخط يده «محمد بن عبد الله»^(٤١).

وبيتما المسلمون في غم وشدة وكرب، يأتي ما يزيد الهم هما والكرب كرباً، فيفاجئهم أبو جندل ابن سهيل بن عمرو قد انفلت من مكة يرسف في قيوده ليصل في تلك اللحظة الحرجة إلى النبي جالساً مع أبيه يكتبون صلحهم ليقفز سهيل بن عمرو قائلاً للنبي - صلى الله عليه وسلم: «وهذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده، فيرد النبي: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، لكن ليرد سهيل بعنف، مقسماً إن لم يفعل: «والله لا نصالحك على شيء أبداً»، فيقول النبي - صلى الله عليه وسلم - «إذن فأجره لي»، فيقول أبوه «ما أنا بمجير لك»، فيعود النبي للقول راجياً: «بلى، فافعل»، لكن ليرد سهيل «ما أنا بفاعل».

ويروى لنا ابن كثير تفاصيل تلك الوقائع فيما يروى:

فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، وقد انفلت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد خرجوا لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأوا من الصلح، والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله في نفسه، دخل من ذلك أمر عظيم على الناس حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بقلابيه وقال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتزعه بتلابيه ويجره، يريده إلى قريش؛ وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يامعشر المسلمين، أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني، فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً، إنا

(٤١) ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٤.

عقدنا مع القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً، وإنا لا نغدر بهم، فوثب عمر بن الخطاب يمشى مع أبى جندل إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدنى قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه، فضن الرجل بأبيه^(٤٢).

وقد لقي عمر بن الخطاب من أمر هذا الصلح رهقا شديداً استنفره استنفاراً حتى ذهب إلى النبي يقول:

ألم تعدنا أن نأتى البيت ونطوف به؟
قال: نعم.

وبين الإجابة، وبين واقع ما يحدث، أخذت الحيرة والرعدة الغاضبة عمر ليذهب إلى أبى بكر يقول فى حوار متوتر:

عمر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟
أبو بكر: بلى.

عمر: أولسنا بالمسلمين؟
أبو بكر: بلى.

عمر: أوليسوا بالمشركين؟
أبو بكر: بلى.

عمر: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟
أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإننى أشهد أنه رسول الله.

عمر: وما شككت منذ أسلمت إلا الساعة!!

ويشرح السهيلي معقبا على قولة عمر، التى لم تحوله إلى منافق كما هى العادة مع المعترضين والشكاكين:

وفى هذا أن المؤمن قد يشك، ثم يحدد النظر فى دلائل الحق، فيذهب

(٤٢) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧، انظر أيضاً البيهقى: دلائل .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٥، ١٠٦، انظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٠، ٧١، انظر أيضاً ابن سيد الناس .. عيون .. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦.

شكه، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: هو شيء لا يسلم منه أحد^(٤٣).

وأمام شك رجل في وزن عمر، وهو من هو، وهو وزير الرسول، وهو الذي عز به الإسلام، جاء الوحي ليقطع الشك باليقين الصادق مؤكداً:

«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق» (٢٧ / الفتح).

و «إنا فتحنا لك فتحا مبيناً» (١ / الفتح).

ومع تأكيد الوحي أن الرؤيا قد صدقت، وأن كتاب الصلح كان فتحا مبيناً، كان يفترض أن يهدأ الأمر ويستكين، لكن بعض صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان لهم رأى آخر، «فقال رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت، وصد هدينا، ورد رسول الله رجلين من المسلمين كانا قد خرجا إليه، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قول أولئك فقال: «بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح»^(٤٤). ومن ثم يثنى ابن هشام موضحاً ما حدث من لبس عند الصحابة، فيقول: «إن بعض من كان مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله أنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا: لا، قال: فهو كما قال لي جبريل عليه السلام»^(٤٥).

ونعود إلى المسلمين وهم في كربهم إبان كتابة الصحيفة الرسمية في اتفاق هدنة ومصالحة، لنرى النبي بعد توقيعات الشهود يقوم ينادى رجاله لاستكمال شئان العمرة التي لم تتم، قائلاً: «قوموا فأنحروا ثم احلقوا»، ليقول لنا ابن الأثير أن الناس جميعاً قد تعصبوا على رسول الله، في قوله «فما قام أحد، حتى قال ذلك مراراً، فلم يقم أحد منهم، فدخل على أم سلمة فذكر لها ذلك، فقالت: يا نبي الله اخرج ولا تكلم أحداً منهم، حتى تنحر بدئك وتحلق شعرك، ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا فأنحروا وحلقوا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً»^(٤٦).

ويقول ابن هشام: إن النبي «قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق.. فرأى الناس أن رسول الله قد نحر وحلق، فوثبوا ينحرون ويحلقون.. عن ابن عباس قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون، فقال رسول الله: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله

(٤٣) السهيلي: الروض الأنف.. سبق ذكره، ح ٤، ص ٣٧، ٣٨، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ح ٤، ص ١٧٠.

(٤٤) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦١.

(٤٥) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢.

(٤٦) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ح ٢، ص ٢٠٥.

المحلقيين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: والمقصرين، فقالوا: يارسول الله فلم ظهرت بالترحيم للمحلقيين دون المقصرين؟ قال: لم يشكوا،^(٤٧).

أما الرجل الآخر الذى جاء النبى مسلما فردّه إعمالا لبندود الهدنة، فهو أبو بصير بن عتبة، حيث هرب إلى يثرب ولحق بالرسول - صلى الله عليه وسلم - فكتب فيه للنبي الأزهر بن عوف والأخنس بن شريق، وبعثا بالكتاب رجلا من بنى عامر ومعه مولى له، يطلبون رد أبي بصير، فردّه معهما، لكن ما أن غادروا يثرب حتى انتهز أبو بصير فرصة أخذ فيها سيف العامرى وقتله، وعاد للنبي يقول: «يارسول الله وفيت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، أو يعبت بي». وغادر أبو بصير مجلس النبي ميمما خارج يثرب نحو الساحل، على طريق تجارة قريش، ليتبعه النبي بقوله يردد:

ويل أمة محش حرب

لو كان معه رجال!

وبلغت كلمات النبي المستضعفين بمكة، «لو كان معه رجال» فخرج إليه نحو سبعين رجلاً من المستضعفين يقطعون تجارة قريش، يقتلون رجالها ويسلبون ما فيها، حتى اضطرت قريش أن تكتب للنبي تسأله فيها بصلّة الرحم أن يأوى أبا بصير ورجاله في يثرب، وأنها لا حاجة لها بهم، فعادوا إلى يثرب بموافقة مكة، ورغم بنود عهد الهدنة^(٤٨).

ولم يكن ذلك أول كسر لبندود صحيفة الهدنة، وهو وإن تم برضا قريش، فهو رضى المكره، وكان بتحريض من النبي، لكن حدثت كسور أخرى، عندما هربت أم كلثوم بنت عقبة إلى النبي، وخرج وراءها أخوها عمارة والوليد ليردها عليهم النبي بعهد الحديبية، وببساطة تامة يقول ابن هشام عن رد النبي - عليه الصلاة والسلام - «فلم يفعل، أبى الله ذلك»^(٤٩). فالله هو الذى أبى وليس النبي، بدليل الوحي القائل: «ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار» (١٠ / الممتحنة).

ورغم تأكيد النبي، والله، أن ما حدث كان أعظم الفتحة، فإن هناك من شك، وهناك من اعترض، ومن جانبهم رأى كتاب السير والأخبار أن يضيفوا للأمر بعض المبهرات من أحاجيهم المعتادة، فيروى البيهقي عن البراء:

(٤٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى... سبق ذكره، ح ٤، ص ٢٩.

(٤٨) نفسه: ص ٣١.

(٤٩) نفسه: ص ٣٢.

كنا مع النبي أربع عشرة مئة، والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء ماء منها، فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركها غير بعيد، ثم أنها أصدرتنا نحن وركائبنا.

ومعجزة مائية أخرى، يرويه لنا الصحابي جابر في حوار له مع شعبة إذ يقول:
أتى رسول الله بماء في تور، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشرينا ووسعنا وكفانا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا ألفاً وخمسمائة^(٥٠).

ثم معجزة تالفة حول تكثر الطعام عندما جاع الجيش في قول الصحابة للنبي: «يا رسول الله، لو انتحرننا من ظهورنا، فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق، أصبحنا غداً إذا غدونا عليهم وبنا حمام، قال: لا، ولكن أئتوني بما فضل من أزوادكم، فبسطوا أنطاعاً ثم صبوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم، فدعا عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبركة، فأكلوا حتى تصلعوا شبعاً، ثم لفلقوا فضول ما فضل من أزوادهم في جريهم.. عن عبد الله قال.. كنا نأكل مع النبي ونحن نسمع تسبيح الطعام»^(٥١).

نتائج الحديبية:

يقول ابن الأثير عن صلح الحديبية: «فما فتح في الإسلام قبله فتح أعظم منه، حيث آمن الناس كلهم، فدخل الإسلام في تينك السنتين مثلما دخل فيه قبل ذلك وأكثر»^(٥٢). ويقصد ابن الأثير بالسنتين، السنتين اللتين مرتا ما بين صلح الحديبية وبين عام فتح مكة، وهو الفتح الذي سبق وشك فيه الصحابة، وتساءلوا رغم الوحي الواضح: أو فتح هو؟ حتى اضطر سيد الخلق إلى القسم بالله للناس أنه فتح قائلاً: «أى والذي نفسى بيده إنه لفتح»^(٥٣). فكيف يمكن رؤية ما حدث في الحديبية باعتباره بالفعل أعظم الفتح.

إن قليلاً من التمعن في خط سير الأحداث، سيكشف من فوره عن صلح الحديبية كفتح عظيم

(٥٠) أخرجه البخارى في ٦٤ كتاب المغازى ٣٥ باب غزوة الحديبية، الحديث ٤١٥٢.

(٥١) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٥، ١٢٠، ١٢٩.

(٥٢) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٥٣) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ح ١ ص ٧٦.

بالفعل، وعمل دبلوماسي من أعظم أعمال الدبلوماسية والسياسة، يستحق أن تدرسه بإمعان أكاديميات العالم العسكرية، وأنه كان بمصادقية الرسول الكريم وبلاغه الوحي الصادق، هو فتح الفتوح.

* لو عدنا قليلا إلى الوراء نطالع تطور الأحداث بعد غزوة الخندق سنلاحظ دون جهد يذكر أن خيبر بعد نزول يهود يثرب إليها بقياداتها، ودورها الذي قامت به في الخندق، قد تحولت إلى مركز قوة طالع، مع النشاط الذي لم يهدأ لليهود بين قبيلتي أسد وغطفان لتجديد الأحلاف القديمة، مع الإغراء بميرة خيبر الزراعية، ناهيك عن مفاوضاتهم لقبائل الشمال من فدك وما وراءها.

وكان وصول المعلومات إلى النبي عن خيبر أولا بأول قد كونت لديه فكرة واضحة عن تنامي قوة خيبر، بحيث دخلت توازنات القوى وأصبحت مركز قوة جديد، أزاح قريش إلى موقع خلفي، وكان معنى أن تترك خيبر تنامي دون تدخل يحد من ذلك التطور، فهو ما كان يعنى أن المدينة سوف تصبح بين طرفي معادلة شديدة الخطورة، فخيبر في الشمال مع أحلافها، وقريش في الجنوب، وأي تحالف ثنائي بين خيبر وقريش كما حدث في الخندق كان كفيلا بتهديد حقيقي لدولة يثرب.

ومن ثم كانت عمرة الحديبية التي وعى مؤرخونا أهدافها فأسموها غزوة الحديبية، حيث كان النبي قد توجه نحوها بعسكره مسلحين مدرعين ملبسين بالسلاح، لكنه عندما التقى ببديل بن ورقاء الخزاعي حمّله إلى قريش رسالة واضحة تقول:

إننا لم نجىء لقتال أحد

ولكننا جئنا معتمرين

وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأخذت بهم

فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس

وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا

وإلا فقد حموا

وإن هم أبوا

فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي أو
لينفذن الله أمره^(٥٤).

(٥٤) الديار بكرى: تاريخ الحميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ١٨.

وهكذا أعلن النبي لقريش أنه يعلم بحالتها المنهكة والمتردية، وأنه مع ذلك يعرض عليها من الخيارات ثلاثة: أولاً هدية محددة المدة، وكى يدفعهم لقبول الهدية، أرفق بخيار الهدية خيارات أخرى أشد قسوة عليهم، وجاءهم بقوة مسلحة قادرة، ولم يعلن لأصحابه أبدا الرغبة في الهدية بل وعدهم بالفتح، حتى يظهروا أمام قريش وسفاراتها إليهم في أكمل استعداد للانقضاء، ولم يظهر لهم إطلاقاً ماقر في ضميره لدفع قريش إلى قبول الهدية.

وقد وضح لدينا مدى شعور قريش بالضعف، الذى ظهر فى إرسالها السفراء واحداً إثر آخر، أما أبرز الشواهد على أن النية على الهدية كانت معقودة بداخله وحده، وربما علم بها أبو بكر فقط تتمثل فى أنه سمح بتسرب الأخبار لقريش عن مسيرة إليها، بقصد أن يعلموا بتحركه، ثم إعلانه ذلك صراحة لكن ضمن خيارات أخرى، مع تشديده على رجاله بإظهار القوة، ثم خطوته المحسوبة بدقة بإرسال عثمان بن عفان الأموى تحديداً برسالته إلى أهل مكة، ثم حرصه الواضح بعد ذلك لتذليل كل العقبات التى تقف أمام عقد الهدية مع سهيل بن عمرو، مع ذلك القدر من المرونة الذى فاجأ رجاله وجعلهم يجأرون بالمعارضة والوجيعة مما يحدث.

* لأول مرة يعترف الملأ المكى سادة الحجاز وأشراف العرب، أصحاب الأشهر الحرم، وأهل الله ورعاة بيته، رجال العرب المقدمون وسراتهم، لأول مرة يعترفون فى عهد مكتوب وكتاب موثق بشهادات الشهود، بدولة يثرب، ويسيدها، اعتراف واضح من سيد لسيد أنه سيد، بل هو اعتراف من سادة العرب للسيد الجديد أنه رئيس دولة مستقلة ذات سيادة، وهو ما يعنى تخلى قريش عن فكرة قيادتها وحدها للعرب، بدليل البند الخاص بترك الحرية لمن أراد أن يدخل فى عقد محمد، واكتفائها بتحسين نفسها ضد مؤثراته، وهو الأمر الذى سمح بعد ذلك بانتشار أتباعه يدعون بين العرب، ودخول العرب فى حلف يثرب بأعداد لم تشهددها الدولة من قبل، أليس ذلك إذن فتح الفتوح؟!

* ومن بنود الصحيفة أصبح بإمكان النبي مع رجاله أن يزوروا مكة أياماً ثلاثة، وهو أمر شديد الخطورة، حيث سيكون بإمكان أهل مكة أن يروا بنيانه ودولته ورجاله عن قرب، مما يتيح لهم المقارنة والفهم.

* كما أدت الحديبية إلى تفكك المجتمع المكى وانهايار مقاومته النفسية بعد تدهور قناعة أهل مكة بإمكان استمرار قريش السيادة، ومن ثم دخل رجالهم المقدمون فى دين الله، وكان أبرزهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

* كان اليهود يشكلون فى بداية الأمر مطمحاً لدعوة الإسلامية، للانضواء تحت لوائها وأتباع صاحبها، لكن بمرضى الوقت تكشف لليهود وللنبي - صلى الله عليه وسلم - اختلاف توجهاتهم بل

وتضاربها، وكان استمرار وجود اليهود فى يثرب على يهوديتهم يشكل شخاً عميقاً فى بناء دولة قامت على أيديولوجيا دينية واحدة موحدة، وعليه فقد كانوا عقبة كأداء بحسبانهم أصحاب كتاب من ذات المصدر السماوى الذى يأتى منه الكلم القرآنى، وكان مفترضاً أن يكونوا مصدقين لما أتى محمد من آى الكتاب القرآنى، لكنهم إطلاقاً لم يعترفوا له بهذه الصلة مع السماء، وكان رأيهم باعتبارهم أصحاب الكتاب الأول هو العامل الحاسم لدى العريان فى مدى صدق علاقة الآى القرآنى بالسماء، لكن وجودهم فى يثرب وعدم اتباعهم دعوة النبى الدينية حمل للعريان إشارات واضحة ودلالات بإنكارهم عليه تلك النبوة، فكانوا المنكر السماوى القائم فى الواقع العربى للوحى القرآنى، وهو ما أدى إلى بدء صراع طويل معهم انتهى بطردهم من يثرب، وطردهم من رحمة الإله بعد ما كانوا عنده أفضل العالمين. وتم أثناء ذلك إزاحة رموزهم الدينية إلى الورا، فحلت الكعبة المكية محل أورشليم، وعاد النبى إلى تمجيد المعبد الذى قدسه الجاهليون طوال عصورهم الجاهلية، وهى العودة التى صحبت باحترام ذلك البناء المكى المتواضع هندسياً ومعمارياً، وإلقائه فى رحم تاريخ أقدم يعود به إلى زمن آدم ثم إبراهيم فإسماعيل، وهو التحول الذى لفت انتباه قريش، حيث بدأت تلحظ ما يمكن أن يتحقق لها مع محمد وبه، وهم يرونه نبيجة الخندق يتخلص من آخر يهودى بيثرب، ليتحول تماماً مع غزوة الحديبية إلى المشاعر العربية القرشية المكية، فيهل بالمناسك الأولى التى هى مناسكهم وأعرافهم التى تواضعوا عليها، ثم لا شك يتذكرون قول عتبة بن ربيعة حكيمها المقدم، وهو يقول لهم منذ زمان قبل أن يواريه ثرى بدر: «أطيعونى وخلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن للذى سمعت منه نبأ، فإن أصابته العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزمكم وكنتم أسعد الناس به».

* والمقصد من هذا كله أن عقلاء مكة، قد أصبحوا الآن يرون ما لم يكن بإمكانهم رؤيته من قبل، خاصة بعد أن وجه أنظارهم لما ينتظرهم من أمجاد، بغزواته على حدود الروم فيما بين ٦٢٦ و ٦٢٩ م، وجلى لديهم أنهم فقط بالاتفاق السلمى والتسليم له ولقيادته، يمكنهم المحافظة على مكانتهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، والخروج معه إلى الدنيا الرحبة، خاصة بعد أن رأت النبى - صلى الله عليه وسلم - يفتح لها الأبواب ويعد لها المواقع فى منظومة دولته سياسياً ودينياً واقتصادياً ومجتمعياً.

* وكان اعتراف النبى لقريش بقواعد التعامل مع البيت المكى الحرام، وبالعمره، وبالنسب الدينى الجاهلى المتعلق بالكعبة، بلاغاً واضح المعانى والمعالم بخطواته التوفيقية الجديدة، ومن ثم تصرف النبى فى الحديبية بحنكة ومهارة رجل السياسة وسائس الدولة الدبلوماسى، وهو ما لم يفهمه المسلمون الصحابة لأول وهلة، بينما كان عروة بن مسعود يعود يعلن لقريش قبيلة النبى

أن ولدهم قد أصبح ملكاً لا تدانيه ملوك الأرض، وأنه ما رأى ملكاً مثله قط، وهى مجموعة المتوافقات التى أدت خلال الهدنة، بل خلال أشهر قليلة، إلى اندفاع العريان وجند قريش إلى سيد الدولة الليثرية، يعلنون الطاعة والإسلام، وعلى رأسهم خالد بن الوليد، الجندى الحاذق الذى سيصبح سيف الدولة وسيف الله، وعمرو بن العاص داهية العرب ورجل السياسة الذى لا يشق لمكره غبار، وغيرهم ممن شكلوا من بعيد قيادات العسكرتاريا العربية.

* وتأسيساً على ما أدت إليه الحديبية من اعتراف سادة العرب لمحمد بالسيادة، مع الاعتراف الواضح بدولته، صنع الرسول لنفسه وللدولة خاتماً رسمياً، ليصدق به على رسائله الرسمية للعالم، التى بدأت تفد على الملوك والقيصرة ممهورة بخاتمته، يدعوهم فيها إلى اتباعه، ووصلت تلك البعوث الأولى من العرب إلى الدنيا تعلن النجاشى والمقوقس وعظيم الروم وكسرى فارس بقيام دولة جديدة على خريطة عالم ذلك الزمان.

* أما النتيجة الأهم إطلاقاً وتتشابك مع كل الأسباب والنتائج، فهى أن النبى قد تمكن بصلح الحديبية من تأمين خطوطه الخلفية من أى تحرك معاد تقوم به قريش، ومع انهيار قريش توجه النبى إلى مركز القوة الصاعد، إلى خيبر.

فتح خيبر

«الله أكبر

خربت خيبر

إنا إذا نزلنا بساحة قوم

فساء صباح المنذرين»

[النبي - صلى الله عليه وسلم -]

«وأثابهم فتحاً قريباً... وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها» (الفتح ١٨، ٢١).

وهذا وعد آخر بفتح قريب، تليه فتوح أخرى مقبلة لم يتمكن المسلمون منها، لكن الله يمهد لها لهم، فيحيط بها ويجهزها للفتح، حيث يبدو أن الأتباع لم يعجبهم ما حدث بالحديبية، ولم يدركوا مرامي العهد البعيدة، وأفصح بعضهم عن أن النبي لم يحقق لهم في الحديبية ما وعدهم به سلفاً، ومع تأكيده لهم أن ما تم من عقد صلح الهدنة كان فتحاً عظيماً، فإن رؤاهم قصرت عن تتبع البصيرة النبوية وهي تعمل في الآتي، ومن هنا جاءت تلك الآيات بوعد جديد، يعرض المسلمين عن فتح مكة ويثيبهم بدلاً عنها بفتح آخر قريب، إضافة لفتوحات أخرى أعظم حاولوها ولم يقدروا عليها، ومن ثم عقب الحكم على الآيات بقوله:

أخبرني عبد الرحمن بن أبي ليلى فى قوله: وأثابهم فتحاً قريباً، قال: خيبر، وأخرى لم تقدرُوا عليها أحاط الله بها، قال: فارس والروم^(٥٥).

وعقب موسى بن عقبة بقوله: «لما رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية، مكث عشرين يوماً أو قريباً من ذلك، ثم خرج إلى خيبر، وهى التى وعده الله إياها». أما مروان والمصور فقد قالوا: «انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة»^(٥٦) وهو الأمر الذى يفصح عن معرفة القائد بدواخل رجاله، وضرورة الإسراع بما يعوضهم بغنائم فورية، عوضاً عن أملهم الطموح فى ثروات مكة العظمى، وهو ما وعاه البيهقى وهو ينقل عن الرواة القول:

انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله عز وجل فيها خيبر، وعدكم الله مغنماً كثيرة تأخذونها

فعجل لكم،

هذه خيبر^(٥٧).

وفى الطريق إلى خيبر، كانت غطفان بقلها، تلك القبيلة الفزارية التى يقودها الطماع الأحمق المطاع، الذى خذل فى اتفائه السرى بالخذق، وتم التخاذيل بين الأحزاب دون أن يجنى لطمعه مغنماً، وعاد صفير اليدين، فلا هو حارب برجاله مع قريش فغنم، ولا هو عاد من محمد بما اتفقا عليه من مكاسب.

ومن ثم كانت خطة القائد أن ينزل الرجيع ليقطع بين غطفان وخيبر، وكان توقع القائد صائباً، فقد جهزت غطفان رجالها لما سمعت بمسير جند الله لتظاهر خيبراً ضد الجيش الإسلامى، وهنا، وما أن تحرك رجال غطفان نحو الرجيع حتى سمعت مؤخرة جندهم ضجيجاً خلفهم، فى بيوتهم، وجلبة شديدة، فعاد رجال غطفان سراعاً إلى ديارهم، خوفاً على أموالهم ونسائهم وذرائعهم، لكن كتبنا الإخبارية لا تحيطنا علماً شافياً وواضحاً بحقيقة ما حدث فى ديار غطفان مما أجبرها على لزوم ديارها^(٥٨).

(٥٥) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ح ١، ص ٨٣.

(٥٦) اس كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٣.

(٥٧) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧.

(٥٨) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٦، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي، ج ٤، ص ٤٠.

المهم، وما يجب استنتاجه، أن غطفان لزمّت ديارها بعد خطة مقدرة ومحكمة أجبرتها على عدم الحركة، ليستمر الجيش اليثري في تقدمه الوئيد الهادئ الكامن، يسير ليلاً ويكمن نهاراً، يستخفي حتى يبيغت خيبر فجأة في حصونها وصياصيتها. ويصل جند الله سارين دون صوت عند سدول الليل، يحيطون بالحصون دون أن يصدروا صوتاً أو يشعلوا ناراً، حتى تبدأ خيوط الفجر تضيئ المزارع حول الحصون، ويخرج مزارعو خيبر كعادتهم مع إشراقة الصباح، يسحبون ماشية الحرث والسكك والفئوس، لكن ليلمح أحدهم الخوذ والدروع المتحركة، ويلمحهم آخر كامنين بين الزروع، ليكتشف مزارعو خيبر الدوائر المحكمة تحيط بهم من كل جانب، فيرجعون يدفعهم الفرع صارخين نحو حصونهم:

محمد؛ والخميس معه.

ليجاوب صراخهم الفازع هتاف النبي في رجاله معلناً بدء الهجوم

الله أكبر

خربت خيبر

إنا إذا نزلنا بساحة قوم

فساء صباح المُنْذِرِينَ^(٥٩).

كانت خيبر أرض زرع وسط بدو جياح، خربت غدر العريان وإغاراتهم المتكررة وقت نصوج المحصول، عندما كانوا يهبطون عليها كالجراد ينهبون عرق الشهور والتعب والجهد، وهو ما دعا الخيابة إلى إقامة عدد من الحصون الفوية والصياصي، لصد تلك الغزوات البربرية، لكن التجربة الجديدة مع الجيش الإسلامي المنظم، أثبتت أنهم ليست مانعتهم حصونهم، فتدنى المسلمون يفتتحون الحصون حصناً حصناً، ليسقط حصن ناعم، وعنده يستشهد الصحابي محمود بن مسلمة، عندما ألقت عليه امرأة خيبرية رجاها من على سور الحصن، ثم حصن النطاة ليسقط بعده حصن الشق، ويهرب سكان كل حصن إلى الحصن الذي يليه، حتى يتحصنوا جميعاً في الحصون الخمسة الباقية: الأخبية والوطيح والسلالم والقموص والكتيبة.

ويظن الخيابة أنهم باتوا في أمان، فيرفضون النداء المردد حولهم بالخروج من الحصون مستسلمين، ليمر أربعة عشر يوماً من الحصار، انتهى بعدها النبي إلى قرار يتم تنفيذه لأول مرة في بلاد العرب، هو الأمر بإقامة المنجنيق لدك الحصون، ذلك السلاح الذي كان قاصراً على

(٥٩) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ح ٢، ص ٢١٧، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٠، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ح ٤، ص ١٨٦.

جيوش الإمبراطوريات. وأيقن المتحصنون بالهلاك، وأنه لو ضربها بالمنجنيق لدكها دكاً، وآل مصير البقية الباقية إلى مآل قريظة.

وما أن يشاهد المتحصنون شكل العمل وطبيعته، ويدركون أنها أيام حتى ينتصب السلاح الرهيب، حتى يخرج من الحصن تحت راية السلام زعيمهم كنانة بن أبي الحقيق، حاملاً للنبي صلحاً على شروط صلح النصير: أن يغادروا بلادهم، ويتركوا للنبي أموالهم وحصونهم وأرضهم، لا يأخذون معهم لا صفراء ولا بيضاء، اللهم إلا ما يستر العورة من لباس، فقط نظير أن يحقن النبي - صلى الله عليه وسلم - دماءهم، ووافق النبي، وهو ما نقله ابن كثير عن الواقدي وهو يروى:

فنزّل إليه ابن الحقيق، فصالحه على حقن دمائهم ويسيرهم، ويخلون بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، على البر، إلا ما كان على ظهر الإنسان، يعنى لباسهم^(٦٠).

ثم يردف:

فنزّلوا من شدة رعبهم منه فصالحوه، وأموال بني النصير المتقدم ذكرها، مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله خاصة^(٦١).

لكن الصلح بهذه الشروط الواضحة لم يسر حتى كمال اكتماله، فقد أضاف النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الشروط شرطاً آخر، حول الأموال حين قال: وبرئت منكم ذمة الله ورسوله، إن كتمتم شيئاً. فصالحوه على ذلك^(٦٢).

أو ما جاء عند ابن سعد برواية ابن عباس، في سؤال النبي - صلى الله عليه وسلم - للزعيم الخيبري المرعوب كنانة بن أبي الحقيق، وأخيه الربيع: أين أنيتكما التي كنتما تعيرانها أهل مكة؟ ويرتبك الزعيم المهزوم، ويجف حلقه وهو يقول متلعثماً: «هرينا فلم تزل تضعنا أرض وترفعنا أخرى، فذهبنا، فأنفقنا كل شيء»، فيرد النبي - صلى الله عليه وسلم -:

(٦٠) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠٠.

(٦١) نفسه: ص ٢٠٤.

(٦٢) الموضع نفسه.

إنكما إن كنتما تكتمانى شيئاً فاطلعت عليه، استحالت دماءكما وذرايكما.
فقالا: نعم^(٦٣).

وهنا نعلم أنه كان شركاً وقع فيه الزعيمان، حيث نعلم أن النبي كان يعلم سلفاً بأمر كنز عظيم، بل كان يعلم بمكانه، حيث يقول ابن سعد: إن الله قد دل رسوله على ذلك الكنز^(٦٤)، بينما يوضح لنا ابن هشام في سيرته، سر معرفة الرسول بالكنز المخبوء، في قوله:

أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجل من يهود فقال لرسول الله -
صلى الله عليه وسلم -:

إنى قد رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة.

وهو ما دفع النبي للشرط السابق ذكره، والذي أورده ابن هشام في قوله:

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكنانة:

أرأيت إن وجدناه عندك؛ أأقتلك؟

قال: نعم^(٦٥).

وهنا نتابع من ابن سعد، الذى لم يعلم بأمر ذلك اليهودى الذى باع قومه وأفشى سر الكنز العظيم، مما دعا ابن سعد لاعتبار معرفة النبي بأمر الكنز خبراً إلهياً، فنجدته يقول في روايته متابعاً:

فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من الأنصار فقال: اذهب إلى
قراح كذا وكذا، ثم ائت النخل فانظر نخلة عن يمينك أو عن يسارك، فانظر
نخلة مرفوعة، فأنتى بما فيه. فانطلق، فجاء بالآنية والأموال^(٦٦).

والآن وقد كشف خداع الرجلين، وجيء بكنزهم للنبي، توجه النبي إلى كنانة مرة أخرى
يسأله ما بقى من كنزه، فأنكره،

فأمر به رسول الله الزبير بن العوام فقال:

(٦٣) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مع ٢، ج ١، ص ٨١.

(٦٤) نفسه: ص ٧٧.

(٦٥) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

(٦٦) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مع ٢، ج ١، ص ٨١.

عذبه حتى تستأصل ما عنده.

فكان الزبير يفدح بزند في صدره، حتى أشرف على نفسه.

ثم دفعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة^(٦٧).

وانطلق السيف الإسلامي يعمل في المستسلمين، ليقتل منهم في قول ابن سعد ثلاثة وتسعين رجلاً من يهود، منهم الحارث أبو زينب، ومرحب، وأسير، وياسر، وعامر، وكنانة بن أبي الحقيق، وأخوه، وإنما ذكرنا هؤلاء وسميائهم لشرفهم^(٦٨).

وكان تبرير تلك المقتلة واضحاً لكل ذى عينين، وهو ما ألح ابن كثير على شرحه وبيانه في قوله:

قلت: ولهذا، لما كنموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك الذي كان فيه أموال جزيلة،

تبين أنه لا عهد لهم!!

فقتل أبي الحقيق، وطائفة من أهله، بسبب:

نقض العهود والمواثيق!!

.. فقتل رسول الله ابني أبي الحقيق

وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب

وسبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نساءهم وذريتهم وأموالهم

بالنكث الذي نكثوه

وأراد إجلاءهم عنها، فقالوا:

يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا لأصحابه غلال يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل^(٦٩).

(٦٧) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣

(٦٨) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ح ١، ص ٧٧.

(٦٩) ابن كثير: النبذة.. سبق ذكره، ح ٤، ص ٢٠٠.

وهكذا، وبعد المقتلة التي نتجت عن نقض العهود من زعماء خيبر، رأى من بقى منهم أن يفتروحوا على النبي أمراً آخر، هو أن يظلوا في أرضهم يزرعونها ويفلحونها ويستخرجون خيراتها، بدلاً من مغادرتهم وخراب الأرض وبوارها من بعدهم، على أن يظلوا على دينهم دون تبعية دبنية، لكن مع تبعية خراجية، يعطون بموجبها ليثرب شطر محصولهم، مع شرط تنبيهه من النبي، يقول لهم مردفاً:

علي إذا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم^(٧٠).

وبانتهاء المعركة، جاء دور السبايا وتقسيم الأموال، فأما الأموال التي أوجف عليها المسلمون بالخييل والركاب، فقد قسمت بينهم، أما التي استسلمت وعقدت الاتفاق، فعائدها كان خاصاً لرسول الله، أما السبايا فقد تم تقسيمهن بين المقاتلين من جند الله.

ويؤكد لنا رواية السير والأخبار جميعاً، أن غزوة خيبر قد فشى فيها إتيان المسلمين لنساء يهود على ملاء، ففشت السبايا الخبيريات في المسلمين، إلى الحد الذي دفع النبي لوقف اغتصاب النساء الحبالى، يناشد رجاله بندائه الراقى الرحيم:

لا يحل لامرئ أن يسقى ماءه زرع غيره^(٧١).

وكان النبي قد قتل كنانة بن أبي الحقيق، زوج صفية بنت حيى بن أخطب سيد النصير، وكان قد سبق وقتل أباهما حيى في مذبة قريظة، لذلك، وحتى لا ينصرف ذهن كائد للإسلام ونبيه الكريم، إلى أن قتل زوجها كنانة، كان للاستيلاء على صفية، فإن كتب الأخبار تأتى هنا واضحة لا تحمل في خبرها لبساً، فتعلمنا أن النبي لم يعلم بجمال صفية بنت حيى زوجة كنانة، إلا بعد أن قتل زوجها بالفعل، لنقضه العهود والمواثيق، وتتفق جميعاً حول رواية أنس بن مالك الذى قال:

قدمنا خيبر، فلما فتح - صلى الله عليه وسلم - الحصن،

ذكر له جمال صفية بنت حيى بن أخطب

وقد قتل زوجها

وكانت عروساً

فاصطفاها لنفسه^(٧٢).

(٧٠) ابن سيد الناس: عيون. سبق ذكره، ح ٢، ص ١٧٦.

(٧١) نفسه: ص ١٧٣، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١.

(٧٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ح ٤، ص ١٩٧..

وقد قدرت الأقدار، أن تحظى صفية بالإكرام، فتحظى بسيد الخلق أجمعين، - صلى الله عليه وسلم -، رغم أنها بنت عدو الله حيى بن أخطب، الذى حزب الأحزاب، وزوج زعيم يهود خيبر كنانة بن أبي الحقيق، الذى نقض العهود والمواثيق، بعد اتفائه السلمى مع النبى، وهو ما يشرحه أنس فى قوله:

جمع السبى

فجاء دحية الكلبي فقال: يا رسول الله اعطنى جارية من السبى،

قال: اذهب فخذ جارية،

فأخذ صفية بنت حيى،

فجاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال:

يا نبى الله، أعطيت دحية صفية بنت حيى سيد قريظة والنضير؟ ما

تصلح إلا لك!!

قال: ادعوا بها، فلما نظر إليها - صلى الله عليه وسلم -

قال: خذ جارية من السبى غيرها^(٧٣).

وفى رواية أخرى أن دحية الكلبي صديق النبى، تم تعويضه عن صفية بسبعة رؤوس دفعة واحدة، وهو ما أخبرنا به ثابت فى قوله: «وقعت صفية فى سهم دحية، وكانت جارية جميلة، فاشتراها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبعة رؤوس، ودفعها إلى أم سليم تصنعها وتهيئها»^(٧٤).

وما أن ارتحل الجيش عن خيبر، حتى أناخ فى سد الصهباء فى الطريق إلى يثرب، وضربت للنبي وصفية قبة، ظل فيها النبى معها من الأيام ثلاثة، أو بتعبير ابن كثير:

وأقام ثلاثة أيام يبنى بها..

وكانت التى جمعتها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومشطتها

وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك^(٧٥).

ويروى البيهقي:

وقد بات أبو أيوب ليلة دخل بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائماً

قريباً من قبته.

(٧٣) نفسه: ص ١٩٨.

(٧٤) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٤.

(٧٥) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٢، ٢١٣.

ولما خرج الرسول من القبة سألته عن طوافه حول القبة كل ذلك الوقت، فرد أبو أيوب مفصلاً عن مدى إخلاص الرجال لصاحب الدعوة:

لما دخلت بهذه المرأة،
وذكرت أنك قتلت أباه وأخاه وزوجها
وعامة عشيرتها،

فخفت لعمر الله أن تغتالك^(٧٦).

وهو الأمر الذي يجد صداه فيما أفصح عنه لسان صفية عندما آلت إلى النبي في قولها: «كان رسول الله من أبغض الناس إليّ، قتل زوجي وأبي، فما زال يعتذر إليّ ويقول: إن أباك ألب على العرب.. حتى ذهب ما بنفسى»^(٧٧).

أحداث في خيبر:

وفي خيبر أحداث حدثت، تفصح عن كثير مما في النفوس من مكامن، وتكشف عما في العقول من مفاهيم، فهذه صفية تصفو للنبي ويزول ما بنفسها من بغض له، لتخبره وهو يبني بها داخل القبة برؤيا رأتها، يأتينا خبرها في قص البيهقي علينا:

أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبني بصفية.. ورأى - صلى الله عليه وسلم - بعين صفية خضرة، فقال: يا صفية ما هذه الخضرة؟ قالت: كان رأسي في حجر بن أبي الحقيق وأنا نائمة، فرأيت القمر زال من مكانه فوق في حجرى، فأخبرته بذلك، فلطمنى وقال:

تمنين ملك يثرب!؟

أو

تمنين هذا الملك الذي بالمدينة!؟

فأعجب الرسول - صلى الله عليه وسلم - برؤياها^(٧٨).

(٧٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٠، ٢٣٢.

(٧٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠١.

(٧٨) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٠، ٢٣٢.

وهو الرد الذى يعبر عن رؤية العرب آنذاك للنبي كملك على يثرب، أو رؤيتهم الأوسع لما هو آت، فى صياغة ابن هشام لرد كنانة على زوجته صفية:

ما هذا إلا لأنك تمنين ملك الحجاز محمداً؟^(٧٩)

وهو ما أعجب ابن كثير فطرب له وهو يوصف رؤيا صفية فى قوله: «فسألها ما شأنها؟ فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة رضى الله عنها وأرضاها»^(٨٠).

ومفهوم كنانة بن أبى الحقيق، ومفهوم صفية بنت حى عن النبوة بحسبانها ملكاً، هو الفهم الطبيعى الناشئ عن تأسيس دولة للعرب فى يثرب، وهى رؤية واضحة من صفية تتفق مع مفاهيم توراتها، قبل أن تعاشر النبي وتعرف معنى النبوة الحققة، فهى لا تعلم حسب مآثورها الدينى سوى الملك، كملك داود، وملك سليمان وغيرهما، أما أنبياء التوراة فكانوا مجرد دراويش، وما يفعله محمد هو بالمطابقة فعل داود وسليمان عندما وحدا قبائل البدو فى دولة تأسيسية فى فلسطين، وفى ضوء هذا الفهم يلتقى تجريد الكتائب والجيش مع أساليب ملوك التوراة، وهو الأمر الذى ترك فى نفسها فى مبدأ الأمر بغضاً شديداً لذلك الملك الذى حلمت به، وزادها بغضاً ما رآته يفعل بقومها إزاء إخفائهم أمر كنزهم عنه، ويروى ابن هشام مشهداً لاشك كان ذا أثر عميق فى نفس صفية، حيث يقول نقلاً عن ابن إسحاق:

ولما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القموص، حصن بنى الحقيق، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بصفية بنت حى بن أخطب وبأخرى معها، فمر بهما بلال، وهو الذى جاء بهما، على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التى مع صفية، صاحت، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: أغربوا عنى هذه الشيطانة.

وأمر بصفية فحيزت خلفه،
وأبقى عليها رداءه.

فعرف المسلمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اصطفاها لنفسه، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال، حتى تمر بامرأتين على قتلى من رجالهما؟^(٨١)

(٧٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

(٨٠) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧.

(٨١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

وهكذا كان الرسول يذبه هذا وينهى ذاك، ويحاول رفع القسوة وانعدام الرحمة، ويمنع نكاح الحبالى من النساء، ومع ذلك ظلت هناك مظاهر للقسوة تنبوهنا وتطفو هناك، مثلما حدث مع محمد بن مسلمة الذى لم يكتف بقتل كنانة زوج صفية ثاراً بأخيه محمود الذى ألقيت عليه الرحي، حيث يقول الواقدي: «إن محمد بن مسلمة ضرب ساقى مرحب فقطعهما، فقال مرحب: أجهز على يا محمد، فقال محمد: ذق الموت ذق، كما ذاقه أخى محمود»، وظل الرجل على حاله يعانى لولا أن مر عليه الإمام على ففصل رأسه عن جسده رحمة به^(٨٢).

ومن الجدير بالذكر أن الرواة اختلفوا فى أمر صفية، هل ظلت محظية ضمن جوارى الرسول أم تزوجها لتصبح من أمهات المؤمنين، خاصة أنه قد بنى بها ولم تكمل عدتها، لكن تميل الأغلبية إلى أنه أعتقها وتزوجها، وهو ما جاء فى الشاهد: «قال حماد، قال عبد العزيز لثابت، يا أبا محمد، أنت قلت لأنس ما أصدقها؟ قال أصدقها نفسها، فحرك ثابت رأسه كأنه صدقه»^(٨٣) بمعنى أنه تزوجها بدليل أنه أعطاها صداقاً، وأن هذا الصداق كان عتقها.

ولا يمضى من الزمن هنيهات وأيام، حتى يحدث أمر جلال، حيث كانت محاولة اغتيال سيد الخلق بالنسم، وهو ما جاء فى رواية تقول:

دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صفية، ومعه بشر بن معرور، وهو أحد بنى سلمة، فقدمت إليهم الشاة المصلية، فتناول رسول الله الكتف وانتهش منها، وتناول بشر عظماً وانتهش منه^(٨٤).

ويلوك النبى نهشته من لحم الكتف، ليلفظه بسرعة ويهتف بضيقه «ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرنى أنه مسموم، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان»، ويموت بشر من نهشته، ويشعر النبى بأثار السم القاتل تسرى فى بدنه، فيحتجم يومئذ، وقد حجمه مولى بنى بياضة بالقرن والشفرة، ويقى رسول الله بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذى توفى فيه، فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر عدداً، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرى، فتوفى رسول الله شهيداً، قال ابن هشام: الأبهر هو العرق المعلق بالقلب.. فكان المسلمون يرون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد مات شهيداً، مع ما أكرمه به الله من النبوة»^(٨٥).

ثم نعلم من كتب الأخبار والسير والتاريخ، أن تلك الشاة المسمومة، جاءت صفية هدية من

(٨٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١٦.

(٨٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مع ٢، ج ١، ص ٨٥.

(٨٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١١.

(٨٥) الموضع نفسه.

قريبة يهودية لها هي زينب بنت الحارث أهدتها لها لتقدمها إلى سيد الخلق المصطفى، ولما سألها النبي لم اقترفت ذلك العمل الشنيع؟ قالت: «قتلت أبي وعمي وزوجي وأخي.. قال القاضي عياض: واختلفت الآثار والعلماء، هل قتلها النبي - صلى الله عليه وسلم - أم لا؟»^(٨٦).

ورغم أن غزوة خيبر كانت ناجحة بكل المقاييس، إلا أن رواتنا لم يعودوا بقادرين على تجاوز منهجهم الإعجازي، في إلحاق كل حدث بمعجزات مناسبة، ونموذجاً لذلك ما روته الأخبار عما حدث أمام أحد حصون خيبر في رواية ابن كثير حيث يقول:

فتراموا.. حتى أصاب نبلهم بنان النبي - صلى الله عليه وسلم -، فأخذ عليه السلام كفاً من الحصى فرمى حصنهم، فرجف بهم حتى ساخ في الأرض، وأخذهم المسلمون أخذاً باليد^(٨٧).

من غير أن يدرك ذلك الراوية أن هذا الحل العملي، كان بديلاً مناسباً عن كل ذلك الحصار الطويل وساعات المعارك وإقامة المنجنيق، وأنه كان بالإمكان في سويغات أن يرمى النبي تلك الحصى على كل حصن لينتهي الأمر بكل بساطة، ويؤمن الجميع إزاء تلك المعجزة الكبرى، وهو ما يذكرنا بحصى بدر الإعجازية.

وأحاديث أخرى عن معجزات أخرى، تبرز وسطها رواية هي بحق من اللطائف، لتعبر عن الجزاء الفوري للمؤمن بالنكاح حتى للموتى، وهو ما جاء خبره متعدد في كتب الأخبار عن الراعي الأسود الذي أسلم يوم خيبر ودخل المعركة، فقتل بحجر، وجاء الرسول ووقف أمام الشهيد الذي أسلم من لحظات، «فالتفت إليه رسول الله ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه، فقالوا: لم أعرضت عنه؟ قال: إن معه الآن زوجته من الحور العين»^(٨٨).

وبينما الجيش في الطريق إلى يثرب، يأمر الرسول بالالتفاف دورة كبرى، يهبط بها بغنة على وادي القرى، وفي أربعة أيام أنهى الأمر وقسم غنائم وادي القرى على أصحابه، وعامل يهود الوادي على أرضهم بشروط خيبر، يزرعون أرضهم ويعطون نصف منتوجها ليثرب، وبلغ ذلك يهود ثيماء وفدك، وبينما يعرج عليهم أتوه هم بالطاعة، يصلحونه على ذات الشروط دون حروب^(٨٩).

(٨٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٥٧.

(٨٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠٠.

(٨٨) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٦.

(٨٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٩، انظر أيضاً البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٧١، انظر أيضاً ابن سيد

الباس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٦، ١٨٨.

وهكذا جاءت حصافة يهود خيبر بمنفذ لقبائل الشمالى، الضاربة على مواطن الخصب، لتنجو من الذبح والدمار، فسارعت القبائل تدفع الجبايات، وتؤوب لسلطان الدولة العربية معلنة الخضوع طوعاً، ليبرز هيكل الدولة واضحاً فى قواعد زراعية ثابتة، تتجاوز مفهوم الغنيمة البدوى الابتدائى، الذى كان سائداً حتى غزوة خيبر.

ثم يأتينا خبر حادث آخر يحمل أكثر من دلالة، فيعود الركب المنتصر قافلاً نحو يثرب، نسمعه من الواقدي عن أم عمارة عندما قالت:

سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالجرف وهو يقول: لا تطرقوا النساء بعد صلاة العشاء، قالت: فذهب رجل من الحى فطرق أهله فوجد ما يكره، فخلى سبيلها ولم يهجر، وضمن بزوجه أن يفارقها، وكان له منها أولاد وكان يحبها فعصى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرأى ما يكره^(٩٠).

ويتأكد ذات المعنى فى رواية مثيلة عن سعيد بن المسيب قال:

لما نزل النبى - صلى الله عليه وسلم - المعرس، أمر مناديه فنادى: لا تطرقوا النساء، فتعجل رجلان، فكلاهما وجد مع امرأته رجلاً^(٩١).

ويبدو أن الأمر كان متكرراً مع خروج المجاهدين، حتى قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فى أهله، إلا نصب له يوم القيامة فقيلاً له: هذا خلفك فى أهلك، فخذ من حسناته^(٩٢).

ولما أصبح الأمر فيما يبدو شديد الوطأة على المجاهدين، كثير التكرار، قام الرسول هذه المرة خطيباً فى الناس يقول مهدداً متوعداً بالنكير:

ألا كلما نفرنا غازين فى سبيل الله، خلف أحدهم له نيب كنيب التيس يمنح أحدهم الكثرة؟

أما والله إن يمكننى الله من أحدهم، لأنكلنه عنه^(٩٣).

(٩٠) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ح ٤، ص ٢١٩.

(٩١) ابن قتيبة: عيون الأحبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، مع ١، ج ١، ص ٢١٨.

(٩٢) أبو داود: السنن، ج ٢، ص ٧، ٨.

(٩٣) صحيح مسلم: ج ٣، ص ١٣١٩.

كانت تلك الأحداث تجرى بين خيبر ويثرب، بينما مكة تحاول أن تتسمع الأخبار، يهبطها الحجاج بن علاط السلمى قادماً من عند النبي، ولا يعلمون أنه من أتباعه، ليجمع أموالاً له عندهم، ويحكى الحجاج قائلاً:

ولم يكونوا قد علموا بإسلامي، فقالوا: الحجاج بن علاط؟ عنده والله الخبر، أخبرنا عن محمد، فإن قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهو بلد يهود وريف الحجاز، قلت.. هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمداً أسراً، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بما كان أصاب من رجالهم.

فقاموا، وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم عليكم فيقتل بين أظهركم، قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكة، وعلى غرمائي، فإنني أريد أن أقدم خيبر، فأصيب من نفل محمد وأصحابه، قبل أن يسبقني التجار إلى هناك.

فقاموا فجمعوا لي مالي كأحث جمع سمعت به.

وهنا يسمع العباس عم النبي وعينه على قریش بالخبر الذي أتى به الحجاج بن علاط، فيهرول إلى الحجاج فرعاً، لكن ليهمس له الحجاج سرّاً:

احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل، فإنني أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، فإنني والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم، يعني صفية بنت حبي، ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها، وصارت له ولأصحابه.

وفي هذه الساعة، رأى العباس أن أمر ابن أخيه قد صار أمراً، وأنه قد بات في إمكانه أن يعلن اتباعه له جهراً حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس له حلة، وتحلق، وأخذ عصاه وخرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رآه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والله الذي حلفتكم به، لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه،^(٩٤).

وقد وضع هذا الإعلان القاسي قریشاً ورجالها العقلاء في موقع الحيرة، فلم يعرفوا هل يحزنون لنصر محمد الذي هو عدوهم الألد، أم يفرحون وهو ولدهم وفخرهم بانتصاراته، لكن

(٩٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ح ٤، ص ٤٦، ٤٧.

المؤكد أن نصر خيبر قد قيل بحماسة قومية انتشرت في الفيا في مع أخبار السلطان العظيم لدولة الإسلام. أما الناتج المؤسسي لتلك الغزوة الكبرى فقد تمثل في قيام دولة يثرب على هيكل إنتاجي وفر لها الأسس الزراعية المستقرة في خيبر.

أما العرب الذين خذلوا النبي من مزينة وجهينة ويكر عندما دعاهم إلى الحديبية^(٩٥)، فقد أخذوا درساً من نوع يليق بهم، فتم حرمانهم من غنيمة خيبر التي وزعت فقط على من حضر الحديبية^(٩٦).

(٩٥) الواقدي: المغازي، تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ٦٢٠.
(٩٦) ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩. ص ٤٢.

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى

الباب الثالث

فتح الفتوح

الإسلام وبقاء

«الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم،
حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة،

[خالد بن أسيد]

وهكذا أمنت قريش بالحديبية على تجارتها، وعلى حلفائها، لكن التكوين العسكرى لدولة يثرب، وقيام العسكرية فيها على المغنم، كان يتطلب دوماً إيجاد المنافذ لهؤلاء الجند، ومن ثم استمرت سياسة السرايا العسكرية على قبائل العرب، فخرج أبو بكر على رأس سرية أغار بها فجأة على بنى فزارة، ليقتل الناس على مائهم، ويغنم المال والذراير والنساء، وينقل أبو بكر فتاة غاية فى الجمال للصحابى سلمة مكافأة له على بلائه، ويحكى سلمة كيف حصل على تلك الغادة الموصوفة بأحسن العرب، فى قوله:

إنه لما اشتدت المعركة مع فزارة، نظرت إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل، وأنا أعدو فى آثارهم، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل، فرميت بسهم وقع بينهم وبين الجبل، فجئت أسوقهم إلى أبى بكر حتى أتيت على الماء، ومنهم امرأة من فزارة عليها قشع من آدم، ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فنفلنى أبو بكر بنتها.

فما كشفت لها ثوباً حتى قدمنا المدينة، ثم بت فلم أكشف لها ثوباً فلقينى

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في السوق، فقال لي: يا سلمة هب لي المرأة، فقلت: والله يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً، فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتركني حتى إذا كان الغد لقيني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة، فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً، فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتركني، حتى إذا كان الغد لقيني رسول الله في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك، قلت: يا رسول الله ما كشفت لها ثوباً وهي لك يا رسول الله.

ويشئ إصرار الرواية على أن سلمة لم يكشف لها ثوباً، أنها ستنتهي إلى رسول الله، لكن الرواية تستمر لتقول: «بعث بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أهل مكة وفي أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتلك المرأة»^(١). وفي هذه الإضافة خلل واضح، حيث لم يكن في ذلك الوقت تحديداً أى أسارى من المسلمين في مكة، كما كان العقد قد وقع بالحديبية في هدنة مدتها من السنوات عشر.

وبعد سرية أبي بكر إلى فزارة خرج عمر بن الخطاب على رأس سرية إلى تربة من وراء مكة، فهرب الناس وعاد عمر ورجاله إلى يثرب، ثم تلتها سرية ثالثة بقيادة بشير بن سعيد إلى بني مرة في فديك، ونزل بلادهم واستاق نعمهم لكن لتكر عليه قبائلها ويقتلون جميع أفرادها، ويهرب بشير بن سعيد إلى بيت يهودى يخفيه ويأويه ليعود بعد أيام إلى يثرب مستخفياً، فيعود النبي - صلى الله عليه وسلم - ليرسل عليهم غالب بن عبد الله الكلبي وأسامة بن زيد في سرية تالية، وهناك يدركون فرداس بن نهيك، فيشهر عليه أسامة السيف فيصرخ الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، ولكن أسامة ورفاقه لا يمهلونه وينزلون عليه بسيوفهم فيقتلونه. ويحكى أسامة يقول:

فلما قدمنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبرناه فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها تعوذاً من القتل.. فكرها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت يومئذ^(٢).

وهنا نجد عودة إلى البدء، أيام كانت الدعوة طازجة في مكة، تحمل للناس بشرى وسلاماً،

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٢١.

(٢) الموضع نفسه.

حيث يعود هنا الأمر ببرز بين العربان، فيستجيب له الرسول الكريم، فيعلن الأعرابي شهادته بوحدانية الإله ليأمن على حياته وماله، ليصبح ذلك الإعلان في زمن الهدنة إعلاناً صريحاً من سيد الدولة الثيربية، أنه يكفي للعربان الشهادة للإله بالوحدانية، والاعتراف له بأنه رسول هذا الإله، ليصبح للشاهد الجوار والأمان، وتصبح شهادته توقيعاً معلناً على ميثاق الدولة، وبموجبها يصبح مواطناً يستحق رعاية الدولة وحمايتها، كما يصبح هو فرداً في جنودها، وهي السياسة التي ستؤتي ثمارها خلال أشهر قليلة، أدت إليها مجموعة غزوات وسرايا جعلت للأمن سوراً يابه الإيمان، حيث يجتمع للنبي خلال تلك الأشهر، جيش يربو على عشرة آلاف محارب.

ولم يلحظ الأتباع في مبدأ الأمر تلك العودة، لإيقاف الأطماع في الغنائم دون قواعد واضحة، قد تضر بالدولة بعد الاعتراف بها رسمياً ضرراً جسيماً، فتأتى سرية أبي حدرد لتؤكد عزم النبي على التحول إلى شكل الدولة، بالشهادة لأيديولوجيتها، تلك الشهادة التي تعنى توقيع ميثاق الانضمام إليها، وهي السرية التي حكى لنا عنها قائدها، وهو يقول:

بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أضم في نفر من المسلمين منهم أبو قتادة الحارث بن رعي ومسلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن أضم مربنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له، ومعه متيع له ووطب، فسلمنا عليه بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه مسلم ابن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبرناه الخبر.

وجاء الجواب وحياً يقرع القاتل، ويؤكد خلل رواية أبي حدرد، حيث توضح الآيات أنه لم يكن بين القاتل والمقتول شيء سوى استلابه متاعه واغتنام ما معه، رغم أن الله قد منّ على المسلمين بمغانم عظيمة كفتهم الناس، وأن عليهم من الآن اتباع الأمر الجديد، ليتابع أبو حدرد قائلاً:

فنزل فينا القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (٩٤ - النساء) (٣).

عمرة القضاء

وانصرم عام على الحديبية، وجاء الموعد من العام التالي سريعاً يهرع، وأن أوان مغادرة أهل

(٣) نفسه: ص ٢٢٤.

مكة لمكة، ثلاثة أيام، ليدخلها المسلمون يعتمرون، ومن جانب قريش كان عليها أن تفي بعقدتها، لتثبت لكل العرب، أنها لازالت ذلك البلد الآمن المفتوح لمن أراد من العرب، لكنها هذه المرة تحديداً كانت تعلم يقيناً أن تركها ديارها إنما عن ضعف منها، كما لا شك هي تعلم أن جميع العربان بذلك الأمر نفسه تعلم، فلم تكن تلك العمرة لأجل مزيد من الرواج التجاري، إنما كانت تنازلاً واضحاً ونقصاً في السيادة لسيادة أخرى منافسة على ذات الدار وذات الأيديولوجيا وذات المعبد، فلم يكن المعتمرون أفراداً فرادى، إنما جيش كبير هو في النهاية ذلك الجيش المعادي الذي بدأ يتحول عن قطع الطريق إلى التطهر نحو السيادة الدينية، حيث يخبرنا ابن سعد أن عدد المعتمرين قد وصل إلى الألفين عدداً^(٤)، وكل تلك المعاني تفصح عنها تصرفات سيد الخلق نفسه، فيما رواه ابن عباس، أن بعض أهل مكة بقي في مكة فضولاً وتطلعاً ورصدًا، وأن من بقي منهم في مكة:

صفوا عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسجد اضطجع بردائه، وأخرج عضده اليمنى ثم قال: رحم الله امرأة أراهم اليوم من نفسه قوة^(٥).

ولتأكيد رسالة القوة أمام عيون العربان، أمر النبي رجاله قائلاً:

اكتشفوا عن المناكب واسعوا في الطواف

وهو ما عقب عليه البيهقي موضحاً الداعي له:

ليرى المشركين قوتهم وجلدهم..

فاستكف أهل مكة الرجال والنساء والصبيان، ينظرون إلى رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وهم يطوفون بالبيت^(٦).

وتصعق قريش مأخوذة، عندما ترى النبي، ذلك الذي حاصرها اقتصادياً وقتل أفلاذ كبدها، وفكك عرى إيلافها، وأعلن كفرانها، يسلك مسالكها وينسك مناسكها ويهمل بشعائرها، فيسعى بالبيت، وبالصفا والمروة، وهو ما فاجأ الصحابة المسلمين أنفسهم، فما كانوا يرون أنهم بعائدين إلى شعائر الجاهلية ومناسكها، وهو ما جاء واضحاً في رواية ابن هشام وهو يروى لنا المشهد النبوي داخل مكة بقوله:

(٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١، ص ٨٧.

(٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٢٧.

(٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

ثم استلم الركن ١؟

وخرج يهرول، ويهرول أصحابه معه ١؟

.. واستلم الركن اليماني ١؟.

ومشى حتى يستلم الركن الأسود ١؟

ثم هروا كذلك ثلاثة أطواف

ومشى سائرهما فكان ابن عباس يقول:

كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله إنما صنعها لهذا الحى من قريش.. حتى إذا حج حجة الوداع لزمها فمضت السنة بها^(٧).

ومن ثم لزم النبي شعائر قومه، لكنه توجهها بالإعلان الجديد، واحتواها وتضمنها فى الأداء العلنى لدولته النبوية ممثلاً فى الأذان الإسلامى:

ولما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نسكه فى القضاء، وداخل البيت لم يزل فيه، حتى أذن بلال الظهر من فوق الكعبة.

لم تسجل صحيفة الحديدية فى بنودها ذلك، لكن بلائاً صعد بأمر الرسول فوق كعبة قريش، ومن هناك أعلن بأعلى الصوت أداء دولة النبى العلنى، ليعلم جميع العرب بالصيغة الإسلامية، وأهمها: أن محمداً رسول الله. لكن ليعقب من بين الواقفين بعيداً عكرمة بن أبى الحكم: لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول.

ليثنى خالد بن أسيد:

الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة^(٨).

ولا تمر تلك العمرة دون فرحة كبرى تأخذ بأفئدة الهاشميين، ويتقدم العباس بن عبد المطلب بإجراء يدخل السرور إلى قلب ابن أخيه نكاية فى الملاءمى، فيزوجه ميمونة بنت الحارث شقيقة زوجته أم الفضل بنت الحارث، لينكحها وهو محرم، وهو ما تأكد فى قول ابن عباس وإن

(٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٩.

(٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث وهو في سفره ذلك وهو حرام، وكان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب.. تزوجها وهو محرم»^(٩).

ومن تلك النكايات الواخزة، ما كان من أمر عبد الله بن رواحة الذي دخل مكة يحجل أمام رسول الله متوشحاً سيفه يطوحه يميناً ويساراً، يسب قريشاً، وينعتها بالكفر داخل ديارها، مهدداً بالقتل وسفك الدم لمن لا يعترف بسيادة النبي، وهو يرتجز قائلاً:

خلوا بني الكفار عن سبيله
أنا الشهيد أنه رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تتلى: رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقتله
ويذهل الخليل عن خليله^(١٠)

فيأمره النبي زيادة في النكاية، وللرصانة، أن يقول:

لا إله إلا الله
نصر عبده
وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده^(١١)

وهو ما عقب عليه البيهقي: «وكان يكابدهم بكل ما استطاع»^(١٢)

وبانتهاء اليوم الثالث، يهبط سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى في نفر من قريش، ليقولوا للنبي:

(٩) الموضع نفسه.

(١٠) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

(١١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٧.

(١٢) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا

فيرد النبي بلطفه وسماحته:

وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً
فحضرتوه؟

فيجيبونه الإجابة المعبرة عن مكونات الصدور من وجع:

لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا^(١٣).

لينطلق صوت سعد من بين المسلمين معبراً عن إمكان الاستيلاء على مكة الآن ببساطة،
فيقول:

يا عاضا ببظر أمه

أأرضك وأرض أمك هي دونه^(١٤)؟

لكن ليتدخل سيد الخلق المطهر، ويسكت سعداً، ويفي بالعهود والمواثيق، مكتفياً بذلك الإعلان
العملي السافر لكل العرب، ويأمر رجاله بالرحيل عن مكة.

استمرار السرايا المسلحة

ويعود جند الله إلى مدينة يثرب بعد الاعتماد المشهود، وتعود السرايا مرة أخرى للخروج على
القبائل، فينزل شجاع بن وهب بسرية على جمع من هوازن، فيبغتهم ويصيب أنعامهم وسبياً
منهم، لكن هذا الجمع الهوازني كان قد علم طريق الأمن وبابه، فقدم وفدهم على النبي يعلن
إسلام جماعتهم ليرد إليهم النبي كل أملاكهم وسبائهم، في بلاغ إلى كل العرب واضح المعالم
محدد المعاني.

وتخرج سرية كعب بن عمير إلى أطراف الشام لتغير على قضاة بذات أطلاق، المستندة
على أسنة الإمبراطورية، وناداهم كعب بدعوة الإسلام، لكن قضاة الشامية ما كانت ترى فيهم
سوى كربة عربية مثل كرات عهدتها على حدود الإمبراطورية، بل وتعمل سيوفها في أفراد
السرية، ويهرب منها جريح واحد يعود إلى الرسول بالخبر، وهنا يعلن الرسول أنه قد آن الأوان
لمهاجمة إمبراطورية الروم، حيث الأرض التي لم يقدروا عليها وأحاط بها الله.

(١٣) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٠.

(١٤) السهيلي: الروض الأنف... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

وعلى رأس السرية يوفد النبي زيداً بن حارثة فى ثلاثة آلاف مقاتل، وكان النبى يعلم جيداً ماذا يواجهون، ويعلم سلفاً النتائج، لكنها كانت أول هجمة كبرى مقصودة للإعلان عن الآتى، ولعلمه - صلى الله عليه وسلم - بما هو مقدم عليه قال فى رجاله: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن قتل عبد الله فليرتضى المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم^(١٥).

وتخرج سرية الشهداء العظام، تلك السرية الفدائية، ميممة وجهها شطر البلقاء على تخوم جنوبى دمشق، ويبلغ خبرها إلى هرقل عظيم الروم، فينزل بنفسه إلى لقاء هؤلاء الذين تجرأوا على حدود مملكته، فى مائة ألف من الروم، ومائة ألف من القبائل العربية المتاخمة للروم والمالية لها، وهو الهول الذى يصوره أبو هريرة قائلاً:

شهدت مؤتة، فلما دنا المشركون منا، رأينا ما لا قبل لأحد به^(١٦).

وكان طبيعياً أن يقتل الروم الأمراء الثلاثة، وكثيراً من مقاتلى المسلمين المتقدمين، حتى تناول خالد بن الوليد الراية، لينسحب بما بقى من الجيش الذى عاد ممزقاً إلى يثرب، ويستقبلهم العامة على أبواب المدينة بالتراب يحثونه فى وجوههم يقولون:

يا فرار، فررتم فى سبيل الله.

لكن ليرد عليهم سيد الخلق بعد أن أبلغ رسالة عملية إلى هرقل بعد رسالته المكتوبة، وإلى قريش، وإلى العالم أجمع، بقوله للناس:

ليسوا بالفرار،

لكنهم الكرار إن شاء الله.

إعلاناً عن أن تلك السرية الفدائية كانت مقدمة، وأن الإصرار على غزو الروم وكسرى قائم لا يلين، وأن هناك كرات آتية وكرات، وأن الوعد النبوى قائم كعلم يرفرف لا يتراجع، يردد فى مسمع العربان: «والذى نفس محمد بيده، لتملكن كنوز كسرى وقيصر».

أما إذا كان عدد من خيار الصحابة قد قدموا أنفسهم شهداء على مذبح الهدف الأكبر، فقد نالوا كفايتهم من الثواب، إلى الحد الذى ارتفعوا فيه إلى مصاف كبار الأنبياء، بعد أن رآهم النبى فى رحلة سماوية فى رؤياه، حيث اطلع عليهم فى فردوس الرحمن فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

(١٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤١.

(١٦) الموضع نفسه.

هذا جعفر بن أبى طالب

وزيد بن حارثة

وعبد الله بن رواحة.

ثم أشرفوا شرفاً آخر، فإذا بنفراً ثلاثة، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

هذا: إبراهيم

وموسى

وعيسى

عليهم السلام، وهم ينتظرونك،^(١٧).

وإعمالاً للوعد لا ينتظر النبي طويلاً، فقط يغير فى التكتيك، فيرسل على العربان المتحالفين مع الروم من بلى وقضاعة سرية يقودها عمرو بن العاص، فتصل إلى ذات السلاسل، فيخاف عمرو كثرة عدوه، فيمده النبي بأبى بكر بعدد آخر من الجند، لكن ليرى قادة السرية أنه لم يأن الأوان بعد فيعودون دون أية مغانم أو فتوح^(١٨).

ولكن ببعض التدقيق والملاحظة، لا يمكن أن تعتبر غزوة مؤتة هزيمة فى نظر عرب الجزيرة، ولا عدّها النبي كذلك، ولا حتى قريش، لأن مجرد خروج العرب لمجابهة الروم، كان أمراً بعيداً حتى عن الأحلام، لقد كان مجرد الخروج إلى الروم والاصطدام بهم فى معركة حقيقية واجهوا فيها فيالقهم المنظمة الهائلة تحت قيادة ملكهم بنفسه، كان بلا شك انتصاراً وحده ويحد ذاته.

(١٧) نفسه: ص ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦٠.

(١٨) نفسه: ص ٢٧٢.

مكة: فتح الفتوح

«والله يا أبا الفضل:

لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً،

[أبو سفيان]

تعود بنا كتب السير والأخبار القهقري زمناً إلى ما قبل الدعوة، لتطلعنا على السروراء نقض معاهدة الحديبية قبل موعدها بزمان طويل، فتحكي لنا عن مخاصمة ثارية كانت بين قبائل خزاعة وقبائل بكر، كان سببها أن رجلاً من بكر خرج تاجراً، فلما توسط ديار خزاعة، عدوا عليه وقتلوه واستلبوا تجارتهم، فكان أن ثارت بكر لرجلها وأخذت بفأرها برجل من خزاعة. فترد خزاعة بإطلاق سيفها ليطيح بالرووس من أشراف كنانة، فيسقط رأس مالك بن عياد، ثم الديلي، ثم سلمى، ثم كلثوم، ثم ذؤيب^(١٩)، وهنا تأتي الحديبية.

وتنص بنود الحديبية على أن من أراد الدخول في عقد محمد دخل، وأن من أحب الدخول في عقد قريش دخل، فتدخل خزاعة في حلف محمد، وهو الأمر الذي لم يكن جديداً ولا خافياً، فقد كانت خزاعة طوال الوقت مع محمد، مشركها ومسلمها، ترى بذلك أنها تنال من قريش جميعاً، بعدما أقصاهم قصى الجد البعيد لقريش عن مكة، واستلبهم الكعبة ومفاتيحها، وسيادة كانوا يرونها

(١٩) ابتكار السقاف: بحوآفاق... سبق ذكره، ح ٢، ص ١٥٥٥.

لهم، ومن ثم كان منطقياً تماماً، أن تدخل بكر في حلف قريش .

وإبان هدنة الحديبية، ولم يمض على توقيعها بعد عام عمرة القضاء أسابيع، حدثت مقاتلة بين بكر وخزاعة فجأة، أرجعها رواتنا إلى غدر بكر، حيث انتهز بنو الديل أحد بطونها فرصة من خزاعة، لتثأر لرجلها الديلي، فيطارده بعض رجالهم خزاعياً لئيل القلب مفئوداً اسمه منبه، وكان برفقة رفيق له يدعى تميم، ولما ركض الرجلان أمام مطارديهم لم يستطع منبه الاستمرار، فنادى رفيقه تميم قائلاً: «... يا تميم انج بنفسك، فأنا والله لميت، قتلوني، أو تركوني، لقد أنبت فؤادي»، وينطلق تميم، ويموت منبه، وتصيف كتب الأخبار باقتضاب شديد لا يفصح عن أية تفاصيل حول مدى صدق تلك الإضافات، فتقول: إن الأمر قد هاج بين القبيلتين، وأن بعضاً من قريش أمدوا بكرًا بالسلاح، وربما قاتلوا معهم متخفين^(٢٠).

هذا بينما هناك رواية أخرى تؤكد أن من أشعل أوار الحرب بين كنانة وخزاعة هم الخزاعيون وليس الكنانيون، وذلك فيما رواه البلاذري في قوله: «سمع رجل من خزاعة، وكانوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عهده وعقده، رجلاً من كنانة وكانوا في عهد قريش وذمتها، يهجو رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فوثب عليه وشجه، فاقتتل خزاعة وكنانة، وأعانت قريش بنى كنانة وخرج وجوههم يقاتلون متكرين»^(٢١).

وسواء كان الأمر هكذا، أو كذلك، ولو سلمنا بأن كنانة كانت البادئة، وأخذنا بقصة الرجل الخزاعي المفئود، فإن الموقف قد تصاعد بموته، فخرجت خزاعة في أربعين راكباً وراء سيدهم عمرو بن سالم، من فخذ كعب الخزاعي، ليقدموا على النبي في يثرب، وهو جالس في مسجده بين أصحابه، ليقف عمرو بن سالم يقص الحدث شعراً تحريضياً طالباً نصرة النبي في قصيدة طويلة جاء في بعضها:

يارب إني ناشد محمداً	حلف أبيه وأبيننا الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدأ	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً اعتداً	وادع عباد الله يأتوا مددا

وينصت سيد الخلق للرجل حتى ينتهي من قصيده الشاكية المستنصرة، ليقف النبي وسط الناس، ويجيبه بهدوء ما قبل العاصفة:

نصرت يا عمرو بن سالم^(٢٢).

(٢٠) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٤، ٨٥.

(٢١) البلاذري: أنساب الأشراف .. سبق ذكره، ج ١، ص ٣٥٣.

(٢٢) نفسه: ص ٨٦.

ثم يلتفت إلى الناس، معلناً نصر بنى كعب من خزاعة قائلاً:
لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى
ثم يتطلع إلى سحابة مارة، ويشير إليها مردداً:
إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب
ويروى لنا ابن سعد مجرى الحدث وراء الأحداث وهى تتسارع فى قوله:

وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى من حوله من العرب،
أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة،
ومنهم من لحقه بالطريق، فكان المسلمون فى غزوة الفتح عشرة آلاف..
ونادى منادى رسول الله: من أحب أن يفطر فليفطر، ومن أحب أن يصوم
فليصم (٢٣).

ومع إفاقتها، تعلم قريش بما يجرى، فتأخذها الرعدة، وترسل زعيمها وحامل لوائها أبا سفيان
صخر بن حرب إلى زعيم يثرب، لإيقاف الأمر، وإعلان أن قريشاً لا دخل لها بثأر كنانة، وأن
قريشاً على عهدا باقية، وبينود صحيفة الحديبية مستمسكة. ولا تعلم قريش إلا ما حدث بين
كنانة وخزاعة، ولا يعلم أبو سفيان أن وفد خزاعة قد ذهب إلى المدينة يستنصرها، لكنه يلقى
ركبهم عائداً من المدينة، وينكرون عليه قدومهم من هناك ويرحلون إلى ديارهم، لكن روث
بهائمهم يفضحهم بالحق، بما فيه من نوى يثرب، فيعلم أبو سفيان أن الأمر قد عظم، فيحث خطاه
مسرعاً، مقررراً أنه سيمد العهد ويوطد العقد بين محمد وقريش.

ويدخل أبو سفيان يثرب، ويختار بيت ابنته أم حبيبة، التى تزوجها النبى بعد عودتها من
مهاجرها بالحبشة، ويذهب ليجلس على فراش النبى فتطويه عنه فيقول: يا بنية، ما أدرى أرغبت
بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ فترد على أبيها: بل هو فراش رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فبيغت الرجل من رد ابنته عليه ليقول لها: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر.

ويتركها ويخرج إلى مجلس النبى، ويجلس أمامه، ويكلمه، ويكلمه، ويشرح، ويفصل فى بنود
العقد، ويعتذر، ويعتذر، ويطلب إبقاء الحديبية، بل وتمديدتها، ويظل الرجل يتكلم والنبى صامت لا
يرد عليه بشيء، ويكتشف الرجل أنه وحده فقط الذى يتكلم والكل ينظر إليه بصمت مخيف
ومريب، فيقوم زعيم قريش يجرجر كرامته إلى بيت أبى بكر ينظره ثم يكلمه، ليتوسط لدى

(٢٣) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ح ١، ص ٩٧.

النبي، لكن أبا بكر يرد ببساطة: ما أنا بفاعل، فيتركه ويلهث إلى عمر بن الخطاب، لكن ليرد عليه عمر بحدة وأنفعال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به...، ولا يدرى الرجل أين يذهب، فيتذكر علياً، فيركض إلى داره ليجد معه فاطمة وولدها الحسن صبي يدب بين يديها، ليقول لعل:

يا علي، إنك أمس القوم رحماً، وإنى قد جئت في حاجة فلا أرجع كما
جئت خائباً، فاشفع لى عند رسول الله. فيقول له علي: ويحك يا أبا سفيان،
والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.
وهنا يلتفت الزعيم المذعور إلى فاطمة، مشيراً إلى طفلها يائساً:
يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجبر بين الناس، فيكون سيد
العرب إلى آخر الدهر؟

ولا تبذل فاطمة جهداً كبيراً لتكتشف أن الرجل يهذى فترد عليه:
والله ما بلغ ابني ذلك أن يجبر بين الناس، وما يجبر أحد على رسول الله.
ويسقط في يد الرجل بعد أن سقط إعياء ليتوجه بالكلام قانطاً إلى علي قائلاً: «يا أبا الحسن،
إنى أرى الأمور قد اشدت على فأنصحنى»، ولا يجد على ما يقول سوى: «والله ما أعلم لك شيئاً
يغنى عنك شيئاً»، ثم يذكره بمكانته قائلاً: «إنك سيد بنى كنانة، قم فأجر بين الناس ثم الحق
بأرضك»، ويسأله أبو سفيان: «أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً؟»، فيرد علي: «لا والله ما أظنه، لكنى
لا أجد لك غير ذلك»، وينهض أبو سفيان يللم كرامة كنانة المبعثرة ليدخل المسجد ويقف وسط
الناس ينادى والعيون تتشظى لهباً حوله: «أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس»، وحتى لا يسمع
ما يكره يخرج مسرعاً إلى بعيده ميمماً شطر مكة^(٢٤).
وما أن يغادر أبو سفيان باب المسجد، حتى ينهض الرسول رافعاً يديه إلى السماء مخاطباً ربه
والناس تسمع:

اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها.
ويتحول نحو الناس يأمرهم بالجهاز إلى مكة، ويركب على رأس عشرة آلاف مقاتل ينزل بهم
مر الظهران، «وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم خبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
ولا يدرون ما هو فاعل»، هذا بينما كان العباس قد أخذ أهله وخرج من مكة متجهاً للمدينة، ليفاجأ
بغثة بهذا الجيش الهائل، وعلى رأسه ابن أخيه فيردد قائلاً:

(٢٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ح ٤، ص ٨٦، ٨٧.

واصبح قريش

والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة

قبل أن يستأمنوه

إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

وينضم العباس إلى ابن أخيه، ويحكى أنه أخذ بغلة النبي البيضاء، وخرج يجوس بها ليلاً حول الجيش قرب مكة، عساه يجد لمكة مخرجاً، فيسمع اثنين يتحاوران، يعرف في صوتيهما أبا سفيان وبديل بن ورقاء، إذ يقول أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً، فيقول بديل: هذه والله خزاعة قد خمشتها الحرب، فيرد أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وهنا ينادى العباس أبا سفيان، يلتقى العباس بالزعيم المأخوذ بذعره، ليسرع إليه بالخبر: «ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الناس، واصباح قريش والله» فيرد أبو سفيان: «فما الحيلة فداك أبي وأمي»، فيقول له العباس: «والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله حى فاستأمنه لك».

ويأخذ العباس أبا سفيان ردفه على بغلة رسول الله وسط نيران الكتائب نحو خيمة النبي ليراه عمر بن الخطاب فيهرع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعنى لأضرب عنقه» لكن يفتح العباس الخيمة مسرعاً قائلاً: «يا رسول الله إني قد أجرته»، وهنا يقول النبي: «أذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»^(٢٥).

وهكذا ينزل أبو سفيان في ضيافة العباس، ضيافة هي إلى الأسر أقرب، وعند الصباح يخرج به العباس، فيرى الناس قد وقفوا صفوفاً منتظمة، فيذعر الرجل ويظن أنها لحظة الهجوم على بلده، فيقول للعباس: «يا أبا الفضل، ما للناس؟ أمروا في شيء؟» فيرد العباس: «لا، لكنهم قاموا إلى الصلاة».

وينظر أبو سفيان لذلك الانتظام العظيم، والانضباط الشديد، عشرة آلاف مقاتل خلف الزعيم، يكبر فيكبرون، يركع فيركعون، يتلو فينصتون، يرفع فيرفعون، فيصاب سيد مكة بالبهتة ويقول:

ما رأيت كالיום طاعة

قوم جمعهم من ههنا وههنا

(٢٥) نفسه: ح ٤، ص ٨٧ : ٩٠

ولا فارس الأكارم
ولا الروم ذات القرون
بأطوع منهم له^(٢٦).

لم يدرك الرجل حتى الآن وهو فى فهمه القبلى يرفل متخلفاً، أن هناك أمراً أعظم من القبيلة،
قد جمع الناس من ههنا وههنا، وتوجه مع العباس بعد الصلاة ليراه النبى فيفجأه بالسؤال:
ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

يقيناً يعلم أبو سفيان ذلك، وكذلك سائر قريش يعلمون يقيناً، أن لا إله إلا الله، وقد شهدت لهم
الآيات القرآنية بذلك العلم، فالله لا إله سواه، لكن هناك الأرياب الأدنى درجة من الإله، تلك التى
تشفع للناس عند الله، ومن ثم كانت إجابة أبى سفيان:

بأبى أنت وأمى
ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك،
والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره
لقد أغنى عنى شيئاً بعد.

وهنا ينتقل النبى إلى الشق الثانى من السؤال، وهو الشق الذى لا شك سيشق على أبى سفيان،
فيقول له:

ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟
فتأخذ الرجل أنفة الصدق العربى فى التعبير عن الدواخل ليرد قائلاً:

بأبى أنت وأمى
ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك
أما هذه

والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً.

لم يكن الرجل بعالم أن إجابته غير موفقة بالمرة، وأن الأمور قد تغيرت، حتى أساليب التعامل
العربية، لأن صراحته هنا لن تكون سوى مدخل له إلى المثنوى الأخير، فيسرع العباس ينبه
الرجل بقوله:

(٢٦) نفسه: ج ٤، ص ٩٩.

ويحك

أسلم واشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله

قبل أن تضرب عنقك

وعلى الفور يقولها زعيم قريش، ويسلم الرجل^(٢٧)، ثم يقول متلعثماً محاولاً إظهار تمسكه بدينه وبهيئته:

وكيف أفعل بالعزى؟

ليسمعه عمر بن الخطاب بجوار الخيمة، فيرد عليه بصوت عال ساخراً ضاحكاً ليسمعه:

نخرا عليها

فيقول أبو سفيان: ويحك يا عمر إنك رجل فاحش، دعني مع ابن عمي فإياه أكلم،^(٢٨).

ومرة أخرى يتدخل العباس يقول للنبي - صلى الله عليه وسلم - : «يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً».

كان الأمر إذن مقضياً، وانتهى أمر زعامة مكة قبل دخولها، حتى أن العباس رأى أن يجعل لزعيم قريش شيئاً بعدما لم يبق له شيء.

ويرى النبي أنه لا بأس من شيء لأبي سفيان فيقول: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

ومن ثم خرج أبو سفيان يحمل عن السيد الجديد رسالة حاسمة قاطعة، هي أوامر بحظر التجول عند دخول الجيش الإسلامي مكة، وقبل أن يهبط مكة، همس النبي لعمه العباس: «يا عباس احبس به بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها»، ويأمر النبي باستعراض القوة، وبينما العباس مع أبي سفيان عند مضيق الوادي، يروى لنا:

مرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟

فأقول سليم، فيقول: مالي وسليم، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول:

مزينة، فيقول: مالي ولمزينة، حتى نفذت القبائل..

(٢٧) الموضوع نفسه.

(٢٨) الموضوع نفسه.

ومر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتيبتة الخضراء، وإنما قيل لها الخضراء، لكثرة الحديد وظهوره فيها.. منها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المهاجرين والأنصار.

قال:

ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة

والله يا أبا الفضل

لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن،

قلت: النجاء إلى قومك^(٢٩).

وهنا نجد شباب قريش وقد أخذتهم الحمية، بينما يقسم النبي جيشه أربعة ألوية كبرى ليدخل مكة، ونقرأ الخبر عند أبي هريرة وهو يحكى:

فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الزبير على إحدى المجنبتين، وبعث خالدًا على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الجسر وأخذوا بطن الوادي، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتيبتة، وقد وبشت قريش أوياشها.. فنظر فرأى، فقال: يا أبا هريرة، فقلت لبيك يا رسول الله، قال: اهتف بالأنصار ولا يأتيني إلا أنصاري، فهتفت بهم فجاءوا فأطافوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: أترون إلى أوياش قريش وأتباعهم؟ ثم قال بيديه، إحداهما فوق الأخرى: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفاء، فقال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء واحد منا إلا أن يقتل منهم ما شاء، وما أحد منهم يوجه إلينا منهم شيئاً، فقال أبو سفيان:

أبيحت خضراء قريش

ولا قريش بعد اليوم^(٣٠).

ويهرع أبو سفيان بالفرع إلى مكة يصرخ بأعلى صوته «يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم

(٢٩) نفسه ص ٩٠.

(٣٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ح ٤، ص ٣٠٥.

فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الجميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم، قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فقد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابيه عليه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد^(٣١).

وبدأ حذر التجول في أم القرى، بعد أن رأى سيد قريش ما رأى، وأراد النبي أن يرى، ثم كيف جمع الأنصار تحديداً أمامه، أهل الحرب والدم والحلقة، أعداء قريش وفدائيي الإسلام ورجاله، ليستبجح بهم مكة حيث ثروات الملاء التي تربو على مئات الملايين، وفيها كان الغيد الحسان اللائي يرفلن في النعيم. ومن ثم تصور سعد بن عباد أن ما صنعه الرسول من استعراض للقوة والعنف أمام أبي سفيان، أمر نهايته استباحة مكة فخرج يحمل راية القيادة أمام الجيش، ويحمل معها مشاعر كل يثري إزاء مكة، هاتفاً: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. ويسمعه المهاجرون فيهرعون بالبلاغ إلى النبي، ومعهم ضرار بن الخطاب شاعراً يفصح عن المشاعر قائلاً:

يا نبي الهدى إليك لجا	حي قريش ولات حين حين لجا
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على الف	وم ونودوا بالصيلم الصلحاء
إن سعداً يريد قاصمة الظ	هر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغ	سيظ رمانا بالنسر والعواء
فلئن اقتحم اللواء ونادى	يا حماة اللواء يا أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش	بقعة في أكف الإمام ^(٣٢)

وهنا ينادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سعداً ليأخذ منه الراية، ويعطيها لأكثر المهاجرين رافة ورحمة ليدخل بها مكة، لعلي بن أبي طالب، وخلف على دخل الجيش في رسالة طمأنة واضحة لمن ينظرون من خلف فرج الأبواب يتطلعون ويرجفون، لتتجرأ النساء فقط فيكشفن عن أنفسهن، ويفتحن الأبواب ويففن في دلع على شارع الموكب العظيم، يحملن أباريق

(٣١) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧

(٣٢) نفسه: ص ١٠١.

الخمير يضررين بها وجوه خيل الفتح فى دعوة واضحة تعلن الاستسلام للقاتحين، ويلخص ابن الأثير ما روته كتب الأخبار بشأن ذلك الاستقبال الحريمى فى قوله:

قام نساء مشركات فى وجوههن، يلطن وجوه الخيل بالخمير، وقد نشرن شعورهن، فرآهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى جنبه أبوبكر، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان^(٣٣)؟

لينطلق حسان مستجيباً يصف المشهد شعراً يقول:

تظل جيادنا متمطرات	يلطمهن باخمير النساء
فإن تعرضوا عنا اعتمرنا	وكان الفتح وانكشف الغطاء
وقال الله لقد سيرت جنداً	هم الأنصار عرضتها اللقاء
ألا أبلغ أبا سفيان عنى	مغلطة قد برح بها الخفاء
بأن سيوفنا قد تركتك عبداً	وعبد الدار ساداتها الإمام ^(٣٤)

ولم يعترض الجيش أحد إلا النساء المرحبات، واللهم إلا مجنبة خالد بن الوليد، الذى لقيه بعض المتحمسين من شباب قريش فى جمع عند الخدمة فقتل منهم ثمانية عشر وفر البقية، وعلم النبى فقال: ألم أنه عن القتال؟ فأجابه مجيب. خالد قوئل فقاتل، فقال: قضاء الله خير، ومن المسلمين لم يقتل غير رجلين خطأ لسريانهما فى أماكن محظورة وقت حظر التجول، هما كرز بن جابر الفهرى، وخالد الأشقر الخزاعى^(٣٥).

ودلف النبى إلى البيت، وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة ليأتيه بمفتاح الكعبة، ذلك المفتاح التاريخى الذى انتقل عبر القرون من أياد إلى أيادى فوق دماء كثيرة، لينتهى إلى سليل البيت الهاشمى، ويمسك النبى بالمفتاح رمز السيادة جميعاً، ويفتح باب الكعبة ليصلى بداخلها ركعتين، ثم يخرج فيقف على الباب آخذاً بعضادتيه وقد لبط الناس حوله، فيخطب فيهم قائلاً:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

(٣٣) ابن الأثير: الكامل .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٣٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧.

(٣٥) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ٢، ح ٢، ص ٩٨.

ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى، فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا
سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقنيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه
الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها فى بطونها أولادها.
يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء.
الناس من آدم وآدم من تراب.

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...» (وقرأ الآية كلها).

يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم؟

ويأتيه الرد:

خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم.

رد ما كان جوابه إلا:

اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويدعو النبي عثمان بن طلحة، فيدفع إليه مفتاح الكعبة وهو يقول: «خذوها يا بنى طلحة تالدة
خالدة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم»، بينما لا شك كان عثمان بن طلحة يتذكر أيام كان محمد
مهيباً ضعيفاً فى بداية دعوته بمكة، عندما أراد أن يدخل محمد الكعبة مع الملائكة القرشى من
السادة ليطالع ما بداخلها، فمنعه عثمان بن طلحة ورده رداً غليظاً، ونال منه، ولا شك يتذكر الآن
وهو يستلم المفتاح من محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أصبح سيد السادة، ما سبق وقاله له
محمد يومذاك: «يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح بيدي يوماً، أضعه حيث شئت»، ولا شك أيضاً
أنه لم يزل ذاكرة بقية الحوار عندما أجابه: «لقد هلك قريش يومئذ وذلت» فرد عليه النبي: «بل
عمرت وعزت يومئذ»^(٣٦). وقد أثبتت الأيام صدق كل كلمة قالها سيد الخلق.

ثم ينادى النبي عمه العباس بن عبد المطلب ليقيمه كما كان على منصب السقاية قائلاً:
«أعطيتكم ما ترزأكم ولا ترزؤنها»، ثم يبعث إلى تميم بن أسد الخزاعي ويأمره بتجديد أنصاب
الكعبة، ثم يأمر بلال بالصعود فوق سطح الكعبة عند الظهر، ليرفع شعار دولة الإسلام مؤذناً به،
بينما يردد النبي: «لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»، وكانت بنت أبى الحكم تردد
قولاً آخر وهى تسمع الأذان، فتقول: «أما الصلاة فسنؤديها، ولكن والله ما تحب قلوبنا من قتل
الأحبة»^(٣٧).

(٣٦) ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ح ٢، ص ٢٣١

(٣٧) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ح ١، ص ٩٩، انظر أيضاً السهيلي: الروص الأنف... سبق ذكره، ح ٤، ص ١١٤

وبعدها خرج النبي إلى ساحة الكعبة، يطوف على الأصنام يشير إليها بقضيب في يده وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ويؤكد ابن هشام عن ابن إسحاق أنه ما أشار إلى صنم إلا وقع لساعته على وجهه أو قفاه، لكن ابن كثير لم يعجبه ذلك، ورأى في سقوط الأصنام بمجرد الإشارة تزييداً ورواية ضعيفة^(٣٨).

وبعدها يدخل النبي إلى قبة بنوها له، وهناك يصدر أوامره بقتل نفر سماهم بالاسم، حتى لو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، منهم جاريثان كانتا تتغنيان بهجاء النبي، فقتلت واحدة واستؤمن للأخرى من النبي فعفا عنها، وسارة وهي جارية كانت تؤذيه بمكة قبل الهجرة وقد استؤمن لها بدورها، والحويرث بن نقيد وهبار بن الأسود وهما اللذان نخسا بعير زينب بنت الرسول فسقطت عنه وألقت جنينها، وعبد الله بن خطل الذي أسلم فأرسله النبي يجمع الصدقات فقتل عبده وعاد إلى مكة مشركاً، وقد قتله سعيد بن حريث، ومقيس بن صبابه الذي ذهب إلى يثرب مسلماً، ثم قتل أنصارياً ثاراً لأخيه ثم عاد إلى قريش مشركاً، وقد قتله نميلة بن عبد الله، وعكرمة بن أبي جهل، وقد جاءت به امرأته للنبي فاستأمنته له^(٣٩).

كذلك صدر الأمر النبوي بقتل الشاعر عبد الله بن الزبعرى السهمي؛ لأنه كان ممن يهجو النبي بشعره، وقد هرب مع هبيرة المخزومي زوج أم هانئ بنت أبي طالب إلى نجران، وهناك أقام هبيرة مشركاً حتى مات، وعاد ابن الزبعرى إلى النبي معتذراً متحجباً بقصائد المديح، فعفا عنه، كما صدر الأمر بقتل وحشى الحبشى لقتله حمزة بن عبد المطلب عم النبي في أحد، لكنه جاء للنبي معتذراً مسلماً فقبل منه، كذلك قبل النبي اعتذار حويطب بن عبد العزى، وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان^(٤٠).

وممن صدر بحقهم حكم الموت كان شقيق عثمان بن عفان من الرضاعة، عبد الله بن أبي سرح، لأنه كان قد أسلم، واشتغل بكتابة الوحي للنبي، ثم ارتد إلى مكة مشركاً، وقد جاء به عثمان إلى النبي يستأمنه، وهو ما جاء عند ابن كثير راوياً: «فلما جاء ليستأمن له صمت عنه الرسول طويلاً، ثم قال: نعم، فلما انصرف مع عثمان قال الرسول لمن حوله: أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا - حين رأي قد صمت - فيقتله؟! فقالوا: يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: إن النبي لا يقتل بالإشارة»^(٤١).

(٣٨) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٠.

(٣٩) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٢، ٩٣، انظر أيضاً السهيلي: الروص الأنف، ج ٤، ص ١٠٤.

(٤٠) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٤١) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩٦.

وتقول رواية أخرى بذات الخصوص أن واحداً من الأنصار كان قد نذر أن يقتل ابن أبي سرح نعمة عليه، فلما جاء به عثمان وكان الأنصارى حاضراً، وبعد ما خرج عثمان وأخوه قال النبي للأنصارى: «هلا وفيت بنذرك؟ فقال: يا رسول الله وضعت يدي على قائم السيف أنتظر منك أن تؤمئ لي فأقتله، فقال النبي: ليس لنبي أن يؤمئ» (٤٢).

ووسط زخم الأحداث، وبين الحشد المتجمع حول قبة النبي - صلى الله عليه وسلم - جاء أبو بكر بشقيقته، التي كانت قد خرجت على باب بيتها حين دخول جيش الفتح إلى مكة مع النسوة اللاتي خرجن يستقبلن جيش الفتح، فتلقاها رجل وخطف من رقبتها طوقها الذهبي، وأمسك أبو بكر بيد شقيقته ينادي جند الله: «أنشدكم الله والإسلام طوق أختي، فلم يجبه أحد، فقال لأخته: أي أختي، احتسبي طوقك، إن الأمانة في الناس اليوم لقليل» (٤٣).

وتنتهز خزاعة الموقف فتعدو على هذيل، فتقتل رجلاً منها بئار قديم، وهنا يغضب سيد الخلق ويقف ينادي في الناس:

يا أيها الناس:

إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماء ولا يعصد فيها شجراً، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة، غضباً على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسول الله ولم يحلها لكم، يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، لقد كثر القتل» (٤٤).

وهكذا، وقفت الأنصار دهشة، كما وقفت قريش أيضاً مأخوذة، فالنبي يكف أيدي الأنصار عن مكة، ويكف أيدي الناس عن بعضهم البعض، ويعلن حرمة البيت إلى نهاية الدهور، ويطلق أهل مكة دون شروط، ويمارس طقوس قريش الدينية بتمامها، حتى تجديد الأنصاب، واحترام الحجر الأسود وتقديسه، لتتساءل الأنصار متوجسة بالهواجس عما سيؤول إليه الأمر، وهل من الممكن للنبي بعد أن نحرك رحمة لبلده أن يمكث فيها بين أهله؟ لكن ليأتيها الجواب من رسول الله -

(٤٢) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٢.

(٤٣) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٩١.

(٤٤) نفسه: ص ٩٤، ٩٥.

صلى الله عليه وسلم - : «معاذ الله، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله واليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم، فأقبلوا إليه ليكون ويقولون: «والله ما قلنا الذى قلنا، إلا للضن بالله ورسوله» (٤٥).

وبعدها يصعد النبي إلى الصفا، لتقف مكة فى طابور طويل، رجالها ونساءها، يمرون أمامه ليلفى كل منهم صيغة الاعتراف والرضوخ ومبايعة الرسول عليهم سيد أو رسولا، بينما يجلس عمر ابن الخطاب أسفل مجلسه «يأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله» (٤٦).

(٤٥) نفسه: ص ٩٥، انظر أيضاً ابن كثير: البداية . سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٦.
(٤٦) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٧.

سرايا خالد بن الوليد

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد،

[النبي - صلى الله عليه وسلم -]

بفتح مكة، انتهت الشفاعات، إحدى ركائز العقائد العربية والقرشية، وتم تدمير تماثيل الأرباب الوسيطة جميعاً، تلك التي كانت قائمة في فناء الكعبة، تتوسط لدى إله السماء أمن هم في الأرض من عباده، وسقط عمود أساسي من أعمدة الوثنية المكية المرتبطة بالكعبة والتجارة، حيث كانت تلك الأرباب أرباباً للقبائل الضاربة في بطن شبه الجزيرة، استضافتها الكعبة المكية جذباً لاتباعها نحو المركز التجاري المكي، لمزيد من الرواج النجاري، وإثباتاً لسيادة الإله المكي الأعلى السماوي على بقية الأرباب، بما يحمل ضمناً التسديد القرشي على بقية القبائل. ومن ثم سقطت الوسايط ودمرت الشفاعات بتدمير تلك التماثيل، الذي جاء تدميراً للرموز القبلية المتعددة وصهر تلك القبائل جميعاً في منظومة الأمة الواحدة، عبر العبادة المباشرة لإله واحد لا يقبل وساطة من أحد إلا بإذنه، وقد أذن بذلك لصفية النبي القرشي كشفيغ أوجد، لتنتقل حالة التشتت القبلي الساعي نحو التوحيد بتماثيل متجاورة في الكعبة، إلى توحيد كامل بصهر جميع الشفاعات في شخص سيد أوجد من قريش هو النبي عليه الصلاة والسلام، لتضمن قريش بذلك سيادة أعظم، فينوب عنها جميعاً سيد الخلق سيداً للعرب وشفيعاً أوجد للإله الأوجد في الدولة المتوحدة الموحدة. وإعمالاً لذلك انطلقت سرايا المسلمين لتدمير هياكل الأرباب الوسيطة في محيط الجزيرة،

وبين تلك السرايا كانت سرية خالد بن الوليد لتدمير العزى وبيتها في ناحية نخلة، ذلك الصنم الذى اجتمعت حوله قريش وكنانة ومضر، ليفكك بذلك هذا التحالف القبلى السابق بين تلك القبائل ويصهرها فى منظومة الدولة.

وتروى لنا كتبنا الإخبارية أن خالداً انتهى إلى العزى فهدمها وقطع سمراتها الثلاث وكسر ما لحق بها من رموز مقدسة، ورجع إلى النبى، لكن لتتدخل تلك الروايات مرة أخرى تحاول التأكيد على ما كان وراء العزى من قوة غيبية، لكنها قوة ضعيفة مخيفة شيطانية، فتسوق رواية تحكى أنه بعد عودة خالد إلى النبى سأله النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما رأيت ؟ فيرد أنه لم ير شيئاً، فيأمره النبى بالعودة مرة أخرى إلى العزى، ولا نتفهم السبب إلا باستمرار الرواية وهى تؤكد أن النبى كان يعلم أن العزى ليست مجرد حجر وأشجار، حيث يعود خالد إلى المكان فتخرج إليه امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول، فيعلوها خالد بالسيف وهو ينادى: يا عزى كفرانك لا سبحانك، إنى رأيت الله قد أهانك، ويقتل خالد تلك الربة أو تلك الشيطانة فيتكشف له مافى البيت المقدس من مال مخبوء، فيعود به إلى النبى، ليعقب الرسول قائلاً: تلك العزى ولا تعبد أبداً^(٤٧).

ويعود النبى فيرسل خالداً فى سرية أخرى، ترتبط أحداثها بمبدأ الإسلام وقاء وأهميته والتأكيد عليه، حيث سيعلن النبى تبرؤه من خالد بن الوليد وشكواه إلى الله، لكسره تلك القاعدة الأساس فى بناء الدولة، حيث خرج خالد برجاله المقاتلين، بعضهم من المسلمين الأوائل، وبعضهم من الطلقاء والأعراب اللاحقين بالدولة طمعاً فى المغانم أو الأمن، ليهبط على مياه بنى جذيمة، وإعمالاً لمبدأ الإسلام وقاء يؤكد ابن كثير المعنى ذلك فى قوله: «بعث عليه السلام خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بنى جذيمة.. بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب»^(٤٨).

ويروى الطبرى أن بنى جذيمة ما أن رأوا خالداً حتى أخذوا السلاح، فناداهم خالد:

ضعوا السلاح

فإن الناس قد أسلموا^(٤٩).

وهو النداء الذى يحمل معنى السلام بالإسلام، وما يستدعى الشعور بالأمان ووضع السلاح، ويعلمنا ابن سيد الناس من جهته أن جذيمة قد أسلمت بالفعل سلفاً قبل أن يصلها خالد برجاله، وهو ما يتضح فى الحوار الذى ساقه بين خالد وبينهم حيث يقول لهم خالد: «ما أنتم؟ قالوا:

(٤٧) نفسه: ص ٣١٤، ٣١٥.

(٤٨) نفسه: ص ٣١١.

(٤٩) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٧.

مسلمين قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحاتنا وأدنا فيها، قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا السلاح، فوضعوه، فقال لهم: استأسروا، فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكفف بعضاً وفرقهم في أصحابه^(٥٠).

وتطفر هنا إشارة لا تفوت قارئ مدقق، حيث تجمع كتب الأخبار أن بنى جذيمة عندما رأوا خالد بن الوليد، صرخ أحدهم واسمه (جحدم) صرخة الفزع ينادى قومه محذراً الاستجابة لخالد:

يا بنى جذيمة إنه خالد

والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار

وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق

والله لا أضع سلاحى أبداً.

فأخذه رجال من قومه فقالوا: يا جحدم إن الناس قد أسلموا، ووضعت الحرب وأمن الناس، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم سلاحهم^(٥١).

لكن يبدو أن (جحدم) هذا كان ذا وعى نافذ، لا يطمئن ولا ينسى، فهو لم ينس أبداً ذلك الأمر الذى دعاه للفزع عندما رأى خالدًا، ويبدو أنه الأمر الذى لم يغرب عن بال خالد لحظة منذ خرج لبنى جذيمة، ذلك الأمر الذى يشرح لنا ابن هشام أمره، عما كان بين بعض قريش وبعض جذيمة قبل الدعوة الإسلامية إذ يقول:

«وكان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وعوف بن عبد مناف بن الحارث بن زهرة، وعفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، قد خرجوا تجاراً إلى اليمن.. فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بنى جذيمة بن عامر. كان قد هلك باليمن - إلى ورثته، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام، ولقيهم بأرض جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميث، فأبوا عليه، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذه، وقاتلوه، فقتل عوف بن عوف، والفاكه ابن المغيرة، فهمت قريش بغزو جذيمة، فقالت بنو جذيمة: ما كان مصاب أصحابكم عن ملأ منا، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال، فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب»^(٥٢).

(٥٠) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٥١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١١.

(٥٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١١.

هكذا أدرك جحدم أن لخالد ثأراً عند بني جذيمة، بعمه الفاكه بن المغيرة، ولم يثق الرجل في أن الإسلام قد غير شأن خالد، بينما رأت بقية جذيمة أنه يجب الوثوق برسول رسول الله، بعد أن أسلم الناس وأمنوا الحرب، وطرحوا ما كان من شأن الجاهلية وراءهم، فأمنوا لخالد وأطاعوه موقنين من السلامة في النهاية، لكن ظن جحدم كان هو الظن الصادق، فقد أمر خالد رجاله أن يقتل كل منهم أسيره.

وانقسم الصحابة فريقين حول أمر خالد، حيث رفض المسلمون الأوائل تنفيذ أمر القائد، بل وأطلقوا ما كان بأيديهم من أسرى، أما بقية العريان وطلقاء قريش فقد نفذوا الأمر على الفور، واستحروا القتل بليغاً في الأسرى.

وفي مقتلة مسلمي جذيمة حادثة أوردتها كتب السير تحمل قصة حب رائعة، رواها الرواة عن عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي إذ يقول: «وأدركنا الظعن - النساء - فأخذناهن، فإذا فيهم غلام وصنيء الوجه به صفرة كالمنهوك، فربطناه بحبل وقدمناه لنقتله، فقال لنا: هل لكم في خير؟ قلنا: ما هو؟ قال: تدركون بي الظعن في أسفل الوادي ثم تقتلونني، قلنا: نفعل، فعارضنا الظعن فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته: اسلمي حبيش على فقد العيش، فأقبلت جارية بيضاء حسناء وقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء، قال: سلام عليك دهرأ وإن بقيت عصراً، قالت: وأنت سلام عليك عشراً وشفعاً تترى وثلاثاً وترأ، فقال:

هواك لهم منى سوى غلة الصدر
وعظمى، وأسبلت الدموع على نحري

إن يقتلونني يا حبيش فلم يدع
فأنت التي أخليت لحمي من دمي

فقال له:

وأخرى، وواسيناك في العسر واليسر
جميل العفاف والمودة في ستر

ونحن بكينا من فراقك مرة
وأنت فلم تبعد فنعم فتى الهوى

ليجيبها الحبيب المفارق:

أثيبي بود قبل إحدى الصفائق
وينأى الأمير بالحبيب المفارق

فلا ذنب لى قد قلت نحن جيرة
أثيبي بود قبل أن تشحط النوى

... فقدموه فضرَبوا عنقه^(٥٣).

فجاءت فجعلت ترشفه حتى ماتت عليه^(٥٤).

(٥٣) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٥٤) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ح ١، ص ١٠٨.

ونعلم من رواية ابن كثير أن الشاب لم يكن من بنى جذيمة المسلمين، لكنه جار لهم، لحق بهم عشقاً وهياماً فى بنتهم حببش، ومن ثم ربما كان من المشركين، حيث يقول ابن كثير أن الشاب عندما قبض عليه رجال خالد قال لهم: «إنى لست منهم، إنى عشقت امرأة فلحقته، فدعونى أنظر إليها نظرة، ثم اصنعوا بى ما بدا لكم، فإذا امرأة أدماء طويلة، فقال لها: اسلمى حببش قبل نفاد العيش.. فقالت: نعم فديتك، فقدموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبروه بالخبر، فقال: أما كان فيكم رجل رحيم؟» (٥٥).

وكان أول المحتجين على فعل خالد بمسلمى جذيمة ذلك الصحابى الجليل عبدالرحمن بن عوف، وهو ابن عوف بن عوف، الذى عدت عليه جذيمة فى الجاهلية وقتلته مع عم خالد الفاكه بن المغيرة، فقام عبد الرحمن بن عوف ينتهر خالدأ يقول له غاضباً: «لقد عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام، فأراد خالد أن يشرك الصحابى الأول فى الجريمة الشنيعة، ويلبسه جميلاً غير جميل بقوله له: «إنما تأثرت لأبيك»، لكن ليرد عليه عبد الرحمن بن عوف مكذباً محتجاً فاضحاً:

كذبت

فأفقد قنلت قاتل أبى

لكلك تأثرت بعمك الفاكه بن المغيرة (٥٦).

وأخذ المسلمون يتلاومون فى أمر قتلى مسلمى جذيمة المستسلمين لأمان الإسلام، حتى بلغ الأمر رسول الله بليغاً، فانتفض رافعاً يديه حتى رأى الناس ما تحت إبطيه وهو يهتف بأعلى صوته أمام الكعبة، ليبلغ الجميع أن الإسلام ينبغى أن يكون وقاء لأهله، مردداً من المرات ثلاثاً صارخات:

اللهم إنى أبرأ إليك

مما صنع خالد بن الوليد (٥٧).

ثم أردف هتافه الملتاع الغاضب الحزين بديات القتلى يرسلها إلى جذيمة حتى ترضى، وحتى

(٥٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٤.

(٥٦) نفسه: ص ٣١٢.

(٥٧) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٧.

ترى العرب ذلك واضحاً، لكن ابن كثير يلحظ الموقف بعين فاحصة واعية فيقول: إنه رغم قتل خالد لعدد كبير من مسلمي جذيمة، وأنه «قتل طائفة كثيرة منهم وأسربفيتهم، وقتل أكثر الأسرى أيضاً، فمع هذا لم يعزله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل استمر به أميراً.. لهذا لم يعزله أبو بكر في خلافته حين قتل مالك بن نويرة أيام الردة، وتأول عليه ما تأول حين ضرب عنقه واصطفى امرأته أم تميم، فقال له عمر بن الخطاب: اعزله فإن في سيفه رهقاً، فقال له الصديق: لا أغمد سيفاً سله الله على المشركين»^(٥٨).

(٥٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ح ٤، ص ٣١٣.

غزوة هوازن

«يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشاً
ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم،

[الأنصار]

لم تدرك هوازن تلك القبيلة الكبرى، ولا ثقيف التي لا تقل عنها شأنًا، أن الأمر يسير إلى نتائجه التاريخية، ولا أدركت كلتاها أن وحدة العرب في جزيرتهم قد انعقدت في صفحات الزمن بعد فتح الفتوح، والاستيلاء على أم القرى، ولم تدرك القبيلتان أن غزوات الجاهلية في سبيلها إلى زوال، حيث يحكى لنا ابن الأثير ذكر غزوة هوازن في وادي أوطاس بجبال حنين، فيقول: «وكانت في شوال، وسببها أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكة، جمعها مالك ابن عوف النصرى، من بنى نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد فتح مكة، وقالوا: لا مانع له من غزونا، والرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا، واجتمع إليه أهل ثقيف،^(٥٩) أما الطبرى فيعلمنا أن هوازن وثقيف قد جمعوا جموعهم عندما سمعوا بمسير جيش يثرب نحو مكة، ظناً منهم أنه يريدهم هم^(٦٠)، وقد ذهب البلاذرى مذهب ابن الأثير في قوله: «وكانت أشراف هوازن بن منصور وغيرهم من قيس

(٥٩) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦١.

(٦٠) الطبرى: تاريخ... سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٠.

قد تجمعوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقالوا: قد فرغ لنا فلا ناهية له دوننا والرأى أن نغزوه،^(٦١).

وعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرعب الذي أخذ هوازن، ودفعها دفعاً لتخرج في حلف مع ثقيف، يتقدمها رجالها، قد أخذوا معهم نساءهم وأموالهم وأطفالهم، بتقرير فدائي من مالك بن عوف ملكهم وسيدهم، حتى يجد كل رجل منهم في نفسه الغيرة والحمية للقتال دون عرضه وماله، فكان وجود المال والنساء والعيال وراء الرجال دافعاً للاستماتة القتالية من وجهة نظر قائدهم مالك بن عوف، طالباً بذلك روحاً فدائية ونصراً لا يشك فيه.

وخرج النبي برجاله من مكة غازياً لهوازن، لكنه ترك لأهل مكة، ولفرعها الأموى تحديداً طمأنة واضحة، تبليغاً بمكانتهم ودورهم في الدولة، فاستخلف على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس الأموى، وكان عمره إذ ذاك قريباً من عشرين سنة^(٦٢)، منبهاً بذلك إلى دور الجيل القرشي المقبل. ومطمئناً لتجار مكة وسادتها على نظامها الاقتصادي والتجاري، بل والديني الذي أفرزه ظرفها التاريخي، وهو ماتوكده رواية ابن الأثير حيث يقول: إن عتاب الأموى قد حج بالناس هذا العام، «وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج»^(٦٣).

وبينما تتحرك كتائب الإيمان نحو أوطاس حنين في اثني عشر ألف مقاتل، منهم جيش الفتح وكان عشرة آلاف، وقد انضم إليه ألفان من الطلقاء، يقول النبي وهو على رأس ركبته العظيم، تهتز تحته أرض البوادي تسمع العربان:

لن نغلب اليوم من قلة!!^(٦٤).

وكانت كلمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - معبرة تماماً عن واقع موضوعي واضح فصيح، فمهما كانت قوة هوازن وثقيف، فلن تقاس عدأ على جند الله الذين يمثلون أكبر جيش عرفته الجزيرة من عربها، ولم يعد الأمر بحاجة في تلك الجولة لاستدعاء ملأ السماء المقاتل ولا تعبئة للملائكة، ونادى النبي في رجاله هاتفاً:

من قتل قتيلاً فله سلبه^(٦٥).

(٦١) البلاذري: أنساب الأشراف... سبق ذكره، ج ١، ص ٣٦٤.

(٦٢) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٣.

(٦٣) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٧٢.

(٦٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٤.

(٦٥) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

وجاءه رجل من عيونه المتقدمين يحمل أخبار العدو يقول: «يارسول الله، إنى انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن عن بكرة أبيها بظعنهم وبنعمهم وشأنهم قد اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله» (٦٦).

لكن على طريق هوازن، يظهر بين ذلك الجمع من جند الإيمان كثير من سوء الفهم للإسلام وأهدافه، خاصة بين أولئك الذين احتشدوا معه على حداثة عهد بالإسلام من العربان والطلقاء، حيث يمرون بشجرة مقدسة لعرب الجاهلية اسمها ذات أنواط، وعندما يرونها يقولون للنبي - صلى الله عليه وسلم - «يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»، وكانت ذات أنواط قد بلغت رتبة الربوبية في الجاهلية، ومن ثم لم يدرك هؤلاء مغزى التوحيد القومى والتوحيد الألوهى الذى لا يقبل شراكة، وهم من لاشك ينطبق عليهم قول الآيات الكريمة «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا» (١٤ / الحجرات)، لذلك كان رد رسول الله عليهم المستنكر: «الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة، لتركبن سنن من كان قبلكم» (٦٧).

هذا بينما كان مالك بن عوف قد عزم من جانبه على نصر إن حدث غير تاريخ الجزيرة والعالم، فاستفاد من دروس غزوة بدر الكبرى، حين كان المسلمون قلة أمام كثرة، وعلم الأسباب ودرس الخطط، ليفعل ماسبق وفعله المسلمون أعوانها، فسبق جيش المسلمين برجاله إلى مواقع متميزة اختارها بجبال حنين المرتفعة والتي تنحدر إلى قعر فسيح يسمى أوطاس، ووزع رجاله في مواقع مختارة بعناية، وهياهم مابين رام وفارس وراجل ودارع، ووضع خلفهم نساءهم وأطفالهم وبعيرهم وشياهم وأموالهم، وهو يعلم من جانب آخر حال ذلك الجيش الهائل وما فيه من ثغرات، أهمها أولئك الذين دخلوا الإسلام كرها، وأطلق عليهم المسلمون الأوائل اسما يليق بهم، أسموهم الطلقاء.

ونسمع من الصحابى جابر تصوير المشهد الأول للغزوة وهو يقول:

فلما استقبلنا وادى حنين، انحدرنا فى واد أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحذاراً، فى عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنا لنا فى شعابه ومضايقه، قد تهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا

(٦٦) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٦٧) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن ١٨ باب لتركس سنن الحديث ٢١٨٠.

الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لايلى أحد على أحد^(٦٨).

الآن يهزم جيش دولة النبي وهو الكثير أمام فئة قليلة؟! الآن وبعد ذلك المشوار الطويل الكبير العظيم، وبعد أن قاربت الدولة الكبرى على القيام فى جبين التاريخ، وبعد كل تلك المعاناة والتجارب والهزائم والانتصارات، وبعد كل تلك الدماء وذلك العمر الذى انقضى، والدولة الكبرى من التحقيق قاب قوسين أو أدنى، وبعد كل ذلك التواصل بين الأرض والسماء، وكل الآيات التى تتحدث عن الاستشهاد وعن الجنة وعن النار، تفر الكثرة أمام القلة، ويتبعثر الاثنى عشر ألف مقاتل منهزمين يحاولون الصعود من أوطاس إلى حنين، والصعود ليس كالهبوط، فيه الذعر وفيه الكبوات، فيه سهام تذرورماح تطارد، لا أحد يلتفت إلى أحد، ولا حتى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يرى المشروع برمته يتزلزل زلزالا عنيفا، ليقف مكانه ثابتا، فالآن بعد كل تلك الحياة الحافلة بزخم الأحداث الكبرى، إما حياة تصل إلى مبتغاها أو لا حياة، ويصمد القائد العظيم وحده ويهرب المؤمنون فرارا من الموت، ولا يبقى من القضية كلها والشعارات جميعا عن جنة الشهداء ونار الكافرين، سوى رابطة الدم وحدها، فيجتمع حول بغلة الرسول أهل بيته فقط من بنى عبد المطلب وأبى طالب، ثمانية فقط من الاثنى عشر ألفا وقفوا ترسا واحداً فى حلقة حول ابن أخيه، بينما النبي يهتف فى رجاله المؤمنين^(٦٩):

أين أيها الناس؟!

هلموا إلىّ

أنا رسول الله

أنا رسول الله

أنا محمد بن عبد الله

ويعقب ابن كثير على النداء النبوى:

ولا شيء!!

وركبت الإبل بعضها بعضا.

أو

وانكفأ الناس منهزمين

لا يقبل أحد على أحد^(٧٠).

(٦٨) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦٢، ٢٦٣.

(٦٩) السهيلي: الروض الأنف... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٤١.

(٧٠) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ص ٣٢٥، ٣٢٦.

ووسط الغبار الثائر تحت خطو الهارين وسنابك خيولهم، يلمح أحد الفارين عمر بن الخطاب فيسأله: ماشأن الناس؟ ليجيبه عمر معبراً عن مدى اللوعة واليأس: أمر الله!!^(٧١)

وانتحي أبو سفيان مع رفقة له من رجال مكة الطلقاء، مكاناً آمناً يطالعون مشهد الارتداد والنكوص لجند المسلمين الفرعين، ليفصح لسانه عن مكنون صدره، فيهتف معبراً عن فرحه العظيم:

لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.

أما كلدة بن الحنبل، الذي خرج من مكة مع النبي وهو على شركه، وكان يظن أن ماحققه محمد إنما بفضل السحر، فقد علا صوته وهو يعلن سعادته جهيرة بما يرى ويصرخ:

ألا بطل السحر اليوم!!

لكن ليرد عليه أخوه لأمه صفوان بن أمية، أحد كبار أشراف مكة، معبراً عن قبلته العميقة وعصبيته المتجذرة لأهله، يقول: «اسكت فض الله فاك، فوالله لئن يربنى رجل من قريش، أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن»^(٧٢).

ويقول ابن كثير: «اعتزل أبو سفيان وصفوان وحكيم بن حزام وراءهم ينظرون لمن تكون الدائرة»^(٧٣)، فيمر عليهم رجل من قريش ينادي صفوان بن أمية: «أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجتبرونها أبداً»، ليرد صفوان مكرراً معبراً عن أسفه مما يسمع من بني قريش: «تبشرني بظهور الأعراب؟ فوالله لرب من قريش أحب إلى من رب من الأعراب»، وهي ذات المشاعر العشائرية التي عبر عنها لسان مصعب بن شيبة، عندما سئل بعدها عن خروجه مع رسول الله إلى هوازن، حيث يقول: «والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش»^(٧٤).

أما النبي الذي وقف يشاهد هذا الانهيار، فقد نظر إلى السماء وهو يهتف بربها:

اللهم إنك إن تشاء

لاتعبد في الأرض بعد اليوم^(٧٥).

(٧١) نفسه: ص ٣٢٩.

(٧٢) نفسه: ص ٣٢٥.

(٧٣) نفسه: ص ٣٢٨.

(٧٤) نفسه: ص ٣٢٩، ٣٣١.

(٧٥) نفسه: ص ٣٢٦.

وكان لابد من عمل سريع، وتصرف حاسم، فينظر الرسول إلى حامل راية هوازن، يرفع الراية ويمسك برمح طويل لا يحمله إلا رجل شديد المراس، يقتحم الناس بفرسه ووراءه رجال هوازن وثقيف، وهنا يرفع النبي إصبعه مشيراً إلى حامل الراية، ويتبع على بن أبي طالب الإشارة ليهوى بسيفه على عقب الفرس، فيسقط فيقتله فتسقط الراية، وترتبك هوازن.

ثم يجول المصطفى بعينه يبحث بين الهاريين عن خئولته من أهل الدم والحرب والحلقة الثائرة، ثم يهتف بعمه العباس فجأة، بينما هو واقف يمسك بزمام بغلة الرسول دلدل.

يا عباس؛

ناد: يامعشر الأنصار

يا أصحاب الشجرة

كان النداء نداء رحم وخئولة، وتذكيراً بعهد البيعة حتى الموت تحت الشجرة، وتنبيهاً إلى عقد العربى وجواره المعقود بين الأنصار والنبي فى العقبة، واستشرافاً لشهامة النجدة والمروءة، واستنفاراً للنفوة العربية، ويستمر العباس ينادى والنبي يلقنه:

يا أصحاب البيعة يوم الحديبية

الله، الله

الكرة على نبيكم

يا أنصار الله

يا أنصار رسول الله

يا بنى الخزرج

يا أصحاب سورة البقرة

يا أصحاب السمرة^(٧٦)

نداء لمس الحواشى وهزما بين الجوانح ولجّت به الخئولة فى تعبير العباس بن عبد المطلب وهو يقول:

فوالله لكأنما عطفهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها،

(٧٦) نفسه: ص ٣٢٨، ٣٢٩.

فقالوا:

ياالبيكاه

ياالبيكاه^(٧٧)

وبمضى العباس، الشاهد على عقد العقبة مع الأنصار، الذين تكفلوا بحماية النبي بعهد وعقد عربي، ليصف لنا المشهد الثاني للمعركة الكبرى، لينظر إلى الأنصار ويقول شاهداً على التزامهم عهدهم ووفائهم رحمهم:

فيذهب الرجل منهم يريد أن يثني بغيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يقتحم عن بغيره، فيخلى سبيله في الناس، ثم يؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ماكانت: يا للأنصار ثم جعلت أخيراً يا للخزرج^(٧٨).

وصمد المسلمون، وبدأ الفارون في العودة والتكاثر، وعاد السيف الإسلامي يشتد مرة أخرى ليعمل عمله في هوازن وثقيف لينتحي النبي يمينا وحوله آل بيته الهاشمي، ويقول من معتلاه: الآن حمى الوطيس.

وبلاغة المصطفى هنا ظاهرة في تعقيبته على دورة الدائرة على هوازن في وادي أوطاس، وقوله: الآن حمى الوطيس، والوطيس في شرح السهيلي هي نقرة في حجر توقد حوله النار فيطبخ به اللحم، ويعقب بأنها من الكلم التي لم يسبق النبي إليها أحد^(٧٩).

ومع صمود الأنصار عاد الجيش المنهزم ليحط على عدوه ليستحر القتل حتى قال ابن سعد: «فأمر رسول الله أن يقتل من قدر عليه، فحنق المسلمون عليهم يقتلونهم حتى قتلوا الذرية، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك، فنهى عن قتل الذرية»^(٨٠) وماهى إلا سويغات حتى جمع المسلمون من الأسرى مايربو على ستة آلاف نسمة أعمهم نساء وأطفال تركهم رجالهم وهربوا أو قتلوا^(٨١)، ووقف المسلمون يحصون غنائمهم التي وصلت أربعة وعشرين ألف بغير،

(٧٧) نفسه: ص ٣٢٩.

(٧٨) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ح ٣، ص ٧٤.

(٧٩) السهيلي: الروص الأنف.. سبق ذكره، ص ١٣٨.

(٨٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

(٨١) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ح ٣، ص ٨٢.

وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة^(٨٢)، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتم حبسها في الجعرانة حتى ينظر في أمر توزيعها على أفراد الجيش المنتصر.

هذا بينما كانت أم سليم تعبر عن مشاعر السخط على الخونة في الجيش والطلاق من قريش، الذين فروا والذين شمتوا والذين فرحوا والذين وقفوا ينتظرون تحديد موقفهم بتحديد العلامات المبشرة لمن ستكون الكرة، فتقول للنبي: «يا رسول الله أقتل من بعدها الطلقاء الذين انهزموا بك، فقال: إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم»^(٨٣). وفاضت مشاعر حسان بن ثابت الأنصاري ضد الطلقاء، فقال في كعدة بن الحنبل الذي كان يهتف: «ألا بطل السحر اليوم»:

أبو حنبل ينزو على أم حنبل	رأيت سواداً من بعيد فراعني
ذراع قلوص من نتاج ابن عزهل ^(٨٤)	كأن الذي ينزوبه فوق بطنها

(٨٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠.

(٨٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٦.

(٨٤) ابن هشام في كتاب السهيلي: الروص.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٤.

حصار الطائف

«والله لنحن أذلّ من العبيد»

[عبيدة بن حصن]

الطائف، مدينة الثقفين الكبرى التي بلغت شوطا عظيما في التمدين، كانت المدينة التي لا تقل شأنًا عن مكة، ونافست يثرب طويلا على صدارة الموقع الثاني بعد مكة، وربما سعت مثلما سعت يثرب لتحوز المركز الأول، مستمدة ذلك من قوة أدت إليها عوامل عدة، فهي من أعدل مناطق الجزيرة مناخا وأكثرها خصوبة وزرعا، إضافة إلى موقعها الذي يقف على طريق التجارة بين مكة واليمن، طريق رحلة الشتاء، وهو الأمر الذي جعلها في حسابات الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما كان بمكة يبحث عن مدينة تحقق مشروعه العظيم، تقع في الموقع الأول فزارها داعيا لكنهم ردوه رداً سفيها، فيمم وجهه بعد ذلك نحو الأخوال في يثرب، بعد أن فقد الأمل في فهم سراة ثقيف وأشرفها لأبعد ذلك المشروع الهائل.

وعندما نتذكر عدد رجالها المقاتلين، يجب أن نوقن من وجود صراع على النفوذ بينها وبين قريش، التي كانت تتطلع إلى مد نفوذها إلى الطائف لحل مشكلة وضعتها في المعادلة التجارية، لوجودها على الخط التجارى لرحلة الشتاء، وقد تمكن بعض أثرياء قريش بالفعل من شراء بعض الأماكن الخصبة بين الثقفين، وتتابعوا يستحوذون على أراضيها

الخصبة، وهو مانجده واضحا عند ابن حبيب^(٨٥).

وطبيعى أن تحاول ثقيف الاستقلال الاقتصادى، وهو ما أدى إلى تنافس جعل أهل الطائف يستجلبون قوافل النجارة إليهم، بجعل مدينتهم ذات المناخ المتميز، مركزاً للتجارة والتجار، ووصل الأمر إلى حد وقوع الحرب بين الفريقين فيما يعرف بحرب الفجار، وغنى عن الذكر أنها سميت كذلك لأنها نشبت إبان الأشهر الحرم، والتي أرادت ثقيف ضرب حرمتها لضرب التجارة الفرشية^(٨٦).

ويبدو أن قريشا قد اضطرت إلى لون من المصالحة باقتسام المنافع المشتركة، بعدما جد ظرف جديد لصالح الطائف، تمثل فى استيلاء الفرس على اليمن، وهو ما أدى بإرسال كسرى وملوك الحيرة قوافلهم التجارية إلى اليمن عبر الطائف دون المرور على مكة. ويمكن للعين الفاحصة أن تتلمس أسباب حرب الفجار، حيث شجعت قريش عن عمد حليفاً قبلياً لها ليهاجم قافلة للنعمان ملك الحيرة، ويغلق طريق الحيرة إلى اليمن عبر الطائف.

ومن جانبها وجدت الطائف نفسها مضطرة إلى السلام مع قريش، بالنظر إلى ظرفها الداخلى، حيث نشب الصراع بين عشائرها، وهو المعلوم بشأن بنى عوف مقابل بنى مالك، بينما اتجهت قريش إلى مد نفوذها الاقتصادى داخل الطائف بشراء أراضيها، وإقراض رؤسائها ما يريدون من أموال، لينتهى القريشيون إلى السيطرة على السوق الداخلية للطائف، بل وحولوا مدينة الطائف إلى سوق الحجاز المركزى، وبالمقابل كانت ثقيف بحاجة لتصريف منتجاتهم الزراعية فى مكة، فاعترفت بالأمر الواقع، وبصدارة مكة وبالتحالف مع قريش لعدم إهدار المصالح، فكانا يقتسمان النفوذ تقريباً عند ظهور الإسلام، حيث سيطرت قريش على طريق الإيلاف الشامى، وتركزت للطائف طريق الشتاء، وانتقل الصراع إلى تحالف واختلاط ومصاهرات ومشاركة فى رؤوس الأموال.

وعندما نتذكر أن ثقيف هى التى كانت دليل جيش أبرهة الحبشى نحو مكة عام الفيل^(٨٧)، يمكن أن نفهم فوراً موقف ثقيف المتصلب عندما ذهبها محمد داعياً، ثم موقفها المتصلب من النبى ومن قريش بعد سقوط مكة واستسلام سادتها للنبى، حيث اكتشفت أن مصيرها الخضوع

(٨٥) ابن حبيب: المنق فى أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، ط ١، الهند، ١٩٦٤، ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٨٦) نفسه: ص ٢٠٩.

(٨٧) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابى الحلبي، القاهرة، ص ٢، ١٩٥٥، ج ١، ص ٤٧.

التام لسيادة قريش إن غزاها النبي، ومن ثم قامت تحالف هوازن لتكوين جبهة تحاول إنقاذ مصالحيها من ذلك التهديد الهائل، وخاضت حربها اليائسة ضد جيش المسلمين، بينما كان النبي على الطرف الآخر يسعى إلى هذه المعركة سعياً، حيث كان قراره بحفظ مكة قريته وأهله من السبي، ومن ثم لم يغنم جنده شيئاً يعرضهم عن فتحها، حيث لم يغنموا شيئاً على الإطلاق^(٨٨)، ومن ثم كان توجيهه المسلمين نحو هوازن وثقيف اللتين كانتا قد تهيأتا بدورهما للمعركة الانتحارية^(٨٩).

وبالهيمنة، تراجعت ثقيف إلى الطائف، ومعها من انضم إليها من هوازن، حيث حصنهم القوة وميرتهم وزادهم الكثير^(٩٠)، وهنا أمر النبي بالمسير فوراً إلى الطائف ليضرب الحصار على حصونها.

ولما كانت ثقيف قد ترفلت في النعيم، ولاتقل ثرواتها عن ثروات المكيين، واقتنى سادتها الثمين من مقتنيات الذهب والفضة، وحلوا نساءهم بالجوهر على أنواعه، فقد انسلت خولة بنت حكيم بن أمية زوجة عثمان لتقترب من النبي وهم يوجهون نحو الطائف تقول له:

يا رسول الله، أعطني إن فتح الله عليك الطائف، حلّى بادية بنت غيلان،
أو حلّى الفارعة بنت عقيل^(٩١).

هذا بينما كان المخنث (هيت) مولى فاختة بنت عمرو خالة النبي، يقول لعبد الله بن أمية:

إن فتح الله عليكم الطائف، فسل رسول الله أن ينفلك بادية بنت غيلان،
فإنها هيفاء شموع نجلاء، إن تكلمت تغنت، وإن قامت تثنت، وإن مشت
ارتجت، وإن قعدت تبنت، تقبل بأربع وتدبر بثمان، بثغر كالأقحوان، بين
رجليها كالعقب المكفأ^(٩٢).

وكان (هيت) يدخل على نساء النبي ويذهب إلى بيوته، والرسول لا يظن أن له شيئاً مما للرجال، وأنه لا يفطن إلى شيء من أمر النساء مما يفطن إليه الرجال، ولا يرى أن له في ذلك إرباً، فلما سمعه يقول ما قال لعبد الله بن أمية قال: «لأرى هذا الخبيث يفطن لما أسمع، ثم قال

(٨٨) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٦٤.

(٨٩) اليعقوبي: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٤، ١٩٧٤، ج ٢، ص ٥٣.

(٩٠) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٢٦٦.

(٩١) ابن هشام في كتاب السهيلي: الروص... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٠.

(٩٢) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦٨.

لنساءه: لا يدخلن عليكن، فحجب عن بيت الرسول»^(٩٣) لكنه في رواية السهيلي قال لهيئت: «قاتلك الله، لقد أمعنت النظر، ثم قال: لا يدخلن هؤلاء عليكن، ثم نفاه إلى روضة خاخ، فقيل إنه يموت جوعاً، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس»^(٩٤).

وصيغة الجمع في قول رسول الله: «لا يدخلن هؤلاء عليكن»، تشير إلى آخرين مخنثين عاشوا في مدينة الرسول مثلما كان حال (هيئت) وهو ما يفيدنا به السهيلي في شرحه لأمر مخنثي المدينة حيث يقول: إن المخنثين المعلومين كانوا أربعة يحملون أسماء تليق بهم، فهم (هيئت) و (هرم) و (ماتع) و (أنه)، ووصفهم بقوله: «كان تأنيثهم لينافي القول وخضاباً في الأيدي والأرجل كخضاب النساء، ولعباً كلعبهن، وربما لعب بعضهم بالكرج، وفي مراسيل أبي داود أن عمرو رضى الله عنه رأى لاعباً يلعب بالكرج، فقال: لولا أنى رأيت هذا يلعب به على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - لنفيته من المدينة»^(٩٥).

وبالوصول إلى الطائف أمر النبى بقصر مالك بن عوف المتطرف فأحرق^(٩٦)، ويقول البيهقي أنه نصب عليهم المنجنيق أربعين يوماً، فكان أول من رمى بالمنجنيق والدبابات والصنبور في الإسلام، لكن ثقيف المستميتة تمكنت من صد دبابات المسلمين، بإلقاء الحديد المحمى بالنار عليها وعلى من فيها من فوق الأسوار، وهنا أمر النبى بقطع كرومهم الهائلة الموجودة خارج حصونهم لتدميرهم معنوياً^(٩٧)، فنادوه من على الأسوار «لاتفسدوا الأموال فإنها لنا أولكم»^(٩٨)، فرد عليهم بنداء آخر يسمع عبيدهم أن من خرج إليه من عبيد ثقيف فهو حر، فخرج إليه هرباً بعضهم على رأسهم من أصبح بعد ذلك الصحابي الجليل أبو بكر^(٩٩).

ولما طال الحصار جاء الأحمق الذى لم يعد مطاعاً (عيينة بن حصن) زعيم غطفان الفزارية إلى النبى، والمفترض أنه قد أصبح مسلماً، فطلب منه الإذن ليذهب إلى ثقيف في حصونها، يدعوهم إلى الاستسلام والإسلام، لكنه عندما وصلهم أفصح عن لسان حال الزعماء الذين خضعوا راغمين، فقال لهم:

بأبى أنتم، تمسكوا بمكانكم، والله لنحن أذل من العبيد، وأقسم بالله لئن

(٩٣) نفسه: ص ٢٦١.

(٩٤) السهيلي: الروص... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٣.

(٩٥) نفسه: ص ١٦٤.

(٩٦) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ح ٥، ص ١٥٧.

(٩٧) ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٩٨) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ح ٤، ص ٣٤٦، ٣٤٧.

(٩٩) نفسه: ص ٣٤٧.

حدث به حدث لتملكن العرب عزة ومنعة، فتمسكوا بحصونكم، وإياكم أن تعطوا بأيديكم، ولا يثكأ ثرن عليكم قطع الشجر^(١٠٠).

وطال الحصار، وعلم النبي أن الأمر سيطول أكثر، وأن ثقيفا تمتنع في حصونها ولديها من الزاد وفرة، فاستشار نوفل بن معاوية الدولى، فقال له: يارسول الله ثعلب في جحر، أن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك^(١٠١)، فاستدعى النبي أبا بكر وقال له: «يا أبا بكر إني رأيت أنى أهديت لى قعبة مملوءة زبداً، فنقرها ديك، فهراق مافياها، فقال أبو بكر: ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ماتريد، فقال رسول الله: وأنا أرى ذلك^(١٠٢). ومن ثم أذن فى الناس برفع الحصار والعودة إلى الجعرانة، حيث أسرى وسبايا وغنائم حنين.

وعندما سمع الزعيم الغطفاني عيينة بن حصن الفزارى نداء رفع الحصار عن ثقيف، هتف لفره معبراً عن عظيم فرحه: «أجل والله مجدة كراما، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد جئت تنصره؟ فقال: والله إني ماجئت لأقاتل ثقيفا معكم، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطوها^(١٠٣).

أما ابن كثير فقد التمس تفسيراً تبريراً لرفع الحصار عن الطائف وذلك فى قوله الباحث عن الحكمة وراء الحدث:

قلت: وكانت الحكمة الإلهية تقتضى أن يؤخر الفتح عامئذ، لئلا يستأصلوا قتلا، لأنه قد تقدم أنه عليه السلام لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى، وإلى أن يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل، وذلك بعد موت عمه أبى طالب، فردوا عليه قوله، وكذبوه، فرجع مهموماً، فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة فيها جبريل، فداده ملك الجبال، فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام، وقد سمع قول قومك لك وماردوا عليك، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل أستأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبدده وحده لا يشرك به شيئاً، فناسب قول: بل أستأنى بهم، ألا يفتح حصنهم لئلا

(١٠٠) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ح ٥، ص ١٦٣.

(١٠١) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦٧.

(١٠٢) ابن هشام فى كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ح ٤، ص ١٥٠.

(١٠٣) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٥٠.

يقتلوا عن آخرهم، وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل^(١٠٤).

وعاد النبي برجاله إلى الجعرانة، لتأتيه هناك امرأة من سبى هوازن، تزعم أنها أخته من الرضاعة، وأن اسمها الشيماء، فيسألها عن مؤيدات صدقها، فتكشف له بجسدها عن عضة كان قد عضها لها، فيتعرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - على العلامة، فيبسط لها رداءه ويجلسها عليه، ويخيرها بين البقاء عنده محببة مكرمة، أو أن يعيدها إلى قومها ممتعة، فتقول له: «بل تمتعني وتردني إلى قومي.. فأسلمت، فأعطاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة أعبد وجارية، ونعما وشاء، وسماها حذافة، وقال: الشيماء لقب»^(١٠٥).

وتعلم هوازن بعودة النبي، وتدرك أن الإسلام هو الوقاء الأمثل فتختار له تسعة ممن بقى من أشرفهم، ليعلموا أمامه إسلام هوازن ويبايعوه على السمع والطاعة، ثم يفاتحوه في مصابهم قائلين: «يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهن مخازي الأقوام، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله، وكان رحيمًا جوادًا كريمًا، فقال سأطلب لكم ذلك»، أما كيف؟ فقد سألهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «أبناؤكم ونسائكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنا فهو أحب إلينا، فقال: إذا أنا صليت بالناس الظهر، قوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيك عند ذلك وأسأل لكم».

وفعل الهوازنيون بتوجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ووافق جميع المسلمين اللهم إلا عيينة بن حصن مع غطفان وفزارة، والأقرع بن حابس التميمي ومعه تميم، وعباس بن مرداس زعيم سليم، إلا أنهم وافقوا جميعاً في نهاية الأمر^(١٠٦)، وعادت هوازن برجالها ونسائها وأطفالها مؤمنة مسلمة بعد كفران، لكن بعد أن ركبت رأسها فخرت أموالها وشرف بعض نسائها.

ورغم نصر هوازن فإن الرسول القائد - صلى الله عليه وسلم - ما كان ليغفل عن نقطة ضعف قد تكون قاتلة في صفوف رجاله، حيث بينهم من دخل تحت سيادة الدولة وسيدها، من سادة ورؤوس وأشرف كبار، كان أحدهم لا يقبل برأس يعلو رأسه، فدخلوا على مضض مرغمين، يتحينون فرص النكوص، وعبروا في أكثر من موقف عن مكنون صدورهم، أما الأخطر فهو ما يمكن أن يسببوه للدولة من مشاكل، ربما أدت لنكسات وهزائم، وهو الأمر الذي يمكن استنتاجه

(١٠٤) نفسه: ص ٣٥١.

(١٠٥) ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٢.

(١٠٦) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ١٩٢، انظر أيضاً ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٢.

ببعض الظن، فمن المحتمل أن يكون ما حدث في المشهد الأول لوقعة حنين ترتيباً مقصوداً من الطلقاء، من قريش ومن القبائل الكبرى كقزارة وسليم وتميم، فيهرب فرسانهم أمام هوازن، لإيقاع الارتباك بين جنود المسلمين وصفوفه، الذى يمكن لأفراده أن يهربوا بدورهم بغريزة القطيع، وهو أمر محتمل تماماً إذا أخذنا بالاعتبار حجم الجيش الإسلامى وعدد أفراد هوازن المقاتلين، وهو ما يزداد تأكيداً إذا تذكرنا أن الكرة عادت على هوازن فقط بمئة أنصارى من بين الاثنى عشر ألفاً، أحوال الرسول وناصريه فى كل موقع بخولة حقة وإيمان صادق، ولولا صمود الأنصار فى الوقعة لكانت النتائج مختلفة تماماً، ولربما تغير وجه التاريخ برمته. كان وعى القائد النفاذ يستدعى حلاً سريعاً لرتق تلك الثغرات فى الولاء للدولة، فقام يوزع الأعطيات الهائلة من مغانم الهوازنيين الذين أسلموا على كبار الرؤوس والهجمات الصلبة الثرية أصلاً، ليفتح عيونهم على ما ينتظروهم وإشعارهم أن الإسلام لا ينتقص منهم ومن مكانتهم، بل يزيدهم ثراءً على ثراء، ويفتح أمامهم أبواب الغنى الهائل على مصراعيه، إزاء الطموحات المتوثبة فى الوعد النبوى بكنوز كسرى وقيصر. فأعطى أبا سفيان صخر بن حرب أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل، فلم يقنع السيد القرشى وطلب لابنه يزيد، فأعطاه مثلاً ما أعطى أباه، فطلب لابنه معاوية فأعطاه مثلهما، كما أعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل فسأله مثلهما فأعطاه، وأعطى الحارث بن كلدة مائة من الإبل كذلك لأسيد بن جارية والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وقيس بن عدى وسهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزى والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ومالك بن عوف، وكلهم سادة قومهم وأشرفهم وأثريائهم، لكل منهم مائة من الإبل، وأعطى لسيد من السادة هو عباس بن مرداس زعيم سليم أربعين من الإبل، فسخط سخطاً شديداً وقام يعبر عن واقع ما يحدث من سيادة وتسييد بقوله:

فأصبح نهبى ونهب العبد يد بين عيينة والأقرع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال النبى: اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه، فظلوا يعطونه حتى رضى، ثم وزع الإبل خمسين خمسين على من هم أدنى فى السيادة درجة^(١٠٧) كل ذلك والأنصار تقف مشدوهة تتطلع. ولا شك أنها تذكرت وتذاكرت مواقفها من البدء حتى المنتهى، ودماء بعضهم لم تجف بعد على ثرى أوطاس بحنين، ثم تتذكر خروجها مع النبى فى غزواته وطلوعها على العرب فى سرايا، وقتل من يأمر الرسول بقتله من بينهم أو من بين أحلافهم، ثم لاشك يتذكرون يوم أحد،

(١٠٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مح ٢، ح ١، ص ١١٠، انظر أيضاً ابن هشام فى كتاب السهيلي: الروص.. سبق ذكره، ح ٤، ص ١٥٥.

عندما فر الناس من حوله بخاصة المهاجرون، وكيف صمدوا للمشركين يصدونهم عن رسول الله، وكيف صن النبي بطلحة عندما كان يهرب إلى معتلى الصخرة، ويقول: ألا أحد لهؤلاء، فيكر أنصارى عليهم يمنعهم عن النبي فيموت شهيداً، ثم يصعد النبي ومعه طلحة، فيقول النبي: ألا أحد لهؤلاء، فيقول طلحة: أنا لهم يارسل الله، فيقول كما أنت ياطلحة، فينزل لهم رجل من الأنصار حتى يموت شهيداً.

لا شك أيضاً يذكر الأنصار بيعة العقبة وعقدها، ويوم الهجرة عندما أتاها النبي مهيضاً لاجئاً مع رجاله، فأعطوهم دورهم وشاركوهم قوتهم بل ونساءهم.

ولاشك أيضاً أن الحاضر قائم بكل تفاصيله، وأنه لولا هم عندما عطفوا عطفهم على هوازن، مابقى من الأمر شيء وهنا تعلق الأصوات، ويكثر اللغط، ويقول قائلهم:

نحن أصحاب كل مواطن وكل شدة ثم آثر قوما علينا وقسم فيهم قسماً لم يقسمه لنا، وما نراه فعل ذلك إلا وهو يريد الإقامة بين ظهرانهم.

ويقول آخر:

يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

ويزيد ثالث:

أما من قاتله فيعطيه، وأما من لا يقاتله فلا يعطيه.

هذا بينما بدأ الاحتجاج، وأخذ الناس يكثرون فى الكلام، حتى قيل للرسول ما لا يصح من كلمات شديدة الاحتجاج، فهذا أبو موسى يروى: «كنت عند النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو نازل بالجرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى رسول الله أعرابى فقال: ألا تنجزلى ما وعدتنى؟ فقال له: أبشر، فقال الأعرابى:

لقد أكثرت على من أبشر؟

بينما يقف رجل آخر على رأسه ويقول له:

يا محمد اعدل.

ليرد النبي: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟

فيجاوبه ذو الخويصرة من بنى تميم غاضباً:

لقد رأيت يا محمد ما صنعت.

فيسأله: وكيف رأيت؟

فيرد بصراحة العربى:

لم أرك عدلت .

فهم به عمر يقول: يا رسول الله ألا أقوم إليه فأضرب عنقه؟ لكن ليرد عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - «دعه، إن له أصحابا» .

بينما كان آخر يردد بين القوم:

إن هذه القسمة ماعدل فيها

وما أريد بها وجه الله .

فيذهب رجل بالكلام إلى النبي، فيتغير وجهه حتى يصير شديد الحمرة، ليهتف بالناس: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟^(١٠٨) .

وينتحي الأنصار جانبا وهم يرون أوياش القبائل يحيطون بالنبي في جمهرة عظيمة، تطالبه بوقف الأعطيات، يقولون له: يا رسول الله أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، والنبي يتراجع بين الأصوات الغاضبة، حتى يلجئوه إلى شجرة يعلق بها رداءه ويتراجع فتخلع الشجرة عنه رداءه فيصيح بهم: أيها الناس ردوا على ردائي، أيها الناس والله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم^(١٠٩) . ثم يأمر زيد بن ثابت بإحصاء ما تبقى ثم توزيعها على الناس بالعدل، فكانت سهامهم لكل رجل أربعة من الإبل وأربعون من الشياه^(١١٠) . هذا بينما وقف حسان بن ثابت أمام الأنصار ينشد عتبة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائلا برقة مشاعر الخولة:

سحا إذا حفلته عسيرة درر
للمؤمنين إذا ماعدد البشر
قدام قوم هم آووا وهم نصرروا
دين الهدى وعوان الحرب تستعر
للنائبات وماخاموا وماضجروا
إلا السيوف وأطراف القنا وزر
منا عثارا وكل الناس قد عثروا^(١١١)

زادت هموم فماء العين منحدر
وات الرسول فقل ياخير مؤتمن
علام تدعى سليم وهي نازحة
سماهم الله أنصاراً بنصرهم
وسارعوا في سبيل الله واعترفوا
والناس ألب علينا منك ليس لنا
فما ونيينا وما خمننا وما خبروا

(١٠٨) الديهفي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ١٧٣، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، انظر أيضاً الواقدي: المغارى... سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٤٨ .

(١٠٩) ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٥٩ .

(١١٠) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠ .

(١١١) ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٢ .

وهنا ينادى المنادى بالأنصار وحدهم ليجتمعوا في قبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
ليقف فيهم خطيباً يقول:

يا معشر الأنصار، ما قاله بلغني عنكم؟ وجدة وجدتموها على أنفسكم؟
ألم آتاكم ضللاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين
قلوبكم؟

قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم، أتينا مذبذباً فصدقناك،
وطريداً فأوريناك، وعائلاً فأسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في
لعاة من الدنيا، تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟
ألا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون
برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولولاك
الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار
وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمة وحظاً (١١٢).
ثم يختتم الوحي أحداث حنين بقوله الصادق:

«لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم
تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل
الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب
الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء
والله غفور رحيم» (٢٥: ٢٧ التوبة).

أحداث ومعجزات

مع الكثرة العددية لجيش المسلمين إزاء هوازن وثقيف، عبّر لسان النبي - صلى الله عليه وسلم - عن واقع الحال عندما قال: «لن نغلب اليوم من قلة»، وصادق عليه قول الوحي «إذ
أعجبكم كثرتكم»، وهو الإعجاب الذي ما كان ممكناً أن يحدث لولا مقارنة المسلمين عددهم بعدد

(١١٢) نفسه: ص ١٥٧.

عدوهم، وهو ما يجافى تمام المجافاة روايات جاءت بكتبتنا الإخبارية نوكد أن عدد مقاتلى هوازن بلغ عشرين ألف مقاتل، وهو الأمر الذى يتناقض تناقضاً صارخاً مع عودة الكرة عليهم بمئة مفاتل أنصارى، ثم انكسارهم بعد ذلك أمام جيش المسلمين، ويبدو لنا أن قصة العشرين ألف هوازنى كانت لونا من المبالغة، لجأت إليه كتبتنا الإخبارية فى محاولة لتبرير الهزيمة التى لحقت بالمسلمين فى بداية المعركة، ناهيك عن كوننا نعلم أن أقصى تعبئة تمكنت القبائل من حشدها فى الخندق لم تتجاوز العشرة آلاف مقاتل ولانسى بالطبع أن جيش دولة يثرب الإسلامية الذى ضم معظم محاربى القبائل الكبرى بما فيها قريش، لم يبلغ - رغم عمر الدعوة الطويل حتى هوازن - سوى اثنى عشر ألف مقاتل. وإن كان يمكن بحسبة بسيطة تقدير عدد رجال هوازن قياساً على عدد أسراهم من نساء وأطفال وبعض القلة من الرجال، حيث بلغ عددهم ستة آلاف، وبفرض هرب بعض النساء والأطفال دون الألفين، فإن عدد الرجال المقاتلين لا يمكن أن يتجاوز الأربعة أو الخمسة آلاف بأى حال من الأحوال.

ولم يكن ثمة حديث عن تدخل الملائكة السماوى إزاء تلك الكثرة المزعومة فى جند هوازن، ولم يبدأ حديث الملائكة إلا بعد انهزام المسلمين الذين ولوا الأدبار، ثم عادوا بنصرة الأنصار أحوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القتال حتى حققوا نصرهم العظيم، فقط عند هذه الفجوة يبدأ حديث الملائكة السماوى وروايات المعجزات الملوغة.

ومع ما جاءت به الآيات الكريمة «وأنزل جنوداً لم تروها» فتح الباب لحديث المعجزات، ورغم القرار الواضح فى الآيات عن رب العالمين الصادق صدق كماله بأنهم لم يروها، فقد قرر البعض التطوع بالشهادة أنهم رأوها، لتأكيد وجود الملائكة الأعلى منذ بدء المعركة وقبل هزيمة المسلمين، ومن تلك الشهادات رواية تقول:

أن مالك بن عوف النصرى بعث عيوناً من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا رأينا رجالاً بيضا على خيل بلق، فوالله ما نماسكنا أن أصابنا ما ترى^(١١٣).

ثم نموذج آخر مجهل المصدر بدوره، لا نعرف أصحابه فى رواية تقول عند هزيمة المسلمين وثبات الرسول وآل بيته المطلبى والطالبى:

عمن شهد حنيناً كافراً قال: لما التقينا نحن ورسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لم يقوموا لنا حلب شاة، فجئنا نهش سيوفنا بين يدي رسول الله -

(١١٣) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ح ٤، ص ٣٢٢.

صلى الله عليه وسلم -، حتى إذا غشيناها فإذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا: شأنت الوجوه فارجعوا فهزمنا من ذلك الكلام^(١١٤).

ومثيل تلك المحاولة لقتل رسول الله يأتي الحديث منسوباً إلى شيبه بن عثمان العبدري، الذي خرج من قریش مع رسول الله إلى هوازن يريد أن يغتاله في زحمة القتال، فيقول ابن كثير راوياً على لسان شيبه:

لما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم حنين قد عُرِي، ذكرت أبى وعمى وقتل حمزة إياهما، فقلت اليوم أدرك ثأرى من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -... ثم جئته من خلفه فلم يبق إلا أن أساوره بالسيف، إذ رفع شواظ من نار بينى وبينه كأنه برق، فخفت أن يمحقنى^(١١٥).

هذا بينما يروى البلاذرى الرواية ذاتها، لكن من منطق آخر، حيث يقول:

وكان شيبه بن عثمان العبدري شديداً على المسلمين، وكان ممن أومن فصار إلى هوازن طمعاً في أن يصيب من النبى - صلى الله عليه وسلم -، قال: فدنوت منه، فإذا أهله محيطون به، ورأى فقال: يا شيبه إلى، فدنوت منه فمسح على صدرى ودعا لى فأذهب الله كل غل فيه، وملاه إيماناً وصار أحب الناس إلى^(١١٦).

أما ذلك الراوى الذى كان طوال الوقت مغرماً بالنمل، يرى فيه صورة الملائكة، فيروى لنا على لسان جبير بن مطعم قوله:

إننا لمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم حنين، والناس يقتتلون، إذا نظرت مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور وقد ملأ الوادى، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة^(١١٧).

أما السهيلي فيشرح لنا اختيار النمل تحديداً لتتلبسه الملائكة فيقول:

ورأهم جبير على صورة النمل المبتوث، إشعاراً بكثرة عددها، إذ النمل لا يستطيع عدها، مع أن النملة يضرب بها المثل فى القوة، فيقال: أقوى من

(١١٤) نفسه. ص ٣٣١.

(١١٥) الموضع نفسه.

(١١٦) البلاذرى: أنساب... سبق ذكره، ج ١، ص ٣٦٦.

(١١٧) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٣٢.

نملة، أنها تحمل ما هو أكبر من جرمها بأضعاف، وقد قال رجل لبعض الملوك: قوتك قوة نملة، فأنكر عليه، فقال: ليس فى الحيوان ما يحمل ما هو أكبر منه إلا النملة^(١١٨).

أما ابن سعد فيخالف الآيات وعلم الله الصادق فيؤكد رؤية الملائكة، وأن سيماء هم يوم حنين كانت عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم^{(١١٩)؟}

ويعود هنا حديث الحصيات المباركات مرة أخرى فى رواية يوردها ابن كثير نقول:

فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: الآن حمى الوطيس، ثم أخذ حصيات فرمى بهن فى وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد.. ما بقى أحد إلا امتلأت عيناه وفمه بالتراب، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست الحديد، فهزمهم الله عز وجل، ثم أقبل على المشركين فرمى بها فى وجوههم وقال: ارجعوا، شأنت الوجوه، فما أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكو قذى فى عينيه^(١٢٠).

وبين حديث المعجزات يأتى حديث آخر عن أحداث وقعت بعد هزيمة هوازن، وأسر رجالها وسبى نساءها، وفيهن أخوات النبى وعماته وخالاته وأمهاته من الرضاع، وذلك قبل إعادتهن إلى ذويهن بعد صلح هوازن وإسلامها، فيروى أبو سعيد الخدرى قوله:

أصبنا نساء من سبى أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبى - صلى الله عليه وسلم -، فنزلت الآية هذه: والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكم، فاستحللنا بها فروجهن.. وقد استدل جماعة من السلف على إباحة الأمة المشتركة بهذا الحديث فى سببايا أوطاس^(١٢١).

وبالفعل استحر إتيان نساء هوازن حروراً، ثم أعيدت النساء إلى أهلهن بعد أن أسلمت هوازن بنسائها، ليروى البيهقى واقعة طريفة تحكى:

(١١٨) السهيلي: الروص.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٤٢.

(١١٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

(١٢٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٣٠، ٣٣١.

(١٢١) نفسه: ص ٣٣٨.

إن عثمان كان قد أصاب جاريته، فخطبت إلى ابن عم لها كان زوجها، وكان ساقطاً لا خير فيه، فلما ردت السبايا، ساقها فقدم بها المدينة في زمان عمر أو عثمان، فلقبها عثمان، فأعطاها شيئاً بما كان أصاب منها، فلما رأى عثمان زوجها قال لها: ويحك، هذا كان أحب إليك مني؟ قالت: نعم، زوجي وابن عمي (١٢٢).

حكاية تحاول تبخيس شأن رجال هوازن، الذين كانوا أزواجاً لنساء أتاهن المسلمون في غزوة حنين، ونكحوهن بقوانين السبي العربية التقليدية.

(١٢٢) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ١٩٨.

حروب دولة الرسول

الجزء الثاني

الباب الرابع

قيام دولة العرب الموحدة

السيرة

«إنما محمد أذن
من حدثه شيئاً صدقه،

[نبئ بن الحارث]

الآن وقد تم إخضاع خيبر تماماً لسلطان الدولة وتحجيمها إلى الأبد، وبعد فتح أم القرى وخضوع سادة العرب أهل الله القرشيين لدولة يثرب، وبعدما أصبحت هوازن مثلاً، فسلبت أموالها، ونكحت نساؤها، وأسلمت جميعاً راغمة لسلطان الدولة، وبعد أن كمنت ثقيف كثعلب في حجر، وبعدما خرج عليها سيدها مالك بعد ما تألفه الرسول بالعطايا، فأحكم عليها الحصار، يقطع عليها الطريق ويستولى على قوافلها، وبعدما تضخم حجم الجيش الإسلامي وضم أشاوس القبائل الحجازية جميعاً، عادت كنوز قيصر تنادى العرب. ففي صبيحة يوم من أيام رجب من سنة تسع، أعلن منادى النبی فی الناس التجهز لغزو الروم.

ويحكى راوى السيرة ابن هشام فيقول:

ثم أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم.. وذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون

المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس، لبعده الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبتة، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم^(١).

ورغم كل تلك الانتصارات الساحقة، ورغم تفكيك الروابط القديمة بين القبائل المتحالفة وإدخالها جميعاً فى حلف الدولة، وما أدى إليه ذلك من إضعاف شديد لصوت المعارضة التى أطلق عليها اصطلاح (النفاق)، بعدما تقلمت أطرافهم تماماً، تعود الأخبار تخبرنا بأن النفاق قد عاد إلى الظهور عندما دعا النبى إلى غزو الروم، فقام المنافقون يثبطون هم الناس، ويجتمعون فى بيت سويلم عند جاسوم يقولون بعضهم لبعض: «لا تنفروا فى الحر».

ويقول ابن هشام إن هذا التباطؤ والتراجع عن الخروج إلى الروم كان «شكاً فى الحق وإرجافاً برسول الله - صلى الله عليه وسلم -»، ولكن لأن الظروف قد تغيرت، ولم يعد بإمكان أحد أن يتناول مرة أخرى على الرسول، فقد أخذوا بالاجتماع سراً لبحث شئونهم، فكان أن أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إليهم طلحة بن عبد الله فى نفر من أصحابه، فحرق عليهم البيت وهم فيه^(٢)، ثم جاء الوحي يقول: «وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون» (٨٢٨١/ التوبة)، أما النبى فقد كان يحدث أصحابه بينما البيت يحرق على المجتمعين فيه: «فى أصحابى اثنا عشر منافقاً، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط»^(٣).

وأحياناً ما كان المسلمون يأتون النبى يستأذنونهم فى عدم الخروج إلى وقعة، لظروف خاصة ببعضهم فيأذن لهم، فلما جاءه بعضهم هذه المرة، تدخل الله بنفسه ولم يقبل عذرهم بل وجه لهم اتهامات مباشرة بالكذب، ثم نصح رسوله ألا يعذرهم ولا يقبلهم فى جيشه حتى لا يؤثروا فى جنده الذين يميلون إليهم ويستمعون لرأيهم، فقال تعالى عز من قائل:

«لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم

(١) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٣.

(٢) نفسه: ص ١٧٤.

(٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦١.

لكاذبون . عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأذذك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليهم بالمتقين . إنما يستأذذك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليهم بالظالمين ﴿٤٧: ٤٧ / التوبة﴾ .

وهكذا، وبينما ينفق أصحاب اليقين أموالهم لتأمين ميرة المجاهدين لذلك الطريق الطويل، مثل عثمان بن عفان الذي تبرع بألف دينار^(٤) كان هناك آخرون يشكون في جدوى تلك الغزوة، ويشكون في نصر العرب على جيوش قيصر، فشكوا في الحق بتعبير ابن هشام، ويشرح ابن إسحاق الآيات السوالف فيقول:

وكان الذين استأذنوه من ذوى الشرف، فيما بلغنى منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم^(٥) .

أما الوحي فقد استمر شارحاً لموقف هؤلاء فاضحاً لهم، حيث أبان بصدق الله تعالى أنهم ما تراجعوا إلا نعمة لأنهم لم يحصلوا على أموال وعطايا كالتى أعطاهما النبي للمؤلفة قلوبهم، حيث يقول:

﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ (٥٨ / التوبة) .

وقد وضع موقف هؤلاء المنافقين، فيما ورد عنهم من أخبار تشير إلى جبنهم عن ملاقات الروم بنى الأصفر وتخوفهم ذلك، عندما رأوا النبي يقود جنده ميمماً شطر الروم فوقفوا يقولون لبعضهم: «أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأننا بكم غدا مقرنين في الحبال إرجافاً وترهيباً للمؤمنين»، فلما علموا أن قالتهم قد بلغت النبي هرع وديعة بن ثابت بهم يمسك بناقة الرسول يعتذر قائلاً: «يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله: ﴿ولئن

(٤) ابن هشام: في الروض الأنف للسيهلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٤ .

(٥) نفسه: ص ١٨٩، ١٩٠ .

سألهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب^(٦). وهو الأمر الذي يشير إلى تناؤل شأن المعارضة إلى حد الرهبة والرعب والاعتذار بما لا يليق برجال الحرب وأسنان الشرف.

وخرجت جحافل المسلمين في ثلاثين ألف مقاتل وعشرة آلاف فرس حتى وصلت مشارف بادية الشام لتحاصر تبوك، فيخرج يوحنا بن روية المنوب على أيله من القيصر ليصالح الرسول على دفع الجزية، وينبعه أهل جرياء وأذرح، ويكتب لهم النبي كتاباً بذلك، ثم أرسل خالد بن الوليد إلى دومة فأتاه بأكيدر الكندي فصالحه بدوره على الجزية، واكفنى من سفره الشاق بذلك وأخذ قراره بالعودة إلى يثرب، حيث تأكد أن هرقل عظيم الروم قد جمع جموعه في حمص^(٧). ونعلم مع ذلك أنه مع ترك المنافقين المعلومين بيثرب، فقد وجد بين من خرجوا للجهاد منافقين جدداً، حيث يروى ابن إسحق عن محمود بن لبيد أنه أصابهم عطش في الحجر، فدعا النبي ربه فأرسل سحابة أمطرتهم ماء، وهنا يقول محمود بن لبيد:

لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان
يسير مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث سار، فلما كان من أمر
الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين دعا،
فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول:
ويحك؛ هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة^(٨).

لكن ليجد المنافقون في عودة النبي دون لقاء الروم، أو حتى تجاوز تبوك نحو الشمال، مجالاً للخوض، وهنا يعلمنا البيهقي السبب وراء خروج النبي إلى الروم، وأنها كانت مؤامرة يهودية لا يشير إلى أطرافها ولا أسمائهم ولا من هم؟ وأن الله قد أنقذه من تلك المؤامرة، وذلك في قوله: «ما روى في سبب خروج النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك وسبب رجوعه إن صح الخبر فيه.. أن اليهود أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عز وجل آيات من سورة بنى إسرائيل بعدما ختمت السورة: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً﴾ [إلى قوله: ﴿تحويلاً﴾ (٧٦-٧٧/الإسراء)، فأمره الله عز وجل بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث^(٩).

(٦) نفسه: ص ١٧٨.

(٧) الموضع نفسه، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون الأثر... سبق ذكره، ح ٢، ص ٢٧٧.

(٨) نفسه: ص ١٧٦.

(٩) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ح ٥، ص ٢٤٥.

ومن هنا يمكن فهم الحقيقة وراء مسجد ضرار ومادار حوله من أحداث، كانت مساجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بين المدينة إلى تبوك معلومة مسماة، ويعددها ابن هشام فيقول إنها كانت كالتالي: «مسجد بتبوك ومسجد بذات الخطمي ومسجد بآلاء ومسجد بطرف البطراء من ذنب كواكب ومسجد بالشق - شق تارا - ومسجد بثنية حدران ومسجد بذات الزراب ومسجد بالأخضر ومسجد بذى الحيفة ومسجد بصدر حوحنى ومسجد بالحجر ومسجد بالصعيد ومسجد بالوادى - اليوم وادى القرى - ومسجد بالرقعة من الشقة - شقة بنى غدره - ومسجد بذى المروة ومسجد بالفيفا ومسجد بذى خشب»^(١٠).

وبالمثل، لكن داخل يثرب، أقام بعض المسلمين مسجداً وجاءوا النبي عندما كان يتجهز لغزو الروم كما سلف، فقالوا: «يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه»، وكان جواب النبي وعداً جميلاً يقول: «إني على جناح سفر وحال شغل. ولو قدما إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه»^(١١).

لكن مع تواتر النفاق في هذه المرحلة جاء النبي الخبر أن أصحاب ذلك المسجد هم من المنافقين، ونفهم من الروايات أنهم من الأوس تحديداً، حيث يفيدنا الثعلبي النيسابوري أنهم بنوه ليستقبلوا فيه أخطر زعمائهم الذى غادر المدينة مخاصماً للرسول (أبو عامر بن النعمان بن صيفي) المعروف باسم الراهب، لكن النبي أسماه بالفاسق، حيث كان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وليس المسوح واعتنق الحنيفية، ولما التقى بالنبي اختلف معه حول صحيح الحنيفية، فغادر المدينة مغاضباً له، ثم تفيدنا المصادر أنه قيل غزو النبي للروم بقتيل أرسل أبو عامر لأهله وهو أوسى، وقال لهم: أعدوا العدة والسلاح وابنوا لى مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر وآتى بجند لنخرج محمداً وأصحابه من المدينة، ويزعم الثعلبي أنه كانت قد نزلت فيه آيات تقول: «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا»^(١٢).

ويحكى لنا البيهقي ما حدث بشأن ذلك المسجد الذى وعد النبي أصحابه بافتتاحه لإيواء المحتاجين، فيقول: «إن النبي - صلى الله عليه وسلم - أقبل من تبوك حتى نزل بذى أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار.. فدعا مالك بن الدخشم ومع بن عدى.. فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه، واحرقاه، فخرجا سريعاً حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه»^(١٣). لقد باتت السياسة إزاء المنافقين قد أخذت شكلها العنيف الرادع كما هو واضح.

(١٠) ابن هشام: فى الروص الأنف للسهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٠.

(١١) الموضع نفسه.

(١٢) الثعلبي: عرائس المحال.. سبق ذكره، ص ١٤٠.

(١٣) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

وقد جاء الوحي يعقب على إحراق المسجد في آيات كريمة صريحة تقول:

«والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين. أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم» (١٠٧: ١١٠ / التوبة).

ويحرق مسجد ضرار يعود النفاق إلى الانكماش مرة أخرى، ولا يجد المنافقون كل مرة سوى أن يتجهوا إلى سيد المدينة وسيد الخلق يحلفون بالله أنهم ما أرادوا ما وصله من حديث لكنهم أرادوا خيراً وحسناً، أو أنهم ما قالوا ما سمع، أو يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم إنما كانوا هازلين، وأدركوا أن جهاز الدولة الرقابي قد دخل بيوتهم وتصنت أحاديثهم وعلم أسرارهم، حتى قال نبتل بن الحارث أخو بني عمرو بن عوف:

إنما محمد أذن

من حدثه شيئاً صدقه^(١٤).

لكن ليتدخل الوحي مرة أخرى شارحاً موضحاً مبيناً:

«ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم» (٦١ / التوبة).

ولكن، ووسط تلك الأحداث التي كدرت صفو الرسول ومدينته، يأتي حدث جديد، يضيف للدولة رصيذاً، يفرح له الرسول والمؤمنون، حيث يحكى ابن كثير:

أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما ارتحل عن ثقيف، سئل أن يدعو عليهم، فدعا لهم بالهداية، وقد تقدم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أسلم مالك بن عوف النصري، أنعم عليه وأعطاه وجعله أميراً على من أسلم من قومه، فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى

(١٤) ابن هشام: في الروص... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٠.

الدخول في الإسلام، وتقدم أيضاً فيما رواه أبو داود عن صخر بن العيلة الأحمس، أنه لم يزل بثقيف حتى أنزلهم من حصونهم على حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأقبل بهم إلى المدينة النبوية.. ثم إنهم أئتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا.. ثم أجمعوا أن يرسلوا رجلاً منهم هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير.. ومعه بضعة عشر رجلاً^(١٥).

وكان فرح المغيرة بن شعبة الثقفي عظيماً لما التقى وفدهم على أبواب المدينة، فأخذهم ليعلمهم بروتوكول الدولة، وكيف يدخلون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكيف يؤدون له التحية، لكنهم عندما دخلوا على الرسول لم يفعلوا سوى فعل العريان، وحيوه تحيتهم الجاهلية الاعتيادية، وأمر النبي فضربت لهم قبة في مسجده تكريماً لهم، وجلس النبي في مجلسه على مسافة يسمع منهم ويقولون له، وكان يسعى بينهم خالد بن سعيد بن العاص، ولما قدم لهم طعاماً رفضوا تناوله توجساً وخيفة، إلا بعد أن أكل منه خالد بن سعيد، ولما انتهت المفاوضات كتب خالد بينهم الكتاب.

وبان المفاوضات حاولوا تأجيل هدم اللات فلم يرض الرسول إطلاقاً، بل أعلمهم أنه سيرسل معهم أبا سفيان صخر بن حرب، وولدهم المغيرة بن شعبة ليهدماها، ثم سألوهم أن يسقط عنهم الصلاة.

لم يدرك الثقفيون أن واجبات الصلاة الخمس تمرين سريع للتأمل، تتضمن ترديداً لآيات القرآن حتى تعتاده أذانهم، ثم إنها تحوى الشهادة للرسول بالنبوة في كل مرة، وتعود الملتزم بها الانتظام في نظام صفوف صارم، كل ما رأوه فيها إرغاماً لأنفهم العربية المتأبية المتكبرة على السجود، ولم يدركوا أنها كانت إخضاعاً لسلوكهم اليومي لمؤسسة دقيقة مرتبة تخرج بهم عن عشوائية القبلية وتشظيها، إلى المنظومة الموحدة، ولم يقبل النبي أى تفاوض بشأن الصلاة، وأجاب بحسم «لا خير في دين لا صلاة فيه»، فكان ردهم الصريح: «سنؤتيكها»، وبدأ لم يقولوا سنؤتيها لله تعالى، بل استمروا ليقولوا بجرأة شديدة «سنؤتيكها وإن كانت دناءة». ثم أصروا ألا يكونوا كبقية الأعراب، فهم أهل مدن وحضارة وأنفة وكبرياء، واشترطوا على النبي أنهم لن يدفعوا الضرائب (الصدقة)، ولن يشتركوا في معاركه (الجهاد)، فوافقهم، ثم قال بعد ذلك للمسلمين: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»^(١٦).

(١٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦، ٢٧.

(١٦) نفسه: ج ٥، ص ٢٧.

واستأذن الثقفين النبي أن يسبقوا رسله المزمع ذهابهم معهم لهدم اللات، «فلما جاءوا قومهم تلقوهم، فسألوهم ما وراءكم؟ فأظهروا الحزن، وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف، يحكم بما يريد وقد دوخ العرب.. فألقى الله في قلوبهم الرعب فرجعوا وأنا بوا»^(١٧).

ولحق بهم ولدهم المغيرة ومعه أبوسفيان وهدموا اللات وأخذوا ما بها من جوهر وحلى وذهب وفضة^(١٨). بينما كان النبي قد أمر على ثقيف عثمان بن أبي العاص أميراً منوياً من قبله، وكان أحدثهم سناً^(١٩).

ويمر من الشهور ثلاثة، رمضان وشوال وذو القعدة، ويأتي موسم الحج، لكن الموسم هذه المرة لم يكن كالمرات السوالف، حيث كان لابد أن تشرف الدولة بنفسها عليه، فبعث رسول الله أبا بكر أميراً منوياً من قبله على حج سنة تسع للهجرة ليقم للناس حجهم.

ويفاجئ الأمر قريشاً، فحنى سيادة الحج والكعبة قد ذهبت إلى دولة يثرب، نعم إن أبا بكر قرشي، لكن معنى أن يأتيها من يثرب أميراً على الحج، هو معنى يسلب قريشاً وضعها السيادي الباقي في إقامة الشعائر الدينية للعربان، وهنا تعترض قريش هانفة: «إننا أهل الحرم وسقاة الحاج وعمار هذا البيت، فلا أحد أفضل منا»، لكن ليأتيهم الرد «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر»^(٢٠).

لقد بات المطلب الآن بعد انصرام عام على فتح مكة، إسلام الجميع دون موارد، حيث أكدت كتب السير أن «الناس من أهل الشرك كانوا على منازلهم من حجهم».

ثم تأتي الضرورة القاصمة في نقض النبي - صلى الله عليه وسلم - لما كان بينه وبين المشركين من عهد ينص على «ألا يصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك»، لضمان استمرار التجارة وسيولتها، وقد جاء ذلك النقض عندما أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - علياً بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر، ومعه أوامر الوحي في الآيات المعروفة باسم (براءة) وقال له: «أخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عهد

(١٧) نفسه: ج ٥، ص ٣٠.

(١٨) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٩٣.

(١٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٨.

(٢٠) ابن هشام: في الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٦.

فهو إلى مدته .. وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة»^(٢١). وكان أبرز نصوص وثيقة براءة يقول:

«إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا»
(٢٨/ التوبة).

كان معنى ذلك خراب ديار قريش إلى آخر الدهر، فمعنى ذلك توقف التجارة ودمار الأسواق، وزاد الأمر نكايه ما جاء مع سورة براءة من أمر إلهي بإلغاء العمل بنظام النسيء، وكان النسيء تحريكاً للأشهر الحرم القمرية، للدور مع الأشهر الشمسية، حتى تتوافق رحلتا التجارة مع موعد المحاصيل والرياح الموسمية في بحر الهند، وهى الرياح والمحاصيل التى تسير وفق المجريات الشمسية (الزمن الميلادى)، وجاءت الآيات تؤكد:

«إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً
ويحرمونه عاماً ليوأثروا عدة ما حرم الله» (٣٧/ التوبة).

وهكذا تم تثبيت الأشهر القمرية جميعاً، وهو ما قال المسعودى بشأنه شارحاً: «عندما ظهر الإسلام، كانت الأشهر الحرم قد عادت إلى بدئها على ما كانت عليه فى أصلها، وذلك قول النبى - صلى الله عليه وسلم - : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»^(٢٢).

نعم، كان تثبيت الأشهر الحرم وسلخها عن المصالح المادية ارتفاعاً بها وتكريماً لها وتوقيراً، لجعلها رمزاً لوحدة البيت الجامع للعرب المتوحدون فى الدولة الواحدة، لكنه كان ضرباً واضحاً للتجارة والأسواق، بل وتراجعاً بالعرب جميعاً عن مركز دولى متميز حققوه من ذلك النظام التجارى الدينى، فأمسكوا بعنان تجارة العالم، وبدأت قريش تشك فعلاً فى أهداف الدولة الجديدة، وصورت لها أحلامها المريضة أن المقصود دمار فعلى، وانتقام مما سبق وقدمت أيديها، وتقف نقول:

لتقطع عنا الأسواق، فلتهلك التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من
المرافق»^(٢٣).

لكن لتفاجأ بسوء ظنّها، وتبدأ فى رؤية ما ينتظرها حقاً، عندما يرد عليها الوحى الكريم:
«وإن خفتن عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم»
(٢٨/ التوبة).

(٢١) نفسه: ص ١٨٧، ١٨٨.

(٢٢) نفسه: ص ١٨٩.

(٢٣) الموضع نفسه.

أما كيف سيتحقق ذلك وهم يريدونه مكاسب عينية ملموسة، تعوضهم عن خراب تجارتهم وبنو أموالهم؟ فهو ما يشرحه ابن هشام مؤيداً بأى الله الكريم، فى قوله: «وإن خفتهم عيلة فسوف يخنيكم الله من فضله»، أى من وجه غير ذلك.. «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر... من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»، أى ففى هذا عوض عما تخوفتم من قطع الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية»^(٢٤).

ماذا تقصد الآيات؟ إن أهل الكتاب فى الجزيرة قد انتهى أمرهم إلى الذبح أو الجلاء أو الجزية، فأى أهل كتاب؟ وهنا توجهت الأنظار بعيداً، إن الآيات تطلب منهم تعويض خسائرهم هناك، فعند الإمبراطوريتين كنوز عظيمة، وهنا تفهم قريش سر كل ذلك التضيق، لقد بات عليهم التحول عن التجارة إلى القتال. لقد بدأ المستقبل الجديد يفرش ظله على الواقع فيزيح القديم، وجاءت الآيات تؤكد الجهاد كبديل أفضل من التجارة، وتوجه أنظارهم نحو الشمال.

لقد جاءت القرارات الأخيرة لتخل تماماً بنظام التجارة العظمى التى كانت قريش تشرف على إدارتها، ومع إسلام العرب وتنالى ذلك الإسلام بعد أشهر فى وفود تشهر إسلامها، جعل هناك استحالة فى تقديم آفاق غنائم جديدة داخل جزيرة العرب، لقد آن وأوان تحقق الوعد المغلظ بالأيمان الذى أطلقه النبى فى مكة عندما كان مهيباً:

والذى نفسى بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر

وجانب آخر، يدركه الوعى النفاذ، أن الطريقة الوحيدة التى كان يمكن بها الحفاظ على وحدة القبائل، هى تقديم هدف مألوف لها، البحث الدائم عن الغنائم، وهو ما قامت عليه الدولة النبوية ذاتها حتى الآن، الهدف أصبح ذلك العالم المفتوح أمامهم على مصراعيه. لقد أصبح مطلوباً من العرب أن يتحولوا عن مجرد سادة تجارة العالم، ليصبحوا سادة هذا العالم نفسه، أما بقية العربان الذين ارتبطوا بأسواق مكة، فقد باتوا يعانون من الخراب نفسه، ولم يعد أمامهم سوى الانخراط فى الدولة للحصول على نصيب من الغنائم المنتظرة، لقد جاءت وثيقة الوحي براءة، لتدفع الجميع دفعاً إلى اعتناق الإسلام وإلى التوحد وإلى التوجه خارج الجزيرة.

أما ختام المسك فكان موت رأس المعارضة والنفاق، عبد الله بن أبى بن سلول، الذى خفتت بعده أصوات المعارضة تماماً.

(٢٤) المسعودى: مروج الذهب... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧.

عام الوفود

«والله؛ لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت
لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله،

[إريد بن مقيس]

قال محمد بن إسحاق:

لما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة وفرغ من تبوك،
وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام:

حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود.

قال ابن إسحاق:

وإنما كانت العرب تريض بإسلامها أمر هذا الحى من قريش، لأن
قريشا كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم، وصريح ولد
إسماعيل بن إبراهيم، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي
نصبت الحرب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخلافه، فلما افتتحت
مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم

بحرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عداوته، فدخلوا في دين الله
كما قال عز وجل أفواجا، يضربون إليه من كل وجه،

يقول الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم -:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا .
فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ (سورة النصر) (٢٥).

هكذا ارتأت كتب السير الإسلامية والأخبار الأسباب الواضحة لقدم الوفود العربية من بلاقع
الجزيرة وفيافيها لتعلن لسيد العرب خضوعها، وكان الإعلان عن إغلاق مكة دون المشركين،
وتوجيه العسكرية العربية نحو الباب المفتوح شمالا، مدعاة أخرى واضحة أوضحتها لقدم تلك
الوفود الكبرى، أما النبي بكرمه الذي يليق به، وعطاياه للوفود مما أفاء الله عليه، ومن خمسه
المقرر وحيا، فكانت عاملا آخر ودافعا غير منكور في كتبنا الإخبارية لقدم الوفود تعلن انضمامها
لدولة الإسلام، وبين كل وفد كان ينتقى رجلا يتوسم فيه الشخصية القيادية والقادرة على فهم
الأوضاع والمتسمة بالطاعة للسلطة النبوية، فيجعله أميرا من قبله على قومه، وللقرار بمنح
الأعطيات وقطع الإقطاعات رواية أولى دفعت إلى سلوك ذلك الخط في تألف العربان . فيقول
محمد بن إسحاق صاحب السيرة التأسيسية، أن أول الوفود جاء بشموخ الأنف العربية وكان وفد
القبيلة الكبرى تميم، وعلى رأسها عطار بن حاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، والزيرقان بن
بدر، والحتحات بن يزيد، أسماء جميعها ذات شرف ومنعة وسيادة في قومهم، ويصلف العربان
دخلوا يثرب إلى مركزها الإداري مباشرة، إلى المسجد، فلم يجدوا سيد المدينة، فكان أن وقفوا
ينادون الرسول من وراء حجراته:

اخرج إلينا يا محمد.

لم يتحضر بعد الفكر ولا اللسان، ولا أدرك العربان أن خطابهم مع السيد يجب ألا يكون
كخطابهم لبعضهم البعض، وهو ما جاء من بعد تنبيهها للوفود وتقريبا لأجلاف تميم في وحى
يقول:

﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم
صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم﴾ (٤-٥/
الحجرات).

لكن تميما ما كانت لتفهم لغة التمددين المدنى بسرعة، وظل غرورها الأجلف يركب حسها

(٢٥) ابن كثير: البداية . . سبق ذكره، ج ٥، ص ٣٧.

الغليظ، وأنفتها تمنعها من إعلان الطاعة بهدوء ومباشرة، إنما جاءت توجل ذلك الإعلان ما أمكن، وتعلنه وهى عزيزة متعالية فى وهما، وينمثل ذلك فى قول الوفد التميمى لسيد الخلق: «يامحمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا» .

لم تفهم تلك العقول مدى التحولات الكبرى، وأدرك النبى مغزى كل تلك المناورة، إنها لا تريد الخضوع دون إثبات عزنها، وتبسم سيد الخلق، فرد بهدوء الوائق المطمئن: «لقد أذنت لخطيبكم فليقل»، ليقوم عطار د بن حاجب يعدد ممكنات تميم وعظمها يقول:

الحمد لله الذى له علينا الفضل والامن، وهو أهله، الذى جعلنا ملوكا،
ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق
وأكثره عدداً وأيسره عدة، فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى
فضلهم؟

فمن فاخرنا فليعدد مثلما عددنا، وإننا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن
نخشى من الإكثار فيما أعطانا وإننا نعرف بذلك .

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا

وأمر أفضل من أمرنا .

ويجلس عطار د يلبس أثواب التكبر الأنف، ويصبح المطلوب رداً مناسباً يكسر ذلك الكبرياء ويرغم تلك الأنوف، فلا يرد عليه النبى بنفسه، حتى لا يكسبه قيمة لا تليق به، إنما يشير إلى ثابت بن قيس بن الشماس الخزرجى، ويقول له: «قم يا ثابت فأجب الرجل»، ويقوم ثابت ليقول بهدوء هادر المعانى:

الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع
كرسيه علمه، ولم يك شىء قط إلا من فضله .

ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا

واصطفى من خيرته رسولا

أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا،

فأنزل عليه كتابا وائتمنه على خلقه،

فكان خيرة الله من العالمين،

ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه،
وذوى رحمه أكرم الناس أحسابا وأحسن وجوها وخير الناس فعالا .

وينتقل ثابت بن الخزرج، أصحاب الحرب والحلقة إلى موجة أعلى في خطابه ليرد فهدداً منذراً متوعداً:

ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحن!!

فنحن أنصار الله ووزراء رسوله،

نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه،
ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولي هذا
وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات .
والسلام عليكم^(٢٦) .

وتفهم نعيم الرسالة، وتتهاوى العزة، لكن ليرأف بهم النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم -
فيقول ناقلاً الحديث إلى مستوى آخر، تخفيفاً عنهم وتهذبةً لروعهم: «اقبلوا البشرى يا بني تميم»،
لكن ليرد الذين تفاخروا منذ قليل بمالهم وعددهم: «يا رسول الله لقد بشرتنا، فاعطنا» . وهكذا
انتكس الرجال وارتكسوا عما قالوا، ووجدوا أنه إذا لم يكن من الطاعة بد، فليعودوا بمكاسب،
ويستجيب الرسول، «فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأحسن
جوائزهم»^(٢٧) .

أما بنو عبد القيس فأرسلوا وفداً عارفاً بأقدار الناس، ومن أعلى من النبي قدراً؟ لذلك ما أن
هبطوا عن ركائبهم حتى هرعوا يتسابقون إلى الرسول ليأخذوا بيده يقبلوها، فاستحقوا أن يصفهم
النبي بقوله: «هم خير أهل المشرق»^(٢٨) .

وتتوالى الوفود

ويقدم وفد أسد للمدينة ويقف حضرمي بن عامر رأس الوفد ليقول للنبي:

أتيناك نتدرع الليل البهيم

في سنة شهباء

ولم تبعث إلينا بعثاً

(٢٦) نفسه: ص ٣٨، ٣٩ .

(٢٧) نفسه: ص ٣٥، ٤١ .

(٢٨) نفسه: ص ٤٤ .

يريد أن يقول أنهم أتوه طوعا لا كرها، لترد عليهم الآيات «يؤمنون عليكم أن أسلموا» (١٧/ الحجرات) .

ثم وفد عبس، ووفد فزارة، ووفد مرة «فأجازهم بعشر أواق، عشر أواق فضة»، ثم وفد ثعلبة وقد أجاز كل منهم بخمس أواق فضة ثم وفد محارب فأجازهم بدورهم بالعطايا، ثم وفد كلب، ووفد عقيل بن كعب الذين أقطعهم النبي أرض عقيق بنى عقيل وفيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتب في أديم أحمر، ثم وفد جعدة، وأقطعهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ضيعة بالفالج وكتب لهم بذلك كتابا، ثم وفد قشير بن كعب «فأقطعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - قطيعة وكتب له كتابا»، ثم وفد بنى البكاء وقد أجازهم بدورهم فأحسن جوائزهم، ثم وفد كنانة ووفد أشجع ووفد باهلة ووفد هلال بن عامر - وربيعة عبد القيس وتغلب - وكانت تغلب نصارى جاءوا النبي يلبسون صلبان الذهب، فصالحوه، على أن يقرهم على دينهم فأقرهم، وأعطى المسلمين منهم عطايا^(٢٩)، أما وفد عامر بن صعصعة ففد جاء على رأسه عامر بن الطفيل وإريد بن مقيس - وعامر من القبائل الكبرى الشامخة، وما أن وقف عامر بن الطفيل أمام الرسول حتى دخل في المفاوضة مباشرة وبسرعة قائلا: «يا محمد؛ مالى إن أسلمت؟ فقال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، قال: أتجعل لى الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذاك ولا لقومك، قال: أفتجعل لى الوبر ولك المدر؟ قال: لا، ولكنى أجعل لك أعنة الخيل، فإنك امرؤ فارس» وهو من رد على العريان الذين دعوه للإسلام:

والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى، أفأتبع أنا عقب
هذا الفتى من قريش؟^(٣٠) .

فيغضب عامر بن الطفيل، ويخرجه الغضب عن جادة الصواب، فيهدر صارخا:
أوليست لى؟ (أى الخيل)

إذن

لأملأنها عليك خيلا ورجالا^(٣١) .

وخرج مع رفيقه إريد ليتبعهم النبي بدعوته: «اللهم اكفنيهما»، وتحكى كتب السير أن الدعوة لحقتهم فمات عامر فى الطريق، أما إريد فوصل قومه، فاستقبلوه يسألونه عما عند محمد وما انتهت إليه المحادثات، ليرد عليهم:

(٢٩) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، من ص ٤٠ : ٥٦ .

(٣٠) ابن كثير. البداية .. سبق ذكره، ح ٥، ص ٥١، ٥٢ .

(٣١) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، ص ٥١ .

والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقاتله بيوم أو يومين معه جمل ليبيعه فأرسل الله عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتهما^(٣٢).

وتتتابع الوفود فتأتي شيبان وطى ونجيب وخولان وجعفى وصداء ومراد وزبيد وكندة والصدف وخشين وسعد هزيم وبلى وبهراء وعذرة وسلامان وجهينة وجرم والأزد والحارث بن كعب وحمدان وسعد العشيرة وعبس والداربين والرهاويين وغامد والنخع وبجيلة وخثعم وحضر موت وأزد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحدان وأسلم وجذام ومهرة وحمير ونجران وجيشان والسباع.

وهكذا استنمت جزيرة الجزيرة جميعا وأوعبت طاعتها أمام النبي الكريم، تؤكد أن التاريخ على وشك استكمال حلقاته الانتقالية الكبرى، وأن الوحدة العربية للجزيرة قد صارت واقعا وحقيقة، وأن الدولة المركزية قد تسنمت أمر العرب وحشدتهم على أيديولوجية واحدة موحدة.

لكن لم يمر عام الوفود دون مكدرات عكرت صفوه ونصره، فبين تلك الوفود جاء ذلك الوفد الغريب الشأن العجيب الأمر، وقد بنى حنيفة من أهل اليمامة، وبين رجالهم رجل يبدو له شأن اسمه مسيلمة بن ثمامة، نزلوا دار بنت الحارث من الخزرج، واستلفت النظر وأوجست منه المدينة، وهم يرون وفده يحيط به، يسترونه بالبرد والثياب، وهو يسير إلى المسجد، ليقف أمام النبي ويبد النبى قضيب من عسيب النخل، ليقول للنبي رسالة برقية موجزة:

إن شئت

خليت بينك وبين الأمر

ثم جعلته لنا بعدك

لكن ليرد سيد الخلق هادئا مستصغرا شأن ذلك المتكبر الكبير فى قومه: «لو سألتنى هذا القضيب ما أعطيتكه»^(٣٣). فينصرف مسيلمة مع قومه، لتعلم المدينة أن الرجل كان فى قومه نبيا، وأنه أعلن فيهم نبوته، وهذا سر سيرهم به متحوبا بالاحترام مستورا بالثياب، وإنه ما جاء يعلن ولاء بل جاء يتفاوض على تقسيم الأمر دولا بين محمد وبينه، حيث أعلن فى أهله من حنيفة اليمامة: إنه قد أشرك مع محمد فى النبوة والحكم (الأمر)، وأخذ يرسل لهم آيات مسجوعة يزعمها وحيا، وشهد للنبي بالرسالة، لكنه أراد منه شهادة مماثلة، وقد وقفت وراءه حنيفة جميعا، وأرسل بعد عودته بلاده للنبي الصادق رسالة تقول:

(٣٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ح ٥، ص ٥٣.

(٣٣) نفسه: ص ٤٦.

من مسيلمة رسول الله
إلى محمد رسول الله
سلام عليك؛ أما بعد؛
فإنى قد أشركت فى الأمر معك
فإن لنا نصف الأرض
ولقريش نصف الأرض
ولكن قريشا قوم يعتدون.

وتصل الرسالة الآبقة بإفكها إلى رسول الله الأمين، فيرد عليه من فوره ببرقية موجزة
صارمة المعانى هادئة الكلم تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم:
من محمد رسول الله
إلى مسيلمة الكذاب (!)
السلام على من اتبع الهدى (!)
أما بعد

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده
والعاقبة للمتقين^(٣٤).

وتسلم بلاد العرب وتدخل فى طاعة الدولة الواحدة، ويرغب بعضها الآخر من الكتابيين فى
البقاء على دينهم على أن يخضعوا للدولة ويدفعوا الجزية، فيقبل النبى - صلى الله عليه وسلم -
ذلك منهم، لتظل حنيفة وبلاد اليمامة وسط ذلك المحيط العربى المتوحد ترفض الانصواء، بل
ويتضخم أمرها تحت زعامة سيدها المتنبىء مسيلمة الكذاب.

كانت سنة الوفود هى السنة التاسعة للهجرة، وكانت سنة قحط شديد، وهو دافع يضاف إلى
مجموع الدوافع التى حثت الوفود تدفعها دفعا إلى يثرب، تطمع فى حكمة قيادة يثرب إزاء
الأزمة القاحلة النازلة بهم، لكن ذلك الظرف ذاته كان بدوره وراء الحركات الانشقاقية التى
نشطت فى ذات العام، يمثلها مسيلمة فى اليمامة، والأسود العنسى فى اليمن.

(٣٤) نفسه: ص ٤٧.

وقد وضح أن مسيلمة بن حبيب كان يطمح إلى مشروع اتحادى وليس وحدويا، فهو يطلب مشاركته حنيقة في أمر السيطرة على قبائل العرب، فلم يدرك مسيلمة أنه يسير عكس اتجاه السبر الصحيح لخط التاريخ نحو توحيد الجزيرة جميعا، كلا ولا فهم كيف يمكن أن تتوارى القبيلة داخل إطار الدولة، ومن هنا قام يطرح رؤية إقليمية ضيقة محدودة، معبرة عن موقف قبلى يعاكس الحتمية وضرورتها، ومفصحة عن موقف قبلى إقليمي تجزئى يريد أن يقلب وجهة التاريخ إلى القديم، وهنا بالتحديد كان مقتل الحركة جميعا بعد ذلك.

أما اليمن التي كانت تعاني بشدة من التسلط الفارسي على مقدراتها، فقد كانت إبان تطور أطوار الدعوة الإسلامية في واد آخر، كانت تخوض ثورة كبرى ضد باذان الفرس، ويظهر بين الثوار ضد الفرس ذلك الفارس الأسطوري (الأسود العنسى) الذي قاد تحالفات قبائل اليمن ليكتسح بهم نفوذ الفرس، ويتمكن من تصفية بيت باذان ودخول صنعاء والاستيلاء على اليمن، بل وطرد الفرس من اليمن ونظهيرها من العسكر الكسرى، وفي تلك اللحظة الحاسمة وصلت رسل النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى اليمن مع عماله عليها، لكن الثوار يتمسكون بإقليمية اليمن باعتبارها دولة قديمة عريقة، ذات تاريخ مستقل إقليمي له خصوصية، ليقول عبهلة بن كعب الذي لقب بالأسود العنسى لوفود يثرب وعمال الرسول المنوبين من قبله:

أيها المتوردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه^(٣٥).

وقام عبهلة يدفع المأزق الإقليمي نحو مزيد من التعميق والجفاء، ليعود باليمن إلى عبادة الرحمن القديمة، رب السماء^(٣٦) العريق في حضارات الجنوب الحضرمي القحطاني، رافعا إياها كأيدولوجيا وطنية خالصة من فرز مجتمع اليمن وتاريخه، معارضا بها (الله) رب الشمال العدناني.

أما النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد وقف من تلك الحركات موقفا متأنيا يعتمد الصبر الهادئ، فاليمن قبائل كبرى عسكرية منظمة، كذلك الإمامة لم يكن أمرها بأقل شأنًا، والإسلام بحاجة إلى قواته ورجاله من أجل الهدف الأعظم، من أجل ميراث الأنبياء السوالم في امتداد بوادي الجزيرة نحو الشمال، ومن هنا نفهم السر وراء استخدامه سياسة الإلهاء بالمراسلات مع تلك الزعامات القوية، لإطالة زمن حالة اللاحسم، ليتيح لعماله هناك فرصة الانقضاض من الداخل على تلك الزعامات مع من تابعهم من مسلمي تلك المناطق، وطال أمر تلك السياسة، ولم يتم

(٣٥) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثلث، بغداد، د. ت، ص ١٢٦.

(٣٦) ارجع في ذلك إلى كتابنا الحزب الهاشمي... سبق ذكره.

القضاء على تلك الانشقاقات إلا بعد وفاة الرسول ولحقه بالرفيق الأعلى، بعد أن أدى حجة الوداع، وترك الناس على الواضحة غير الملتبسة.

وفي تلك الحجة بدرت من النبي أقوال تشير إلى شعوره بدنو أجله، «عن أبي الزبير عن جابر: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقف عند جمرة العقبة وقال لنا: خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا»^(٣٧)، ثم ما كان من آيات تحمل روح الخنام، من قبيل «إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» (سورة النصر).

الأيام الأخيرة للرسول العظيم

عن ابن طاووس عن أبيه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال:

نُصرت بالعرب، وأُعطيت الخزائن وخُيرت بين أن أبقى حتى أرى ما يفتح على أمتي، وبين التعجيل، فاخترت التعجيل^(٣٨).

كان الشعور بدنو الأجل يتصاعد ويعلو، والرسول الكريم تزيد به أوجاعه، لكن سيد الخلق يقاوم الأوجاع، ويستمر في سياسة الدولة، وفي صفر بعد حجة الوداع بشهرين، يؤذن في الناس بغزو القياصرة في بلاد الشام، ويؤمر على الناس أسامة بن زيد بن حارثة، ويأمر جميع المهاجرين الأوائل بأن يوعبوا مع أسامة باتجاه فلسطين، بما فيهم وزيره أبو بكر وعمر، ويتجهز الناس صدعا بأمر رسولهم ونبيهم وقائدهم. لكن ليقف التاريخ في مواقفه الناقلة المحولة، لترهف السمع إلى الصحابة يسجلون في مسامع الرواة، أنه في أول شهر ربيع الأول يطلب النبي عبده أبا مويهبة، ليتحامل عليه ويأمره باصطحابه إلى مقابر أصحابه، الذين ماتوا في حروب إنشاء الدولة، ويذهب معه إلى البقيع متحاملا على نفسه، ليقف وسط المقابر يقول للموتى:

السلام عليكم يا أهل المقابر

ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى (١٤)

(٣٧) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٥، ص ١٨٩.

(٣٨) نفسه: ص ١٩٧.

ويلتفت إلى أبى مويهبة يقول له:

إنى قد أوتيت خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة.

ليقاطعه عبده المخلص

بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلافة

لكن ليرد عليه المصطفى - لهفى عليه:

لا والله يا أبا مويهبة

لقد اخترت لقاء ربى والجنة

ثم يروى أبو مويهبة أنه وقف يستغفر لأهل المقابر، ثم عاد أدراجه ليبتدأ وجعه يظهر عليه ويلحظه الناس (٣٩).

وهنا ننصت إلى أم المؤمنين الحميراء سيدة النساء عائشة بنت أبى بكر تقول:

رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من البقيع، فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى، وأنا أقول: وأرأساه، فقال: بل أنا والله ياعائشة؛ وأرأساه، قالت: ثم قال: ما ضرك لومت قبلى، فقامت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟ قالت: قلت والله لكأنى بك لو فعلت ذلك، لرجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نساءك، قالت: فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتتألم به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعز به وهو فى بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى، فأذن له.. فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشى بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر (تؤكد الروايات أن ذلك الرجل الذى أغفلت عائشة اسمه كان عليا بن أبى طالب)، عاصبا رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيتى (٤٠).

ورغم اشتداد الوجع، فقد لاحظ سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - أن الناس يتكأون فى طاعة أوامرهم، فى بعثة أسامة على رأس الجيش إلى الروم، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد عاصبا رأسه، وصعد حتى جلس على المنبر ثم قال:

(٣٩) ابن هشام: فى الروص... سبق ذكره، ح ٤، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(٤٠) نفسه: ص ٢٤٦، ٢٥٩.

إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله.

وفهم أبو بكر المقصود فنشج بالبكاء يقول: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فيسكته الرسول، ثم يقول منادياً:

أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلت في إمارته، لقد قلت في إمارة أبيه من قبل، وإنه لخليق للإمارة، كان أبوه خليفاً بها.

وعاد إلى بيت عائشة، وخرج أسامة بالجيش حتى نزل بالجرف على بعد فرسخ واحد من المدينة، فضرب هناك عسكره، ليبلغهم أن الوجد قد اشتد بنبيهم، فتوقفوا هناك ينتظرون ما يسفر عنه الأمر^(٤١).

وهنا ننقل، فقط مجرد نقل دون أى انحياز، من الشيخ شرف الدين الموسوى رؤيته لما يحدث في تلك الساعات الفاصلة من الزمان، فيقول بشأن أبي بكر وعمر وسائر القوم «وقد تعلم أنهم إنما تتأقلوا عن السير أولاً، وتخلفوا عن الجيش أخيراً، ليحكموا قواعد ساستهم، وقيموا عمدتها ترجيحاً منهم لذلك على التعبد بالنص، حيث رأوه أولى بالمحافظة وأحق بالرعاية، إذ لا يفوت البعث بتأقلهم عن السير، ولا بتخلف من تخلف منهم عن الجيش، أما الخلافة فإنها تنصرف عنهم لا محالة إذا انصرفوا إلى الغزوة قبل وفاته - صلى الله عليه وسلم - وكان - بأبي وأمي - أراد أن تخلو منهم العاصمة، فيصفو الأمر من بعده لأمير المؤمنين على بن أبي طالب على سكون وطمأنينة، فإذا رجعوا وقد أبرم عهد الخلافة وأحكم لعل عقدها، كانوا عن المنازعة والخلاف أبعد: وإنما أمر عليهم أسامة - وهو ابن سبع عشرة سنة لياً لأعنة البعض، ورداً لجماع أهل الجماع منهم، واحتياطاً من الأمن في المستقبل من نزاع أهل التنافس، لو أمر أحدهم كما لا يخفى، لكنهم فطنوا إلى ما دبر - صلى الله عليه وسلم - فطعنوا في تأمير أسامة، وتتأقلوا عن السير معه فلم يبرحوا من الجرف حتى لحق النبي بربه، فهموا حينئذ بإلغاء البعث وحل اللواء تارة، ويعزل أسامة تارة أخرى، ثم تخلف منهم عن الجيش وفي أولهم أبو بكر وعمر».

ويحكى لنا ذلك الشيخ ما حدث والرسول بين الحياة والموت، عن عبد الله بن عبد الرحمن «فتأقل أسامة وتتأقل الجيش بتأقله، وجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مرضه يثقل ويخف، ويؤكد القول في تنفيذ ذلك البعث، حتى قال له أسامة: بأبي أنت وأمي؛ أتأذن لي أن أمكث أياماً حتى يشفيك الله تعالى، فقال: اخرج وسر على بركة الله، فقال: يارسول الله إن أنا

(٤١) نفسه: ص ٢٦٠.

خرجت وأنت على هذه الحال، خرجت وفي قلبي قرحة، فقال: سر على النصر والعافية، فقال: يارسول الله إنني أكره أن أسألك عنك الركبان، فقال: نفذ ما أمرتك به، ثم أغمى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقام أسامة فتجهز للخروج، فلما أفاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنهم يتجهزون، فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة، لعن الله من تخلف عنه، وكرر ذلك، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه، حتى إذا كان بالجرف نزل ومعه أبوبكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار أسيد بن حضير ويشير بن سعد وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسول أم أيمن يقول له: ادخل فإن رسول الله يموت، فقام من فورهِ فدخل المدينة واللواء معه، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ورسول الله قد مات في تلك الساعة^(٤٢).

ويستمر الشيخ شرف الدين في قراءته لتلك السويقات الفاصلة في تاريخ الدنيا، ليرى أن استبعاد أبي بكر وعمر لم يفلح، وعادا للمدينة والرسول في النزع الأخير ومعه على بن أبي طالب، ليورد لنا ما أخرجه البخاري بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن ابن عباس قال:

لما حضر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي البيت رجال فيهم عمر ابن الخطاب، قال النبي: هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختلفوا، منهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم - صلى الله عليه وسلم - قوموا - قال عبد الله بن مسعود - فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغتهم.

لكن الشيخ يؤكد أن أصحاب السنن والأخبار، قد تصرفوا في قول عمر: «إن النبي قد غلب على الوجع» فنقلوه بالمعنى لأن لفظه الثابت: «إن النبي يهجر»، لكنهم هيئوا العبارة اتقاء لفظاً عنها في حق رسول الله^(٤٣).

ويعد....

فقد حاولنا السعي وراء أعتاب سيد الخلق المصطفى - صلى الله عليه وسلم - نصطفى أهم

(٤٢) عبدالحسين شرف الدين الموسوي: النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمي، كربلاء، ١٩٦١، ص ٩٠، ٩٣.
(٤٣) نفسه: ص ١٥٥، ١٥٨.

الأحداث المتعلقة بحروب دولته التي أنشأها وأقامها لعرب الجزيرة، ليتغير بها وجه العالم، وتتسق وجهة التاريخ مع خط سيرها المنطقي، وجعلنا مادة الوثائق مادة للعلم بقواعده الصارمة دون تدخل عاطفي أو وجداني، بغرض القراءة الأقرب إلى واقع الأحداث، ولا نزعم أننا فعلنا سوى المحاولة القابلة للصواب لنحوز الأجرين، والقابلة أيضا للسقوط في خطأ الإنسان بكل ماله وما عليه، وهو الخطأ الذي سنحوز به على ثواب الأجر الواحد. لكن الذي لا مشاحة فيه أنه لا يصح أبداً أن نضع ذلك العبد الإنسان العظيم المصطفى ضمن عظماء العالم، كما يفعل البعض، فأين هؤلاء من ذلك الإنسان المتميز على العالمين، ولا جدال أنه بعدما سردناه وقرأناه في عملنا هذا يجب أن نخفف من غلوائنا، ونتحفظ قليلاً في إطلاق الصفات على قادة ورجال لم يصلوا أبداً إلى قامة ذلك السيد الرائع، الذي توافقت خطواته مع خطوات التاريخ، واتسقت رائعته العظمى عبر سيرها التطوري الهادئ لإقامة الدولة وتأسيس أيديولوجيتها، مع السنن الكونية، فكان عكس كل السابقين الذين حكى لنا عن كسرهم لقواعد الكون ونواميسه، ليثبتوا نبوتهم، لقد اتسق نبي الإسلام مع كل السنن الكونية دون خلل، فكان مؤسساً للعقل في النبوة والنبوة في العقل، وخاتماً للنبوات، ويادئاً لدور الإنسان على الأرض، وصانعا لكرامة عربية جديدة.

بأبي أنت وأمي يارسول الله، فداك أولادى وأموالى ونفسى. صلى الله
عليك وسلم، وعليك صلاتى وسلامى، وتسليمى. ولك ولرب العالمين
إسلامى.

المصادر (*)

- ١ - القرآن الكريم.
 - ٢ - الكتاب المقدس.
 - ٣ - القاموس المحيط.
 - ٤ - المنجد.
 - ٥ - البخارى
 - ٦ - أبو داود
 - ٧ - الترمذى
 - ٨ - مسلم
- كتب الحديث الشريف {

المصادر مرتبة (ألف . باء) حسب اسم المؤلف

- ٩ - ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥.
- ١٠ - أمين (أحمد): فجر الإسلام، مكتبة النهضة العربية، ط ١٤، القاهرة، ١٩٨٧.
- ١١ - ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٤٢.
- ١٢ - (البجاوى) محمد، ومحمد أبو الفضل: أيام العرب فى الإسلام، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣.
- ١٣ - الديارىكرى: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د. ت.
- ١٤ - البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- ١٥ - البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق عبدالمعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
- ١٦ - ابن تيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

(*) جميع المصادر بهذه القائمة أساسية ودخلت شهاداتها فى بحثنا كلها.

- ١٧ - الثعلبي النيسابوري: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت.
- ١٨ - الجاحظ: الرسائل: جمع ونشر حسن السندوي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٣.
- ١٩ - ابن حبيب: المحبر، تحقيق د. إيلزة شتينر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.
- ٢٠ - ابن حبيب: المنمق في أخبار قریش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط، ١٩٦٤.
- ٢١ - حميد الله (محمد): مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط، ١٩٨٥.
- ٢٢ - ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
- ٢٣ - ابن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة، د. ت.
- ٢٤ - ابن خياط (خليفة): الطبقات، تحقيق أكرم العمري، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٩٦٧.
- ٢٥ - دلو (برهان الدين): مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، الفارابي، بيروت، ١٩٨٥.
- ٢٦ - الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ط ١، ١٩٦٠.
- ٢٧ - زيعود (د. علي): قطاع البطولة والنجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢.
- ٢٨ - سالم (د. سالم عبدالعزيز): دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٠.
- ٢٩ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت. وطبعة دار صادر، تحقيق أوجين متنوح، بيروت، ١٩٥٨.
- ٣٠ - السقاف (أبكار): نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت.
- ٣١ - ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣ هـ.
- ٣٢ - السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.
- ٣٣ - ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

- ٣٤ - الشريف (أحمد إبراهيم): مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- ٣٥ - شلبي (د. أحمد): السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢، ١٩٨٧.
- ٣٦ - الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١.
- ٣٧ - الشيباني: الاكتساب في الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحة، تحقيق محمد عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨.
- ٣٨ - الشيباني: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢.
- ٣٩ - صالح (أحمد عباس): الصراع بين اليمين واليسار في الإسلام، مجلة الكاتب، القاهرة، ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤.
- ٤٠ - الأصفهاني: الأغاني، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٢، د. ت.
- ٤١ - الطائي (حاتم): ديوانه، تحقيق وشرح كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، د. ت.
- ٤٢ - الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- ٤٣ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.
- ٤٤ - عبدالرحمن (عبدالهادي): جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨.
- ٤٥ - علي (جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الحرية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.
- ٤٦ - علي (جواد): تاريخ العرب في الإسلام، دار الحرية، ط ١، بيروت، ١٩٨٣.
- ٤٧ - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.
- ٤٨ - ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦.
- ٤٩ - القمى (سيد محمود): دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحنفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع، أكتوبر ١٩٨٦.
- ٥٠ - القمى (سيد محمود): الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠.
- ٥١ - القمى (سيد محمود): حروب دولة الرسول (الجزء الأول: بدر وأحد)، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٣.

- ٥٢ - ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٨ .
- ٥٣ - الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨ .
- ٥٤ - مذكور (د. إبراهيم بيومي): في الفلسفة الإسلامية.
- ٥٥ - المسعودي: مروج الذهب، تحقيق محيي عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د. ت.
- ٥٦ - مروة (حسين): النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، بيروت، ط ٦، ١٩٨٨ .
- ٥٧ - المقدسي: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦ .
- ٥٨ - الموسوي: (عبدالحسين شرف الدين): النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمي، كربلاء، العراق، ١٩٦٦ .
- ٥٩ - ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٥٥ .
- ٦٠ - الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مرشد جونز، منشورات جامعة أكسفورد، لندن، ١٩٦٦ ، وأيضاً نشر مؤسسة الأعلامي، بيروت، د. ت.
- ٦١ - اليعقوبي: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٤، ١٩٧٤ .
- ٦٢ - أبو يوسف: الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩ .

من أعمال المؤلف

- ١ - الموجز الفلسفى: دار السياسة، الكويت، د. ت، (نفذ).
- ٢ - مشكلات فلسفية: بالمشاركة مع آخرين، التربية الكويتية.
- ٣ - أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة، مدبولى الصغير، القاهرة.
- ٤ - الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، مدبولى الصغير، القاهرة.
- ٥ - النبى إبراهيم والتاريخ المجهول، مدبولى الصغير، القاهرة.
- ٦ - الأسطورة والتراث، مدبولى الصغير، القاهرة.
- ٧ - حروب دولة الرسول: الجزء الأول، بدر وأحد، مدبولى الصغير، القاهرة.
- ٨ - حروب دولة الرسول: الجزء الثانى، مدبولى الصغير، القاهرة.
- ٩ - قصة الخلق؛ منابع سفر التكوين، مدبولى الصغير، القاهرة.
- ١٠ - إسرائيل، التوراة، التاريخ، التصيليل: مدبولى الصغير، القاهرة.
- ١١ - رب الزمان: مدبولى الصغير، القاهرة.

المحتويات

٥	إهداء
	تأسيس
٧	* مسار التاريخ
١٥	* التأسيس التاريخي للأمة
٢١	* الوسطية بين النقيض
٢٩	* صحيفة المعامل
	الباب الأول
٣٩	** دية بنى عامر: الوقائع من أحد إلى الخندق
٤١	* غدر العريان
٥١	* غزوة النضير
٥٩	* تأديب العريان
٦٥	* غزوة الخندق
	الباب الثانى
٩٥	** الاعتراف بقيام الدولة
٩٧	* إخضاع القبائل
١٠١	* غزوة المصطلق
١٠٧	* غزوة الحديبية
١٢٣	* فتح خيبر
	الباب الثالث
١٣٩	** فتح الفتوح
١٤١	* الإسلام وقواء

١٥١	* مكة: فتح الفتوح
١٦٥	* سرايا خالد بن الوليد
١٧١	* غزوة هوازن
١٧٩	* حصار الطائف

الباب الرابع

١٩٣	** قيام دولة العرب الموحدة
١٩٥	* البراءة
٢٠٥	* عام الوفود
٢١٩	المصادر
٢٢٣	من أعمال المؤلف

عربية للطباعة والنشر

١٠٠٧ شارع السلام - أرض اللواء المهندسين

تليمن ٣٠٣٦٠٩٨ - ٣٠٣١٠٤٣

حروب دولة الرسول

وعنا يستكمل باحثنا قراءاته الجديدة ، للمعارك التي خاضتها دولة الإسلام ، إبان دورها التأسيسي الأول ، في عهد المصطفى محمد ﷺ ، حيث أنهى في الجزء الأول من هذا العمل ، عند خواتيم غزوة (أحد) ، وما توجب عليها من نتائج ، أفرزت صراعات جديدة ، تضمنها صفحات الجزء الثاني ، في سبيل الحرص على استدامة الدولة الناشئة ، وتقوية دعائمها ، إزاء المناخ المعادي الذي أحاط بها .



وإذا كان تاريخ الكتابة العربية في هذه المنطقة ، قد ظل يعالجها بمنطق المعجزة والمقاجة والأحجية ، فإن الفكر الكبير صيد القمض يستمر هنا دون تراجع ، على العقلنة والموضحة ، ليدالج الأحداث كما حدثت بالفعل ، ويقدم لنا صورة النبي محمد الإنسان القائد القلبي ﷺ ، بحيث لا تنتهي من القراءة إلا وأنت أشد فخراً واعتزازاً بتلك القيادة النموذج والمثل الأروع ، وأكثر احتراماً لجهود علماء الأمة ، كتأب السير والأخبار والتاريخ ، وأكثر نقوراً من وعاء الإعلام وأصحاب المصالح ، الذين كادوا يذهبون بنا إلى قاع قلب نفايات الأمم العواير .